مواقع المغرب

التراث العالمي لليونيسكو

تقديم
محمد الأمين الصبيحي
وزير الثقافة

صور
سيسيل تريال رويز

المملكة المغربية
UNESCO
LA CROISÉE DES CHEMINS

مواقع المغرب

التراث
العالمي
لليونيسكو

فاس

مراكش

آيت بن حدو

مكناس

تطوان

وليلي

الصويرة
(موكادور)

الجديدة
(مازاكان)

الرباط

صورة الغلاف :

القصر الملكي بفاس، جزء من البوابة الرئيسية.

مواقع التراث العالمي لليونيسكو المغرب

فاس

مراكش

آيت بن حدو

مكناس

تطوان

وليلي

الصويرة

(موكادور)

الجديدة

(مازاكان)

الرباط

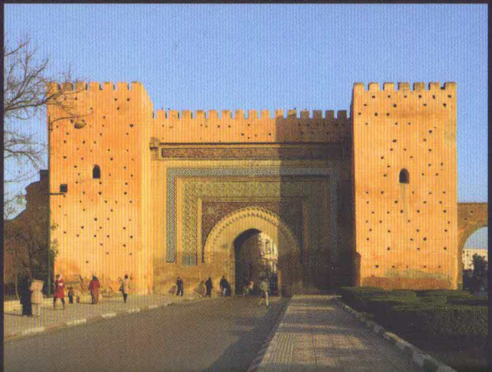

Organisation des Nations Unies pour l'éducation, la science et la culture

En soutien des **Célébrations du 70e anniversaire de l'UNESCO**

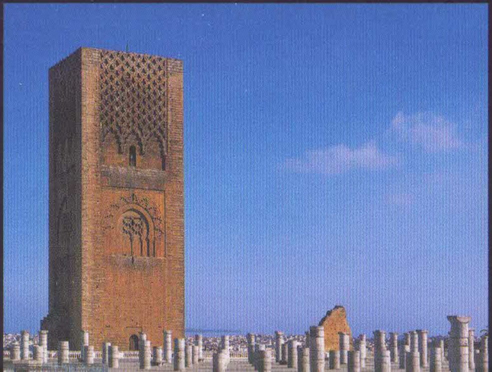

ردمك : 978-9954-1-0561-0
الإيداع القانوني : 2016MO1718

EDITIONS LA CROISÉE DES CHEMINS

المملكة المغربية
وزارة الثقافة

UNESCO

مواقع المغرب

التراث العالمي لليونيسكو

الناشر
عبدالقادر الرتناني

مكلف بمتابعة المشروع
ابراهيم الرتناني

المدير الفني
ريشار لورو

المصورين
سيسيل تريال
ج.م رويز

التصميم الفني
فاطمة الزهراء عبقاري

مراجعة وتصحيح
محمد اڭرو

ترجمة
عبد الكريم جويطي بتعاون مع المساهمين

الإيداع القانوني
2016MO1718

ردمك
978-9954-1-0561-0

© منشورات ملتقى الطرق
© وزارة الثقافة

طباعة
Bilnet

تقديم

محمد الأمين الصبيحي

توطئة

عبد الله علوي

تمهيد

سمير قفص

محمد بلعتيق

نصوص

محسن الإدريسي العمري

يوسف خيارة

محمد بوصلح

أبا صدقي

العربي المصباحي

محمد اكبيري علوي

عبد الفتاح إشخاخ

أبو القاسم الشـبري

أحمد صالح الطاهري

الفهرس

تقديم 10
التراث العالمي للإنسانية

تمهيد 12
المغرب و اليونسكو

توطئة 14
التراث الثقافي المادي المغربي

فاس 21
مدينة فاس العتيقة

مراكش 59
آبدة تراثية مزدوجة التصنيف

آيت بن حدو 109
موقع للتراث العالمي مشيد بالتراب

مكناس 139
فضاء حضري في تحول شامل

تطوان 159
سجل للفنون والتقاليد

وليلي 193
تراث مادي للإنسانية

الصويرة 223
موڭادور، مدينة ساحلية بروافد حضارية

الجديدة 255
مازاڭان ملتقى الثقافات، مازاڭان الكونية

الرباط 291
تراث مُتقاسَم

التراث العالمي للإنسانية

مواقع المغرب

محمد الأمين الصبيحي
وزير الثقافة

يعتبر المغرب صلة وصل بين إفريقيا والحوض المتوسطي والشرق. ويعد بهذا التميز الطبيعي وبغنى تاريخه العريق، حاضنا عميقا للحضارات. وقد تمكن خلال هذا المسار التاريخي الضارب في القدم، أن يراكم تراثا ثقافيا زاخرا ومتنوعا، تم إغناؤه وإعادة تشكيله عبر تعاقب الأجيال، عاكسا بذلك ثقافة متفردة بتعدد مكوناتها وروافدها، ومنفتحة باستمرار على العالم. إن هذا الموروث الثري بشواهده وتعابيره المادية وغير المادية، الذي نحن مؤتمنون عليه اليوم، يعتبر مبعث فخر لكل المغربيات والمغاربة. هذا الفخر الذي علا أدراج التتويج الدولي باعتراف منظمة اليونسكو لتسعة مواقع مغربية للتراث المادي بقيمتها العالمية الفريدة، ولستة عناصر من التراث غير المادي بصفتها تراثا ثقافيا لا ماديا للإنسانية.

ويتناول هذا المؤلف مواقع التراث الثقافي المغربية التسعة المسجلة ضمن قائمة التراث العالمي لليونسكو، وهي: المدينة العتيقة لفاس (1981)، المدينة العتيقة لمراكش (1985)، قصر آيت بن حدو (1987)، المدينة التاريخية لمكناس (1996)، الموقع الأثري لوليلي (1997)، المدينة العتيقة لتطوان (تيطاوين قديما) (1997)، المدينة العتيقة للصويرة (2001)، الحي البرتغالي مازغان بالجديدة (2004)، والرباط، الحاضرة التاريخية والعاصمة الحديثة، تراث مشترك (2012).

إن هذه الحظوة الدولية تعني أن هذه المواقع والمجموعات الحضرية تشكل قيمة تجاوز الاعتراف بها الحدود الوطنية وتفيد أيضا وجوب حفظ هذا التراث الثقافي لصالح الإنسانية جمعاء. لذلك، فإن الشعور بالاعتزاز الكامل بهذا التتويج ينبغي أن يقرن بواجب حماية هذا التراث العالمي وصيانته وتثمينه.

في هذا الإطار، يحيط صاحب الجلالة الملك محمد السادس، حفظه الله، الورش الكبير المتمثل في المحافظة على التراث الثقافي، بعناية والتزام ثابتين أفضيا إلى إطلاق وإنجاز أشغال كبرى للترميم والتجديد. وقد مكن هذا الاهتمام الملكي السامي من وضع تثمين التراث الثقافي الوطني في صلب السياسات العمومية بهدف جعله رافعة للتنمية المستدامة وخلق تناسق حقيقي بين مختلف المتدخلين.

وإذا كانت مسؤولية المحافظة على التراث من المهام الموكولة، على المستوى المؤسساتي، لوزارة الثقافة، فهي بالقطع، مسؤولية تتحملها، أيضا، بشكل مشترك مجموعة من المؤسسات العمومية والخصوصية.

تباشر وزارة الثقافة المهام الموكولة إليها، في مجال الصيانة والمحافظة على التراث، عبر هياكلها المركزية واللاممركزة، وأساسا، مديرية التراث الثقافي ومجموع مسؤولي المواقع التاريخية والباحثين الأثريين والمهندسين المعماريين والمفتشين والمحافظين، الذين يتحملون مسؤولية

المحافظة على التراث الثقافي وتثمينه والتتبع اليومي لوضعيته وحمايته على المدى الطويل. بفضل هؤلاء المختصين، نكتشف بين دفتي هذا المؤلف كنوزا من التراث المغربي وتاريخها العريق.

تتكون الغالبية العظمى لهذه المواقع من الأنسجة الحضرية، ومن المدن التي تشكل مجموعات مركبة يتساكن فيها الماضي مع الحداثة، ويتجسد فيها التراث كفضاء للعيش الجماعي المشترك. وقد يبدو مطمْئنا، من منظور المحافظة على التراث، تجميد هذه المدن التاريخية في ماض مثالي وتحويلها إلى ما يشبه الفضاء المتحفي. ولكن ذلك قد يحجب حقيقة كون هذه المدن هي، قبل كل شيء، أمكنة حاضنة للعيش، يقطنها مواطنون يتقاسمون نفس التطلعات لحياة كريمة، تطبعها جودة العيش وتلبية حاجياتهم الأساسية، على غرار إخوانهم بباقي التجمعات السكنية عبر التراب الوطني.

إن الصيانة المستدامة لمدينة تاريخية عتيقة أو لمشهد ثقافي عريق، ينبغي أن توفق بين المحافظة على معالم الماضي وجودة عيش القاطنين بها، ولا يمكن تحقيق ذلك إلا بإشراكهم في كل عمليات الحماية والتثمين. هذا الإشراك يظل رهينا بالتعريف الواسع للساكنة بتاريخنا بكل عمقه وغناه، لتوطيد العلاقة بينها وبين شواهده المادية، وبالرهانات الاقتصادية والسياحية لتثمين موروثنا الثقافي وخلق الشروط المواتية لنقله إلى الأجيال القادمة.

يتوفر المغرب، على امتداد جهاته، على الكثير من الكنوز التراثية الأخرى القابلة للارتقاء إلى مصاف المشترك الإنساني. يتعلق الأمر بمواقع طبيعية ومناظر ثقافية وفضاءات نقوش وصباغات صخرية ومواقع صناعية قديمة وحديثة وأنظمة واحية وهندسة معمارية للقرن العشرين، وغيرها كثير، سوف تدرج ضمن اللائحة التمهيدية المنقحة لإعداد اقتراحات الترشيح الخاصة بهذه الكنوز وتقديمها إلى الهيئات المختصة في منظمة اليونسكو لدراسة أحقيتها في الحصول على صفة تراث عالمي.

يعد هذا المؤلف، الخاص بمواقع المغرب المسجلة ضمن قائمة التراث العالمي لليونسكو، جزءا من هذه العملية التواصلية والتحسيسية بأهمية المحافظة على التراث الثقافي الوطني وتثمينه. ومن هذا المنظور، بادرت وزارة الثقافة إلى إصداره بشراكة مع دار النشر «ملتقى الطرق».

لكل من ساهم في إنجاز هذا المؤلف الأنيق موفور الشكر والعرفان.

المغرب واليونسكو

عبد الله علوي

مدير التراث

صادق المغرب، باعتباره دولة-طرفا في منظمة اليونسكو، على جميع الاتفاقيات الدولية المتبناة من قبل هذه المنظمة الأممية في مجال صون التراث الثقافي، ويتعلق الأمر باتفاقية لاهاي لحماية التراث الثقافي في حالة نزاع مسلح (1954) والاتفاقية بشأن التدابير الواجب اتخاذها لحظر ومنع استيراد وتصدير ونقل ملكية الممتلكات الثقافية بطرق غير مشروعة (1970) واتفاقية حماية التراث العالمي الثقافي والطبيعي (1972) واتفاقية المعهد الدولي لتوحيد القانون الخاص (يونيدروا) بشأن الممتلكات الثقافية المسروقة أو المصدرة بطرق غير مشروعة (1995) واتفاقية حماية التراث الثقافي المغمور بالمياه (2001) واتفاقية صون التراث الثقافي غير المادي (2003) واتفاقية حماية وتعزيز تنوع أشكال التعبير الثقافي (2005).

وفي نونبر 1972 صادقت منظمة اليونسكو خلال جمعها العام المنعقد بباريز على اتفاقية حماية التراث العالمي الثقافي والطبيعي التي تهدف إلى صون الإرث الثقافي والطبيعي ذي القيمة الكونية الاستثنائية، ونقله إلى الأجيال المقبلة.

ومنذ مصادقة المغرب على هذه الاتفاقية، لم يدخر أي جهد لتسجيل المواقع المتميزة من رصيده الحضاري ضمن لائحة التراث العالمي. وبفضل نجاعة سياسته لتفعيل مقتضيات الاتفاقية المعنية، يتوفر المغرب اليوم على تسعة مواقع مسجلة كتراث إنساني فضلا عن نيله العضوية داخل لجنة التراث العالمي المؤلفة من 21 دولة-طرفا خلال الفترتين

1995 – 2000 و 2006 – 2009. وتوج المغرب حضوره داخل اليونسكو بترؤس الدورة الثالثة والعشرين سنة 1999 بمراكش.

ولعله من الضروري في الوقت الراهن وضع حصيلة لمدى إدماج وتفعيل مقتضيات اتفاقيات منظمة اليونسكو ضمن ترسانة القوانين الوطنية ومدى وقعها الفعلي على صون التراث الثقافي، علما أن المغرب يتميز بكونه أول بلد عربي وإفريقي من حيث عدد المواقع المسجلة على لائحة التراث العالمي، كما ينفرد على صعيد المنطقة العربية بتسجيله صنفا جديدا من التراث الثقافي يتعلق الأمر بمدينة الرباط الحديثة، بالإضافة إلى اقتراح ترشيح مدينة الدار البيضاء كمنظر حضري تاريخي حديث.

ومن خلال مراجعة لائحته التمهيدية، يفصح المغرب عن رغبته في اقتراح أوجه جديدة واستثنائية من تراثه الثقافي والطبيعي كالمناظر الثقافية والواحات والمخازن الجماعية بالإضافة إلى المواقع الطبيعية والمختلطة.

والجدير بالذكر أن انخراط المغرب في تفعيل اتفاقية التراث العالمي ساهم بقوة في تعزيز الخبرة الوطنية في مجال إعداد ملفات الترشيح وتدبير المواقع المسجلة. وفي هذا الصدد تكثف وزارة الثقافة جهودها من أجل تعميم مخططات التدبير– التي أضحت وثيقة استراتيجية للمحافظة – على جميع المواقع والمدن التاريخية المغربية سواء كانت مسجلة أو غير مسجلة كتراث إنساني. ولقد تم الاقتداء بمخططي تدبير مدينة الرباط و قصر آيت بنحدو لوضع مخطط نموذجي سيعتمد في إعداد الاستراتيجية الوطنية لحماية وتثمين التراث المعماري والعمراني.

التراث الثقافي المادي المغربي

إرث عريق وغنى استثنائي

محمد بلعتيق
باحث في الآثار الإسلامية
رئيس قسم المتاحف

تراث يجسد التعددية ويرمز إلى الهوية : بفضل موقعه الاستراتيجي كملتقى للطرق الرابطة بين إفريقيا وأوروبا وبلاد المشرق، شكل المغرب دوما بوتقة حضارية متميزة في منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط وشمال إفريقيا. فعلى مر تاريخه العريق وبفعل تعاقب العديد من الحضارات على أرضه، تشكل إرث ثقافي غني ومتنوع ضارب في القدم، ليصلنا عبر أجيال متلاحقة.

استمد هذا الموروث مصدره من أصول أمازيغية وعربية، وتغذى على تأثيرات متوسطية وإفريقية وشرقية وأخرى إسلامية ويهودية ومسيحية. ومكن التمازج الحاصل بين الإسهامات الأجنبية والتقاليد المحلية، من خلق تنوع ثقافي استثنائي تبلورت مظاهره في فسيفساء ثقافية تحمل خصوصيات محلية متفردة، كما تجسد على الأرض من خلال تعدد اللغات والعادات والتقاليد والمعتقدات والتعابير والأساليب الفنية المختلفة. من جهة أخرى، شكل المغرب ولا زال، على الرغم من غلبة الطابع الإسلامي على نظامه وعلى مظاهر الحياة اليومية فيه، أرضا للتعايش بين مختلف الثقافات والديانات. ويؤكد ذلك تواجد جاليات يهودية ومسيحية على أرضه منذ العهود القديمة. وبالفعل، استقطبت عدة مدن مغربية كفاس ومراكش وتطوان والرباط ومكناس وسبتة، وكذلك الأمر بالنسبة لقرى جبال الأطلس وواحات وأودية الجنوب الشرقي للبلاد، عبر التاريخ، موجات من الهجرات اليهودية القادمة من الشرق والأندلس. ثم تلاها في مراحل متأخرة، وصول جاليات مسيحية في إطار العلاقات التي نسجت بمنطقة حوض البحر الأبيض المتوسط بين المغاربة والأوروبيين. وقد تعايشت هذه المجموعات البشرية مع المسلمين وتطورت في جو من التفاهم والسلام مما ساهم في إغناء الحضارة المغربية برصيد ثقافي هام ومتميز. كما تمخض عن هذا الانصهار الثقافي تلاقح على المستويات الفنية والتراثية والعديد من مظاهر الحياة اليومية، وتجسد ذلك في المهارات والصنائع والعادات والتقاليد واللغة والآداب والفنون، لتظل هذه الشواهد التاريخية والحضارية اليوم، رمزا أكيدا للهوية المغربية المتعددة الروافد وتعبيرا صريحا عن روح الانتماء الذي يربط المغاربة بأرضهم ووطنهم.

من هذا المنطلق، يزخر المغرب بتراث ثقافي مادي غني ومتنوع يضم، بالإضافة إلى المعالم التاريخية والمواقع الأثرية، مجالات ثقافية وطبيعية وأخرى مختلطة تعبر عن تفاعل الإنسان مع محيطه الطبيعي. وتنتشر هذه المكونات على طول التراب الوطني، وتهم المراحل التاريخية المتعاقبة. فسواء تعلق الأمر بمعالم بسيطة أو ضخمة، مجهولة أو شهيرة، قروية أو حضرية، قديمة أو حديثة، فهي كلها تثبت بما لا يدع مجالا للشك، عراقة حضارتنا الضاربة في القدم. ويمكن اليوم تعداد ما لا يقل عن 20 مدينة عتيقة و150 موقعا أثريا معروفا وحوالي 400 معلمة تاريخية مصنفة ضمن لائحة التراث الثقافي الوطني، ومئات القصور والقصبات والقرى التاريخية التي تندرج ضمن الخصوصيات المحلية

للعمارة القروية التقليدية. هذا دون أن نذكر آلاف الممتلكات الثقافية التي تم جردها وتوثيقها اعتبارا لما تحمله من قيم بالنسبة لتاريخ المغرب وحضارته، وعددا مهما من المدن والمواقع التاريخية المسجلة ضمن لائحة التراث العالمي.

تراث يجسد الاستمرارية : توسع اليوم مفهوم التراث الثقافي المادي وأصبح كل شيء يندرج ضمن مكوناته. فهو لا يضم فقط البقايا الأثرية التي تعود لماض سحيق، بل أيضا إبداعات وابتكارات الأمس القريب واليوم والتي تتطور بوتيرة متسارعة. كما أنه يحتضن إجمالا كل ما من شأنه المحافظة على ذاكرة عالمنا التي تندثر أمام أعيننا. وقد تطور مفهوم التراث تدريجيا فأضحى يشمل مجالات شاسعة وعناصر مختلفة من الثقافة المادية لمجتمعنا، عكس ما كان عليه الأمر في البداية، حيث كان يقتصر على المعالم الضخمة والشهيرة. وهكذا أصبحت العديد من العناصر المهملة سلفا لسبب من الأسباب، تندرج ضمن مكونات التراث الثقافي الوطني كما هو الحال بالنسبة لهندسة وعمران الفترة الاستعمارية والتراث الصناعي والتكنولوجي والمجالات الثقافية...

لقد أدى الوعي المتنامي بأهمية التراث إلى رد الاعتبار للعديد من الشواهد التاريخية والأساليب الفنية التي أصبحت تشكل جزءا لا يتجزأ من تاريخنا وثقافتنا العريقة المنفتحة على العالم. وقد تجلت حيوية موروثنا الثقافي أثناء الفترة الاستعمارية من خلال العديد من المنجزات الهندسية والعمرانية التي امتزجت فيها الأنماط المغربية التقليدية بالأساليب الأوروبية العصرية لتعطينا نماذج هندسية وفنية رائعة ومتفردة من الطرازات الكلاسيكية والنيوموريسكية والآرديكو... وتتجلى الاستمرارية إلى يومنا هذا أيضا، في الإنجازات المعمارية والفنية المعاصرة للسلاطين العلويين والمتمثلة في ضريح محمد الخامس ومسجد لالة سكينة بالرباط ثم مسجد الحسن الثاني بالدار البيضاء والذي يعد آية في الجمال والإبداع، هذا إضافة إلى العديد من البنايات الحديثة التي أنجزت وفق الأساليب الهندسية والمعمارية التقليدية مع انفتاح على التطورات العالمية في مجال الهندسة والبناء. وتجعل هذه العوامل مجتمعة من تراثنا الثقافي مصدرا خصبا للاقتباس والإبداع اللامتناهي كما تؤكد طابع الانفتاح الذي يميز البلد وأهله.

تراث ذو بعد عالمي استثنائي : يتميز التراث الثقافي المادي المغربي بكونه إرثا ذا بعد كوني. ويتجسد ذلك من خلال العدد الهام من المواقع والمدن والمعالم المسجلة ضمن لائحة التراث الإنساني والتي تحمل قيما إنسانية استثنائية. وقد انخرط المغرب منذ مدة طويلة في مجهودات اليونيسكو الرامية إلى حماية التراث العالمي، وصادق في 28 أكتوبر 1975 على الاتفاقية الدولية المتعلقة بحماية التراث الثقافي والطبيعي. ومنذئذ عملت وزارة الثقافة على تفعيل الاتفاقية وبذلت جهودا كبيرة من أجل إدراج المواقع المتميزة من تراثنا في لائحة التراث الإنساني وحمايتها ورد الاعتبار إليها. وقد نالت لحد الآن تسعة مواقع ومعالم تاريخية اعتراف منظمة اليونسكو كممتلكات ذات أهمية عالمية استثنائية، وهي على التوالي: مدينة فاس (1981) ومدينة مراكش (1985) وقصر آيت بن حدو (1987) والمدينة التاريخية لمكناس (1996) والموقع الأثري وليلي (1997) والمدينة العتيقة لتطوان (1997) ومدينة الصويرة (2001) والقلعة البرتغالية مزاغان بالجديدة (2004) ومدينة الرباط (2012). ولا زال العديد من المعالم والمواقع الأخرى ينتظر دوره لنيل شرف الانضمام إلى هذه القائمة الشهيرة.

حول اتفاقية التراث العالمي

سمير قفص

عالم آثار - رئيس قسم جرد وتوثيق التراث

مسار الاتفاقية : احتفلت اتفاقية التراث العالمي بمرور أربعين سنة على إعلانها في 2012 متوجة مسارا طويلا وحافلا أقرت من خلاله رصيدا إنسانيا ثقافيا وطبيعيا استثنائيا عبر ربوع العالم. إن التسجيل ضمن قائمة التراث العالمي تكريس للغنى والتنوع واقتسام جوانب هامة من هذا الإرث الثقافي والطبيعي « يتوجب على المجتمع الدولي برمته أن يساهم في صونه وتثمينه ». لقد انطلق مسار تكريس هذه الآلية المعيارية الهامة منذ 1959 من خلال أولى الحملات التي قادتها اليونسكو من أجل المحافظة على المعالم التاريخية في بلاد النوبة بمصر. ومن سنة 1965 إلى سنة 1972 وضع مشروع « تروست» (trust) حيّز التنفيذ من خلال إبرام عدّة اتفاقيات متعلقة بحماية التراث الطبيعي والثقافي. وقد تبنى مؤتمر ستوكهولم المنعقد سنة 1972 مجموع النتائج التي خلص إليها المشروع المذكور. وفي 16 نونبر من نفس السنة تبنى المؤتمر العام لليونسكو الاتفاقية المتعلقة بحماية التراث العالمي الثقافي والطبيعي.

لقد تم تسجيل العناصر الأولى في شتنبر 1978 إبان الدورة الثانية للجنة التراث العالمي. وتتضمن قائمة التراث العالمي اليوم 1031 موقعا، من بينها 31 موقعا مشتركا حيث يشكل مجموع هذه المواقع تراثا ثقافيا وطبيعيا ينفرد، حسب لجنة التراث العالمي، بقيمته الكونية الاستثنائية.

تتضمن هذه القائمة 802 موقعا ثقافيا و197 موقعا طبيعيا و32 موقعا مختلطا و46 موقعا مهددا وموقعين اثنين أخرجا من القائمة، كلها موزعة على 163 دولة-طرف. وضمن 191 دولة-طرف موقعة على اتفاقية التراث العالمي، هناك ثلاثون دولة لم تحظ بعد بتسجيل أحد مواقعها كتراث إنساني.

لكي تقبل اقتراحات التسجيل المقدمة من طرف الدول-الأطراف في الاتفاقية ينبغي أن تثبت أولا القيمة الكونية الاستثنائية للموقع المعني، وأن تبرهن ثانيا على وحدته وأصالته ويتوجب عليها في مرحلة ثالثة تقديم الضمانات الضرورية لحماية قيمته الكونية الاستثنائية.

يؤمن مسار الترشيح والتقويم ومتابعة حالة المحافظة على موقع التراث العالمي من طرف لجنة التراث العالمي المشكلة من واحد وعشرين عضوا منتخبا من بين الدول-الأطراف في اتفاقية 1972 المتعلقة بحماية التراث العالمي الثقافي

والطبيعي. كما أن المواقع المقترحة تسجل قبليا في قائمة تمهيدية قبل تقديم ملف الترشيح النهائي للتسجيل ضمن قائمة التراث العالمي.

ومنذ التوقيع على الاتفاقية في سنة 1978، ساهم المغرب بفعالية في تطبيقها من خلال المشاركة في مختلف اللجان وإغناء قائمة التراث العالمي عبر تسجيل عدة مواقع مغربية استثنائية. وفي سنة 2012 أضحى المغرب يتوفر على تسعة مواقع مسجلة ضمن التراث العالمي، مسجلا، بالتساوي مع دولة إثيوبيا، أكبر عدد من المواقع على مستوى المنطقة العربية وإفريقيا. وسبق أيضا للمغرب أن ترأس لجنة التراث العالمي في سنة 1999، التي كانت قد عقدت دورتها الثالثة والعشرين في مدينة مراكش. من المؤكد أن كل دورة من دورات لجنة التراث العالمي لا تكون مجرد مناسبة لتسجيل مواقع جديدة بل هي كذلك فرصة سانحة لرصد الحالة الراهنة للمواقع الطبيعية والثقافية المسجلة والإجراءات المتخذة من طرف الدول-الأطراف فيما يتعلق بالمحافظة عليها وتدبيرها. ولتضطلع بهذه المهمة، ترتكز اللجنة على التقارير المعدة من طرف الهيئات الاستشارية المعتمدة لديها والمتمثلة في المجلس الدولي للمحافظة على المباني والمواقع (ICOMOS)* والاتحاد الدولي من أجل الحفاظ على الطبيعة (IUCN)** والمركز الدولي للمحافظة وترميم المعالم والمواقع الثقافية (ICCROM)***.

من المعلمة إلى المنظر الثقافي : بين سنتي 1978 و1990 ركزت التسجيلات أساسا على المعالم والمواقع التاريخية والطبيعية المشهورة، والمعروفة آنذاك ب « عجائب الدنيا». تستجيب هذه العناصر الاستثنائية للفقرة الأولى من البند 1 لنص المبادئ التوجيهية لتنفيذ اتفاقية التراث العالمي : « الآثار : الأعمال المعمارية، وأعمال النحت والتصوير على المباني، والعناصر أو التكوينات ذات الصفة الأثرية، والنقوش، والكهوف، ومجموعات المعالم التي لها جميعا قيمة عالمية استثنائية من وجهة نظر التاريخ، الفن أو العلم.»

---

* ICOMOS : المنظمة الدولية غير الحكومية للمهنيين والتي تعمل على المحافظة على المعالم والمواقع التاريخية في العالم.

** IUCN : الاتحاد الدولي من أجل الحفاظ على الطبيعة.

*** ICCROM : المركز الدولي لدراسات المحافظة وترميم المواقع الثقافية.

من ضمن المباني التاريخية والمواقع الشهيرة التي تنتمي إلى هذه الفترة الزمنية، نخص بالذكر موقع أبو سمبل بنوبة مصر والمسجل سنة 1979. وفي إطار تفعيل اتفاقيات التراث العالمي ما بين 1990 و 2000، برزت مكونات أخرى جديدة من التراث الإنساني تجاوزت المفهوم الضيق للمعلمة نحو منظور أوسع يتجلى في المجموعات أو المركبات سواء تعلق الأمر بالتراث الثقافي أو التراث الطبيعي.

يميز البند 2 من التوجيهات المتعلقة بالتراث الطبيعي ثلاثة أشكال رئيسية : « المعالم الطبيعية المتألفة من التشكلات الفيزيائية أو البيولوجية، أو من مجموعات هذه التشكلات» و « مجموعات المباني المنعزلة أو المتصلة، التي لها بسبب عمارتها، أو تناسقها، أو اندماجها في منظر طبيعي» وكذا «المواقع الطبيعية أو المناطق الطبيعية المحددة بدقة « لكل منها قيمة كونية استثنائية من وجهة نظر العلم أو المحافظة أو الجمال الطبيعي.

إن المراجعات المتأخرة التي واكبت مسار تطور اتفاقية التراث العالمي همت المبادئ التوجيهية لتنفيذها، ولقد تمخضت عنها أصناف جديدة من شأنها أن تفضي إلى قائمة أكثر توازنا وأكثر تمثيلية لغنى وتنوع التراث الثقافي والطبيعي عبر مختلف مناطق العالم. وضمن هذه المقاربة ظهر أولا مفهوم التراث المختلط، ثقافي وطبيعي، قبل أن يتطور إلى مفهوم أكثر تطورا ويتعلق الأمر بالمنظر الثقافي والذي يمثل أعمال الإنسان أو الأعمال المشتركة بين الإنسان والطبيعة. وتبرز المناظر الثقافية «تطور المجتمع الإنساني وترسخه عبر الزمن، وتفاعله مع الإكراهات الفيزيقية والإمكانيات التي يتيحها المحيط الطبيعي والقوى الاجتماعية والاقتصادية والثقافية كانت داخلية أو خارجية ».

لقد انضاف إلى خانة المعايير المعتمدة في تصنيف المواقع تراثا عالميا، معياران جديدان نخص بالذكر منهما المعيار السادس الذي يشترط فيه «أن يكون الممتلك مرتبطا ارتباطا عضويا مع أحداث أو تقاليد حية وأفكار، ومعتقدات أو أعمال فنية وأدبية لها دلالة كونية واستثنائية» ، وتحبذ لجنة التراث العالمي أن يستعمل هذا المعيار بمعية المعايير الأخرى. ولقد أسهمت هذه الإضافات الجديدة في تدعيم التعاون الدولي ومد الجسور بين التنوع الثقافي والتنوع البيولوجي. كما أن مفهوم «المنظر الثقافي» خلق نوعا من التفاعل الإيجابي بين الاتفاقيات المختلفة لمنظمة اليونسكو وبالأخص بين اتفاقية التراث العالمي (1972) واتفاقية حماية التراث الثقافي غير المادي (2003).

وفي مسار التعرف والاعتراف بالتراث الثقافي الذي انخرطت فيه مختلف الدول-الأطراف، استأثرت أصناف أخرى بالاهتمام كالتراث الصناعي والتراث العلمي والتقني وتراث الحداثات. ويعد المغرب أول بلد في المنطقة

العربية يقوم بتسجيل عنصر من التراث الحديث في قائمة التراث العالمي والممثل في مدينة الرباط. إن تسجيل هذا المنظر الحضري التاريخي قد تم على أساس « القيمة الاستثنائية لتراثه الحضري والمعماري المعاصر، كنتيجة حوار مثمر بين الحضارة الإسلامية والحداثة الغربية ».

في صون القيمة الكونية الاستثنائية : إن التسجيل ضمن لائحة التراث العالمي يعد مصدر فخر للدول الأعضاء في اتفاقية التراث العالمي، إلا أن هذا التشريف لا يعدو أن يكون سوى نقطة البداية في اتجاه تكريس المزيد من الحماية والتثمين للممتلك المعني من أجل تقاسم قيمته الكونية الاستثنائية. ولكي يتسنى الحفاظ على القيمة الكونية الاستثنائية وعلى وحدة وأصالة الممتلك، تفرض اللجنة على الدول-الأطراف إخبارها بكل تغيير أو تدخل يهم المجال المسجل ومنطقته الحمائية. وفي هذا الصدد يمكن للجنة أن تطلب من مركز التراث العالمي وهيئاته الاستشارية إعداد تقارير خبرة حول المواقع المعنية. وعلى إثر ذلك توافي اللجنة الدولة-الطرف برأيها في الموضوع ويمكن أن تطلب منها التدخل لتغيير طبيعة المشروع أو التخلي نهائيا عن إنجازه. وإن ثبت أن وحدة الممتلك مهددة، تبادر اللجنة لتسجيله في « قائمة التراث العالمي المهدد». وفي حالة ثبوت فقدان ممتلك ما لقيمته الكونية الاستثنائية يصح للجنة أن تشطبه من قائمة التراث العالمي (سجلت حالتان : محمية المها العربي بسلطنة عمان سنة 2007 ووادي إيلبه دريسدن بألمانيا سنة 2009).

ولقد أضحت مخططات تدبير الممتلكات ضرورة لامحيد عنها وعنصرا بالغ الأهمية ضمن ملفات مقترحات التسجيل في لائحة التراث العالمي. إذ تأخذ هذه الوثيقة الاستراتيجية بعين الاعتبار تدبير قيم الممتلك بناء على القيمة الكونية الاستثنائية وتحرص بكل مصداقية على تنظيم التقائية مختلف المتدخلين وتحديد مؤشرات النتائج المرتقبة.

يعد المغرب من بين الدول-الأطراف القليلة في المنطقة العربية وإفريقيا التي قدمت مخططا لتدبير الممتلكات المسجلة (قصر آيت بن حدو، مدينة الرباط)، كما أنه اقتداء بمخطط تدبير مدينة الرباط تمت بلورة مخطط نموذجي لتدبير باقي المواقع التاريخية المغربية سواء كانت مسجلة كتراث عالمي أو غير مسجلة.

إن تدبير مواقع التراث العالمي، مهما تكن قيمتها، يتم تحت أنظار المجتمع الدولي في مجموعه، وينبغي على الدول-الأطراف في الاتفاقية (وكل الفاعلين المعنيين) أن يكونوا مستعدين لتقديم المعلومات والبيانات حول صيانته وتدبيره كلما دعت الضرورة إلى ذلك.

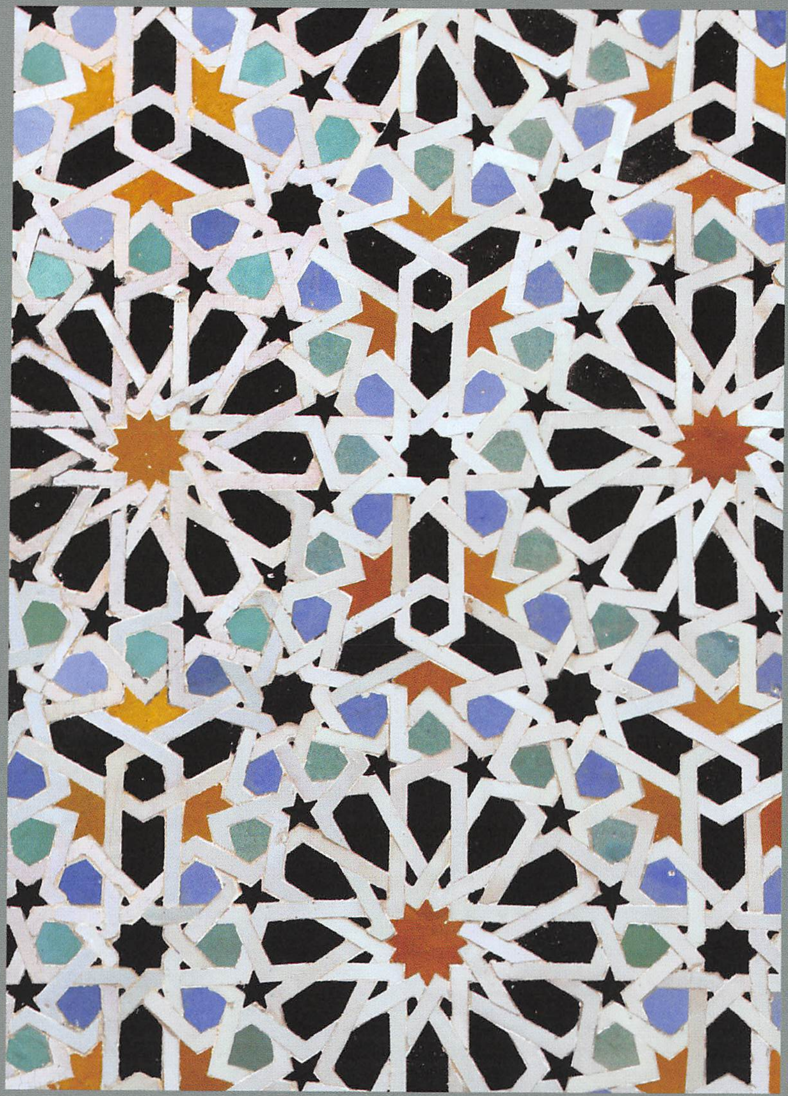

فاس

تراث ثقافي مغربي

مدينة فاس العتيقة

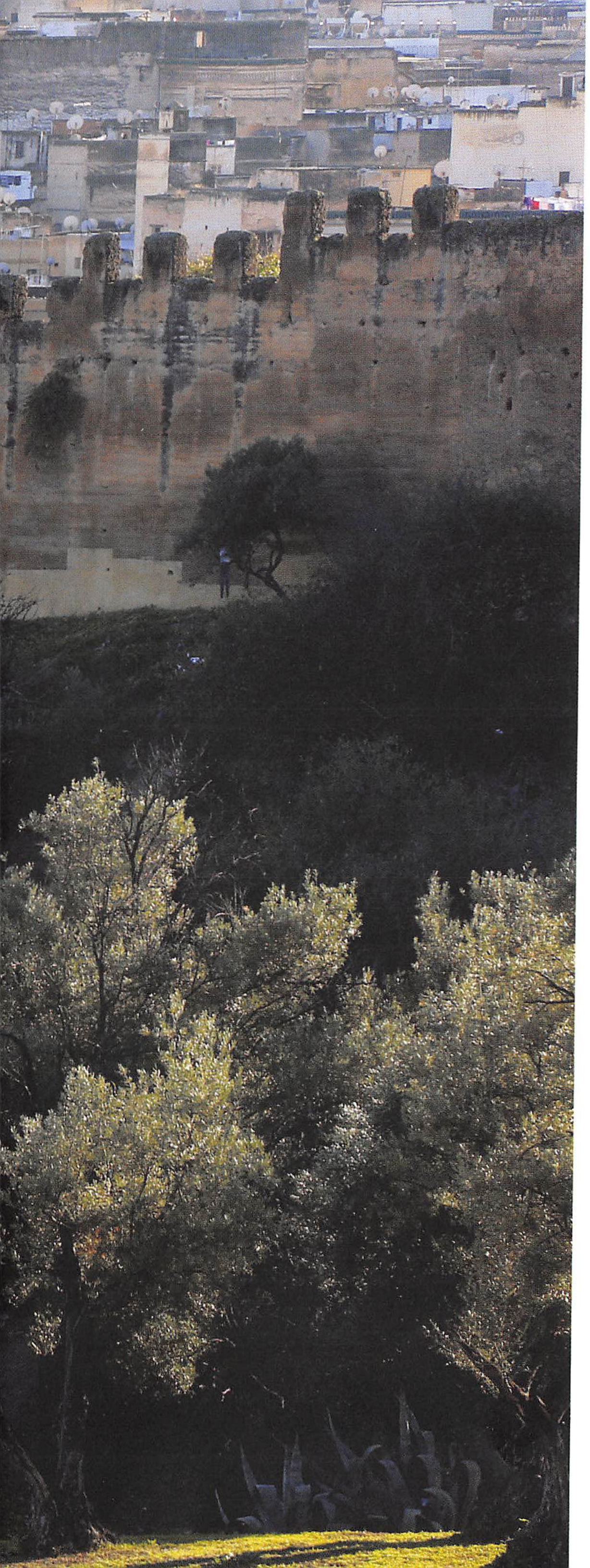

فاس،
منظر عام للمدينة.

مدينة فاس العتيقة

موقع من التراث العالمي منذ سنة *1981*

محسن الإدريسي العمري

أستاذ، باحث في التاريخ وعلم الآثار

أسست مدينة فاس بجوار أراضي فلاحية شاسعة وبساتين، في موضع يتميز بوفرة مياه العيون وروافد نهر منتظم الجريان، وفي موقع استراتيجي هام بالمنطقة الوسطى الشمالية للمغرب. يحاذي هذا الموقع المحمي من فيضانات نهر سبو، مقالع واسعة لمادتي الطين والرمل، وكذا غابات الأطلس الغنية بخشب البناء. وقد ساهمت كل هذه المؤهلات بشكل واسع في ازدهار عمران المدينة، وتطور عمارتها على امتداد عدة قرون.

تم تقديم العديد من التفسيرات بشأن أصل تسمية مدينة فاس. وقد وردت بالمصادر التاريخية خمسة تأويلات على أقل تقدير لهذه التسمية، من ضمنها تلك التي تشير إلى أن موضع مدينة فاس كانت تحتله، في الأيام الخوالي، مدينة تسمى «ساف» اندرست مع الزمن. وقد أخذ المولى إدريس الثاني هذا الإسم، وأمر الناس بقلبه فنتج عن ذلك إسم المدينة الحالي «فاس».

بمقابل هذه الرواية تأتي الفرضية التي قدمها أحد الباحثين المعاصرين الذي يرى أن أصل مصطلح «فاس» يعود إلى الكلمة الأمازيغية «أفاس» التي تعني «ما يوجد على اليمين»، في إحالة إلى النواة الأولى لمدينة فاس التي كان المولى إدريس الأزهر قد أحدثها، بتاريخ 04 يناير 808 م (فاتح ربيع الأول 192 هـ)، على الضفة اليمنى للوادي الذي أصبح منذ ذلك التاريخ يحمل اسم المدينة، وادي فاس، (D. Eustache, 1970-1971, p. 147).

على إثر ذلك، أمر المولى إدريس الثاني (في الفاتح من ربيع الثاني 193 هـ /

مدرسة العطارين،
جزء من النقوش.

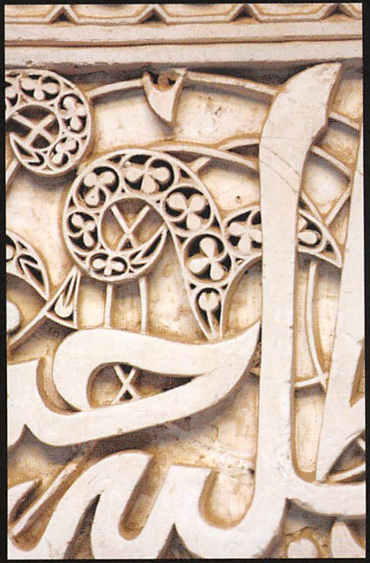

22 يناير 809 م) بتأسيس مدينة أخرى تسمى «العالية» على الضفة اليسرى (الغربية) لوادي فاس، بمقابل المدينة الأولى.

استقبلت المدينتان المتجاورتان، واللتان يفصل بينهما بالكاد مجرى الوادي، مهجرين توافدوا عليها سنة 202 هـ / 817 - 818 م، وفي سنة 210 هـ / 825 - 826 م، على التوالي من مدينتي قرطبة (8000 عائلة)، والقيروان (300 عائلة)، فأصبحتا معروفتين منذ ذلك الحين باسمي عدوة الأندلسيين وعدوة القرويين. وانسحب اسم مدينة فاس بعد ذلك على العدوتين معا، وكان لكل واحدة منهما أسوار خاصة بها تحصنها.

أدى التزايد المضطرد لسكان مدينة فاس إلى تشييد جامعي الأندلس والقرويين في حوالي سنة 859 - 860 م، بقصد احتضان صلاة الجمعة عوضا عن مسجدي «الأشياخ» و«الأشراف» اللذان شيدا قبل ذلك التاريخ، الأول بعدوة الأندلس، والثاني بعدوة القرويين، وذلك بعد لم يعد فضاء الأخيرين الداخلي كافيا لاستقبال الأعداد الغفيرة للمصلين، وبخاصة أيام الجمعة.

أقيمت حول هاتين المعلمتين عدة أسواق، بينما انتظمت الأحياء السكنية في غالبيتها على شكل خطط قبلية لا زالت تحيل على أسمائها مجموعة من أسماء الأماكن (كمصمودة، الوربية، جرواوة، طريانة...).

تعزز الازدهار العمراني والحضري لمدينة فاس على عهد الزناتيين. وقد شهدت فترة حكمهم (ما بين سنتي 988 م و1070 م) أول خطوة لتوحيد العدوتين «فأدار منهم دوناس بن حمامة بن المعز بن عطية بن زيري الأسوار على جميع أرباضها من كل الجهات (...) وصارت مدينة واحدة» (ع. الجزنائي، 1992، ص. 40). غير أن وحدة المدينة لم تدم طويلا، حيث عمد أبناء دوناس (الفتوح وعجيسة) من بعده إلى تقسيمها من جديد، وظلت المواجهة والعداوة قائمة بين العدوتين إلى غاية قيام حكم الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين (1061 م - 1107 م) الذي بادر إلى هدم الأسوار التي كانت تفصل بينهما، وتوحيد المدينة داخل سور واحد.

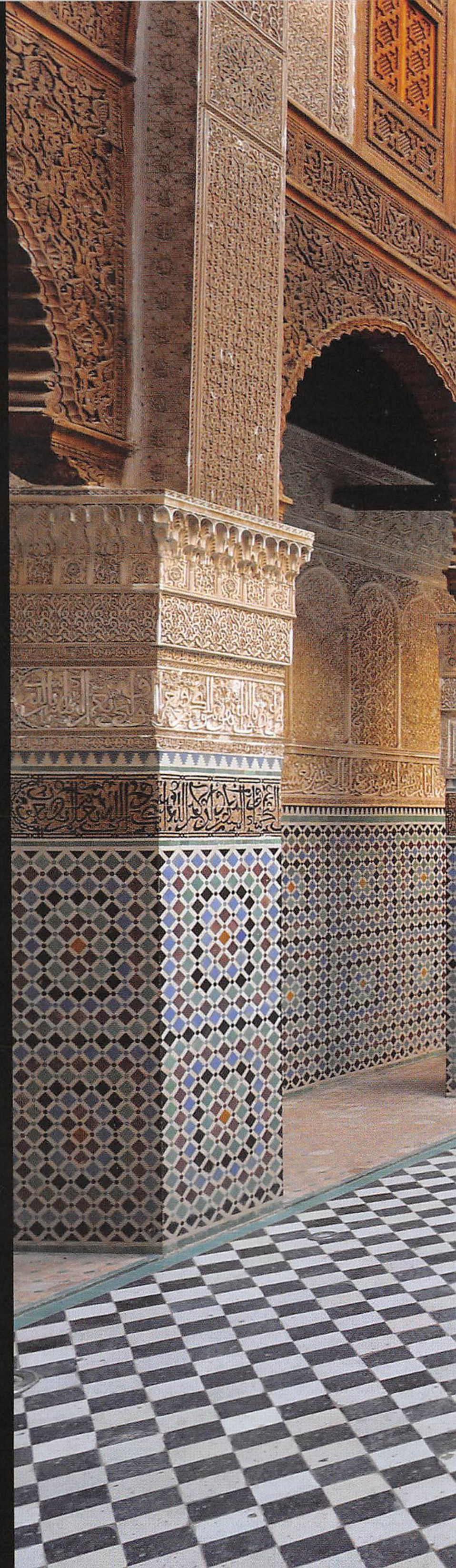

مدرسة العطارين،
الصفحة المزدوجة التالية،
داخل زاوية مولاي ادريس.

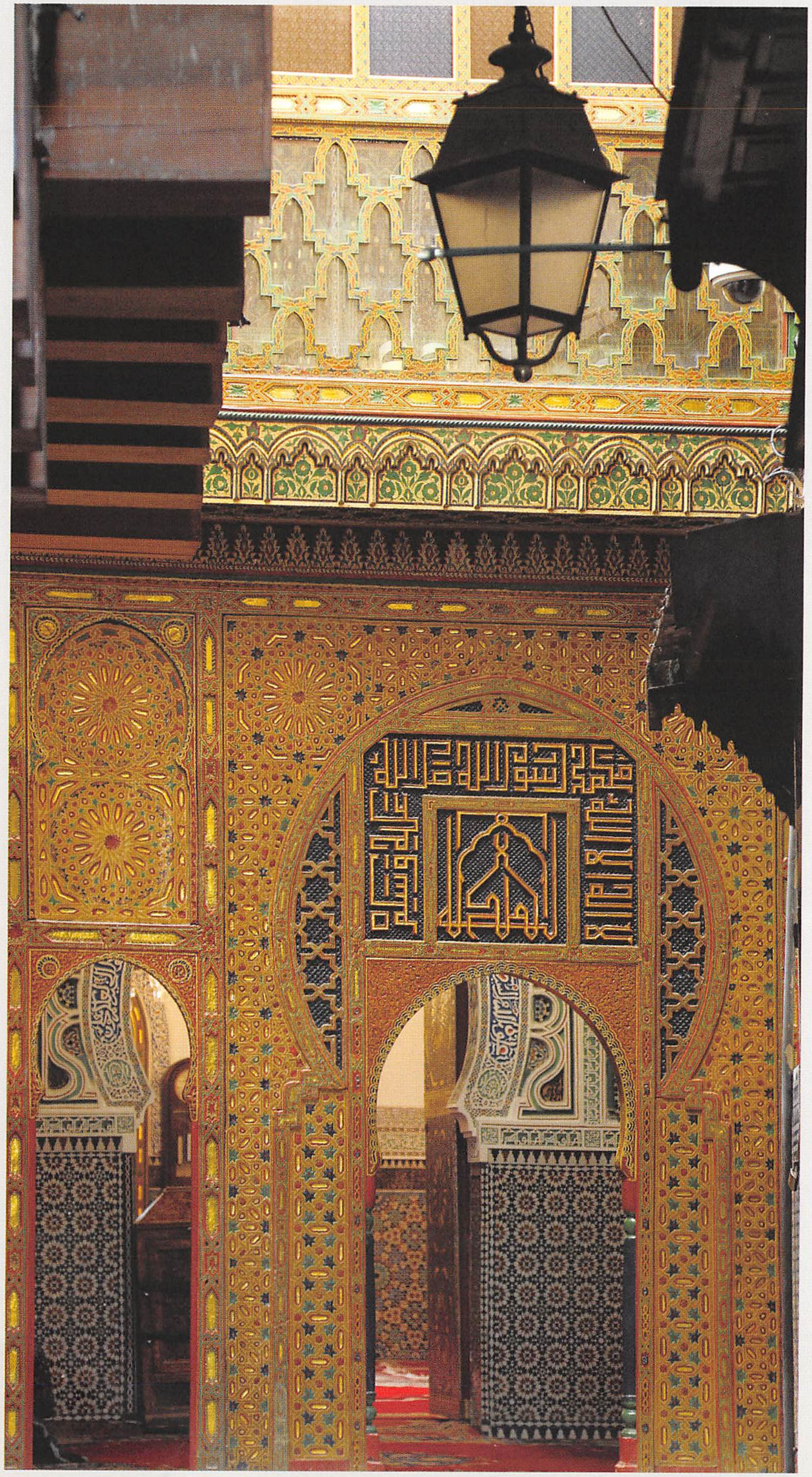

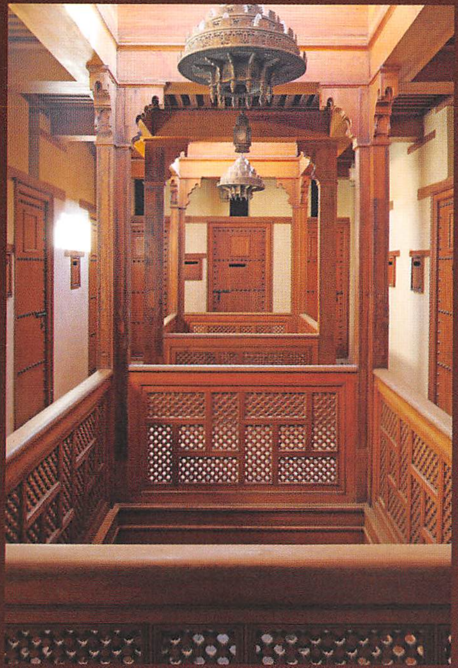

مدرسة العطارين،
منظر داخلي فوق، وبعض تفاصيل الجدران، أسفل.

شكل العهد المرابطي منعطفا حقيقيا في تاريخ مدينة فاس، حيث شهدت هذه الفترة إحداث مجموعة من المرافق والتجهيزات الحضرية الهامة، كان من بينها نسق مائي بالغ التعقيد والتطور.

تمكنت مدينة فاس تحت حكم الموحدين من أن تصبح إحدى أهم مدن المغرب. وقد بلغت خلال هذا العهد مرتبة متفردة على مستوى الرخاء والتأنق في البناء. ومن ضمن المظاهر التي ميزت عمران المدينة خلال هذه الفترة، يمكن أن نشير إلى انتظام الأسواق بحسب نوعية المهن (الحرفية و / أو التجارية) أو الطوائف التي كان يتولى الإشراف على شؤون كل واحدة منها أمين الحرفة، ويتكلف أساسا بتدبير العلاقات بين أعضاء الطائفة (الحنطة)، وبين هؤلاء والزبائن أو الدولة. وقد كسبت مدينة فاس بذلك الريادة من حيث تنظيم المجال الحضري مقارنة مع باقي مدن المغرب الإسلامي، وكانت تحتضن مع بداية القرن 13 م، ثلاثين نشاطا حرفيا يرتبط بصناعة الجلد والورق والحياكة والتعدين والخزف وكذا سك النقود.

ونستطيع بدءا من الفترة المرينية التعرف على معطيات تفصيلية حول التنظيم الحضري لمدينة فاس، وعمارة مختلف أنواع بناياتها (مساجد، فنادق مدارس، منازل...) التي لا زالت نماذج عديدة منها قائمة إلى اليوم. فقد أسست خلال هذا العهد (بتاريخ 1276 م) المدينة السلطانية «فاس الجديد»، بغرب مدينة المولى إدريس، بقصد احتضان القصر الملكي، والثكنات العسكرية، وكل المرافق والمؤسسات التي تجسد وظيفة العاصمة.

و شهدت العمارة المدنية إبان هذه الفترة ازدهارا كبيرا؛ فتميزت باستفادتها من زخرفة مكثفة أنجزت بدقة عالية، كما تشهد على ذلك اليوم مجموعة من المدارس العتيقة (العطارين، الصهريج، البوعنانية...)، وبعض مساكن الأعيان (دار الضمانة، دار ازويتن...) المرينية.

المدرسة البوعنانية،
الصحن الداخلي في اليمين، وبعض
تفاصيل الصحن نفسه، يسارا.

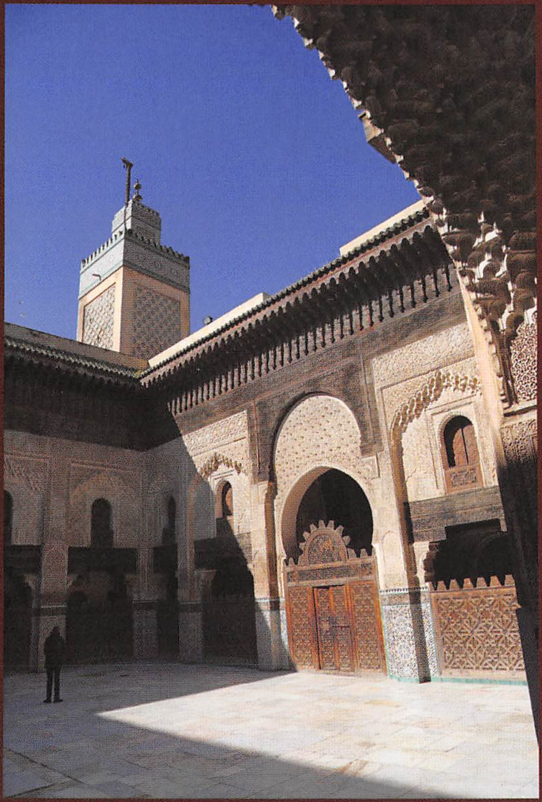

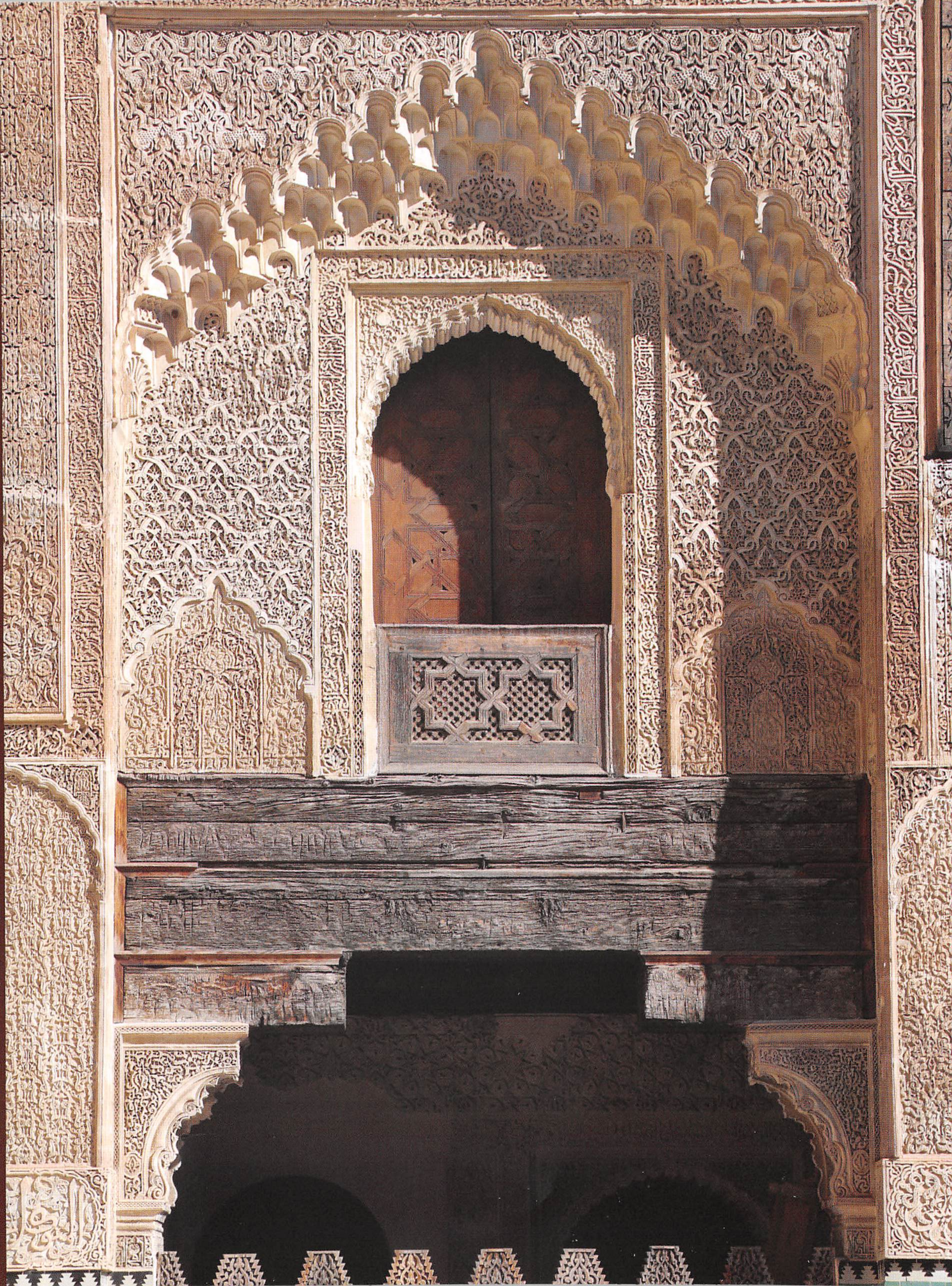

الصفحة المزدوجة التالية،
زقاق بالمدينة العتيقة.

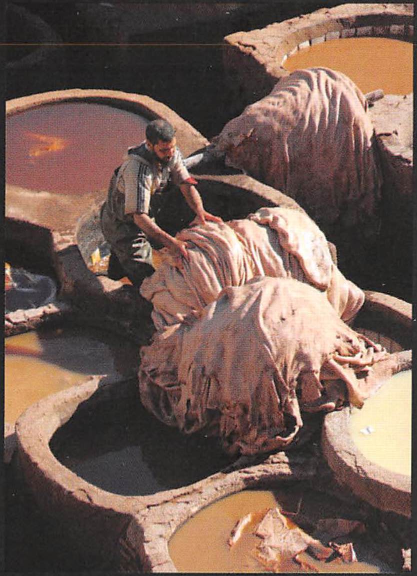

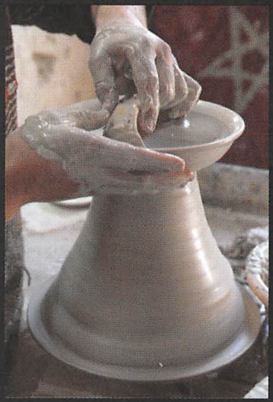

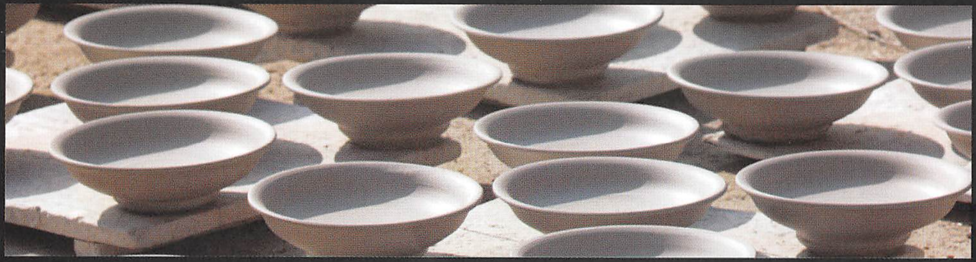
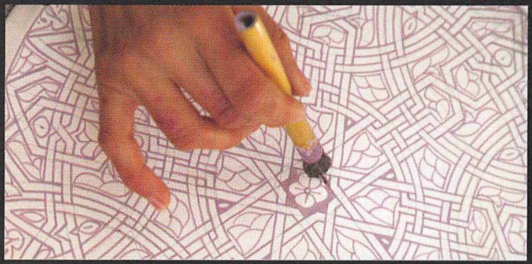

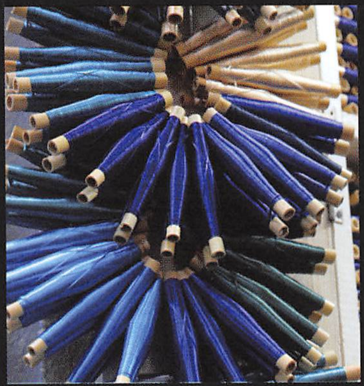

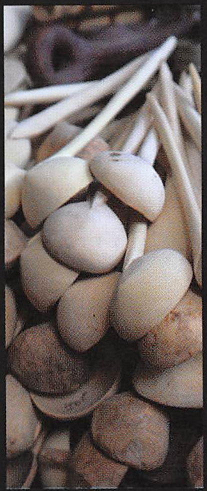

صناع تقليديون بفاس،
مشاهد من الحياة اليومية.

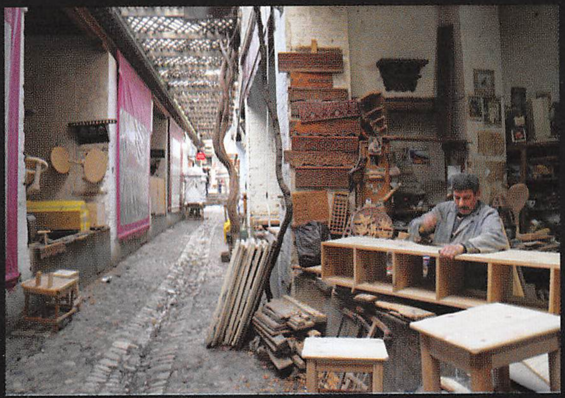

لقد تم الاحتفاظ بالمبادئ الأساسية المتبعة في العصر المريني من أجل تنظيم المجال الداخلي للمنازل بمدينة فاس إلى غاية منتصف القرن 19 م. « فالتصميم المرتكز على تهيئة فناء مكشوف يرتفع حوله المستوى العلوي يوجد بمجموع المساكن الحضرية كيفما كان حجم المنزل » (J. Revault et alii, 1992 ,T.3, p.350).

حافظ السعديون على التقاليد المرينية في البناء والزخرفة، غير أن أبرز منشآتهم بمدينة فاس ارتبطت بالعمارة العسكرية (البرجين الشمالي والجنوبي، وأبراج سيدي بونافع، الشيخ أحمد، بوطويل...)، باستثناء أسوار المدينة التي احتفظت على العموم بخط مسارها القديم منذ وضعه خلال الفترة الموحدية، وإلى غاية بداية القرن العشرين. لقد شهدت مدينة المولى إدريس خلال هذه الفترة، امتدادا عمرانيا على حساب بساتين الخواص التي كانت تفصل المجال المبني عن الأسوار. غير أن هذا الامتداد أضحى أكثر وضوحا وزخما عند منتصف القرن 19، خاصة مع تزايد عدد البنايات السكنية المحتوية بداخلها على حدائق من نوع "رياض".

تعتبر مدينة فاس العتيقة اليوم المدينة التاريخية الأكثر حفاظا على نسيجها التقليدي، والأكبر مساحة على مستوى العالم العربي والإسلامي. فهي تشتمل على أزيد من 300 منشأة دينية (مساجد، زوايا، مدارس، أضرحة...)، 120 فندقا، 25 حماما، وحوالي 8000 منزلا تقليديا. شيدت أسوار المدينة التي يبلغ طولها أزيد من 20 كلم بتقنية اللوح (خليط التراب والجير)، وقد أقيمت عليها عدة أبواب حضرية، كما حصنت ببروج وبأسوار أمامية (بفاس الجديد) لا زالت جلها تحتفظ بمظهرها الأصلي.

حافظ المجال العتيق للمدينة بدوره، وهو غير مفتوح أمام تنقل العربات، على أبرز الوظائف التي أنشئ من أجلها. فهو لا يمثل فقط تراثا معماريا وأثريا وحضريا متفردا، وإنما يعكس أيضا نمط عيش، ومهارات ومعارف، وثقافة صمدت على مدى عدة قرون.

بناء على قرار لجنة التراث العالمي*، الصادر خلال دورتها الخامسة

*(Conf. 003 VIII. 15)

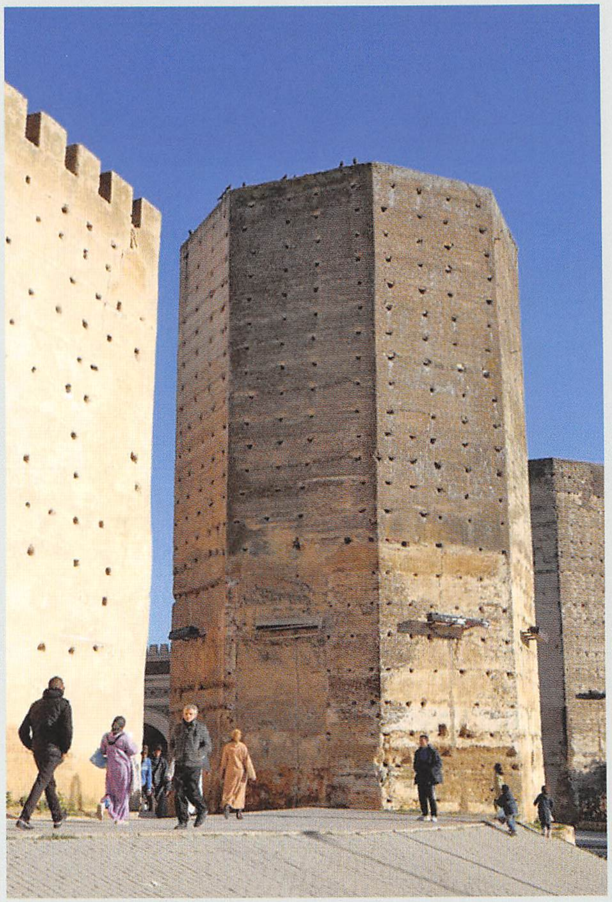

باب الساكمة.

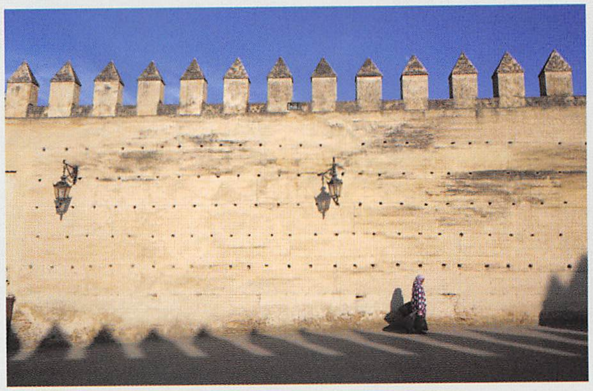

البرج الشمالي،
صفحة اليمين.

سور جنان السبيل،
أسفل الصفحة.

المنعقدة بمدينة سيدني بأستراليا فيما بين 26 و30 أكتوبر 1981، تم تسجيل مدينة فاس العتيقة على لائحة التراث العالمي باعتبارها تمثل موقعا يكتسي قيمة عالمية استثنائية تستجيب للمعيارين الثاني والخامس من ضمن المعايير المعتمدة في التقييد على اللائحة المذكورة والمشار إليها بالفقرة 24 خلال هذا التاريخ (الفقرة 77 ابتداء من يوليو 2012) ضمن «المبادئ التوجيهية لتنفيذ اتفاقية التراث العالمي».

يضم المجال المقيد نسيجا حضريا عتيقا يمتد على مساحة تقارب 320 هكتارا. وينقسم إلى وحدتين متجاورتين : المدينة الإدريسية أو «فاس البالي» (260 هكتارا)، وفاس الجديد (60 هكتارا)، يحيط بهما نظام تحصيني معقد.

بالنظر إلى مميزاتها الخاصة، تستجيب مدينة فاس العتيقة لمفهوم التراث العالمي وفق ما تم تحديده ضمن «المبادىء التوجيهية» الآنفة الذكر؛ مما يعني أن هذا الموقع يتمتع بدلالة ثقافية فائقة « بحيث تتجاوز أهميتها الحدود الوطنية، وتصبح أهمية مشتركة للأجيال الحاضرة والمقبلة للبشرية جمعاء » (المبادىء التوجيهية، الفقرة 49). وقد عدت بذلك مدينة فاس من ضمن المجمعات المحتضنة « لمجموعات من المباني المعزولة أو المتصلة التي لها، بسبب عمارتها أو تناسقها، أو اندماجها في منظر طبيعي، قيمة عالمية استثنائية من وجهة نظر التاريخ، أو الفن، أو العلم» (المبادئ التوجيهية، الفقرة 45).

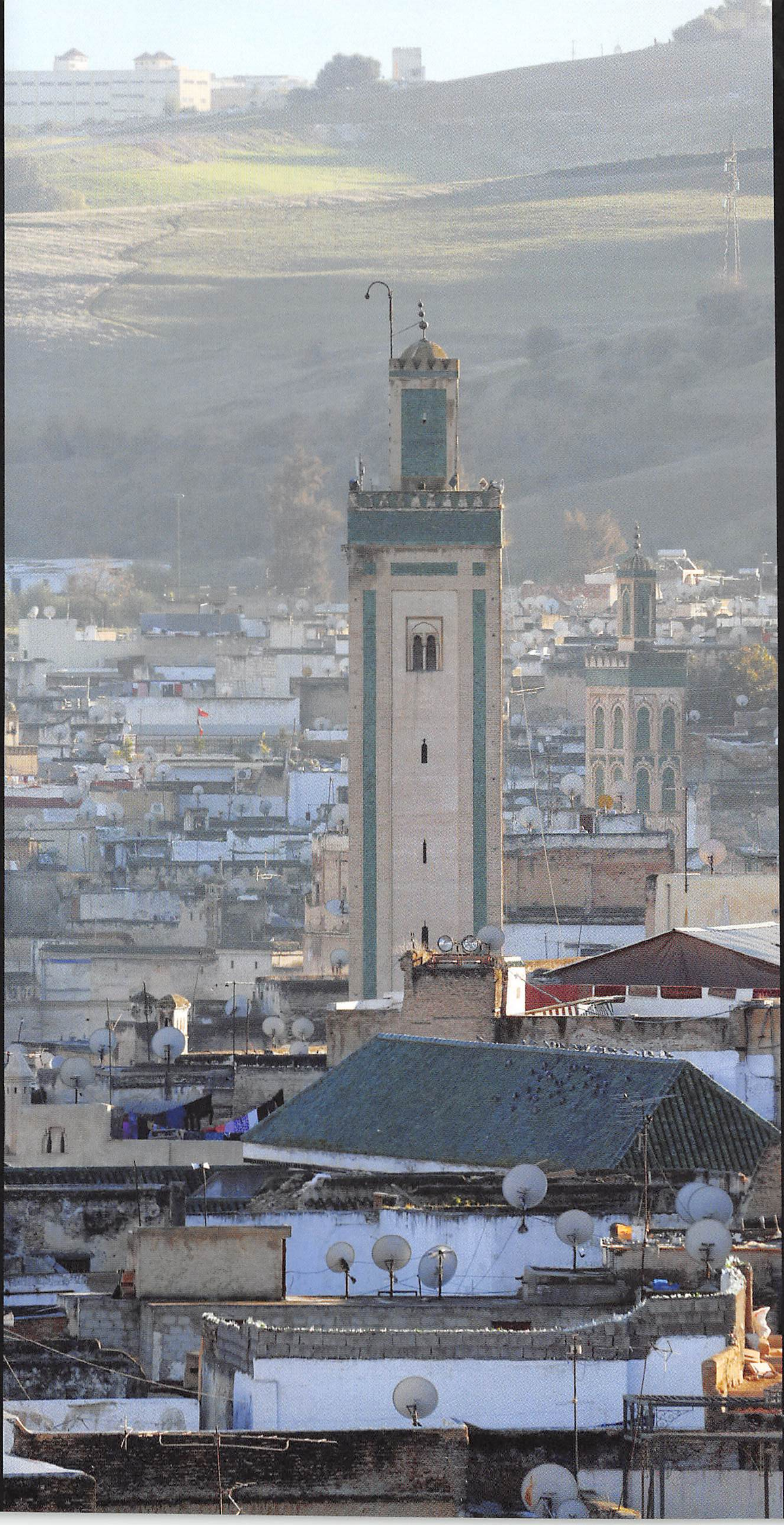

المدينة،
منظر عام.

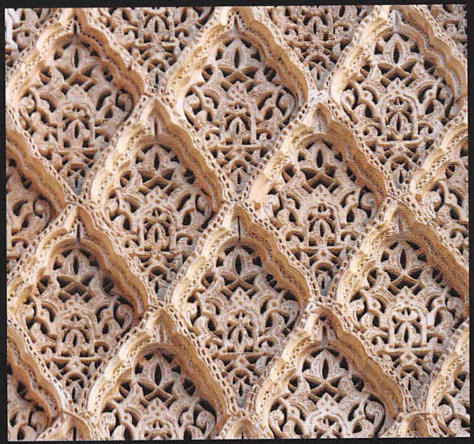

مدرسة العطارين،
جزء من النقوش.

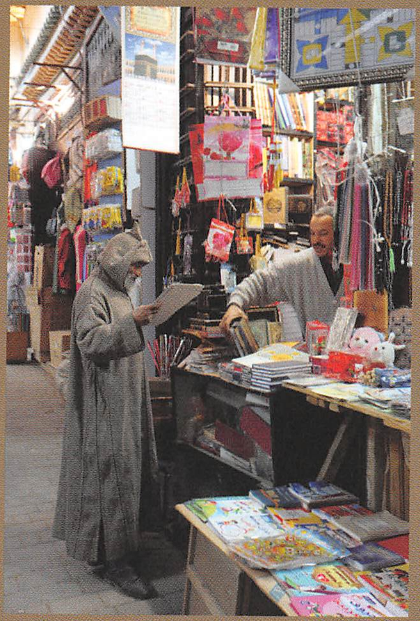
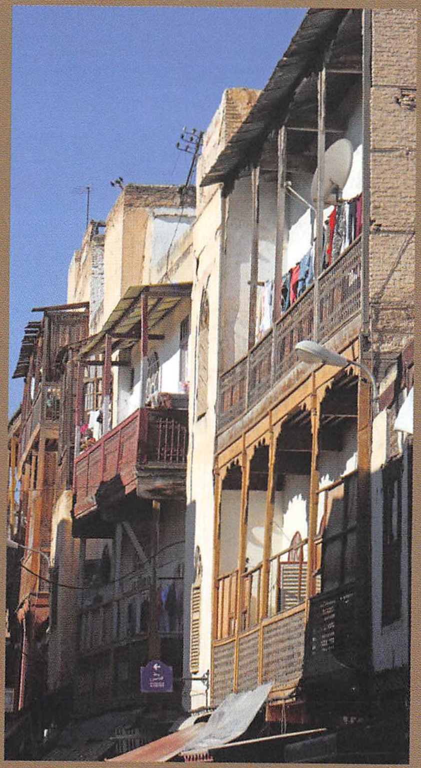
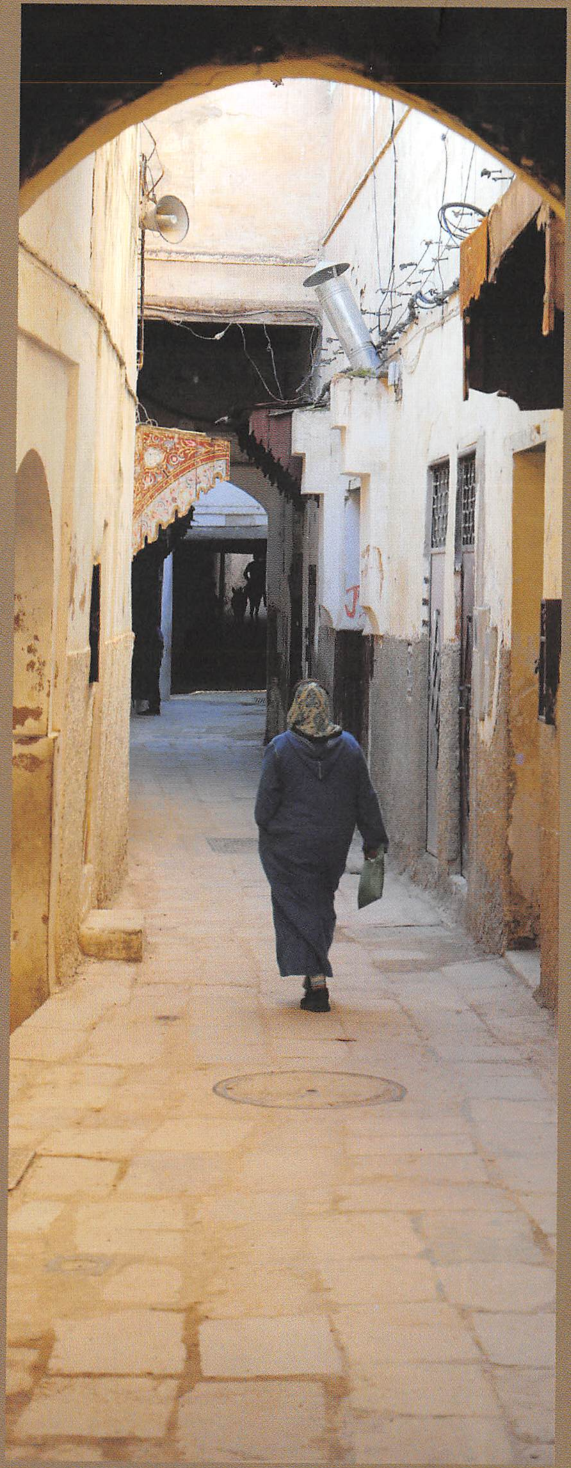
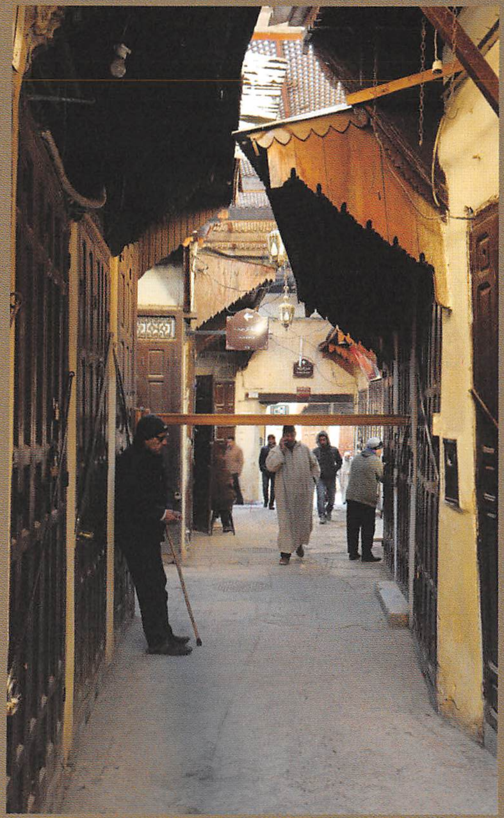

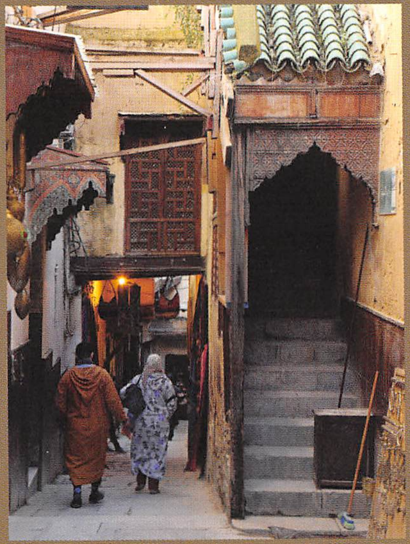

المدينة العتيقة،
أزقة حيث يتقاطع الإنسان
والتاريخ عند كل حجرة...

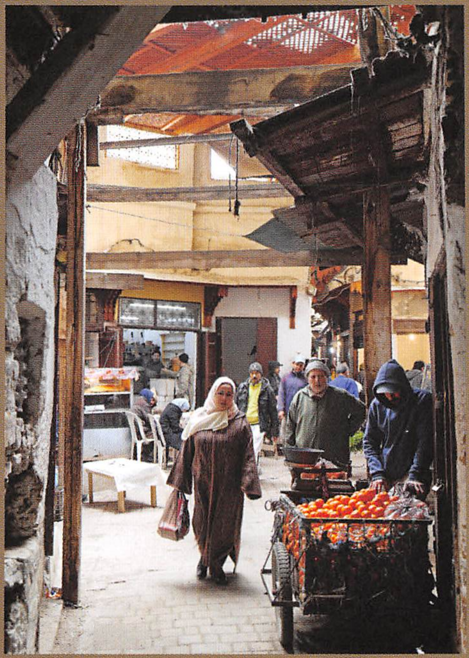

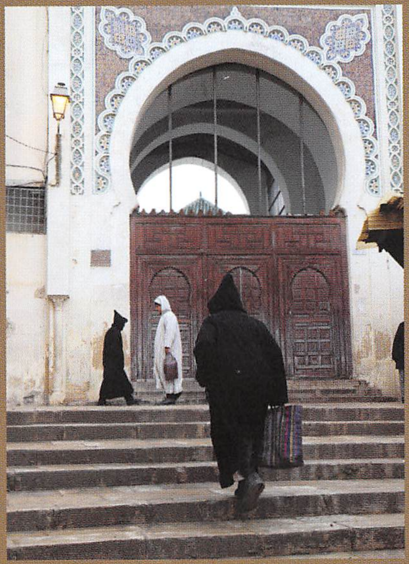

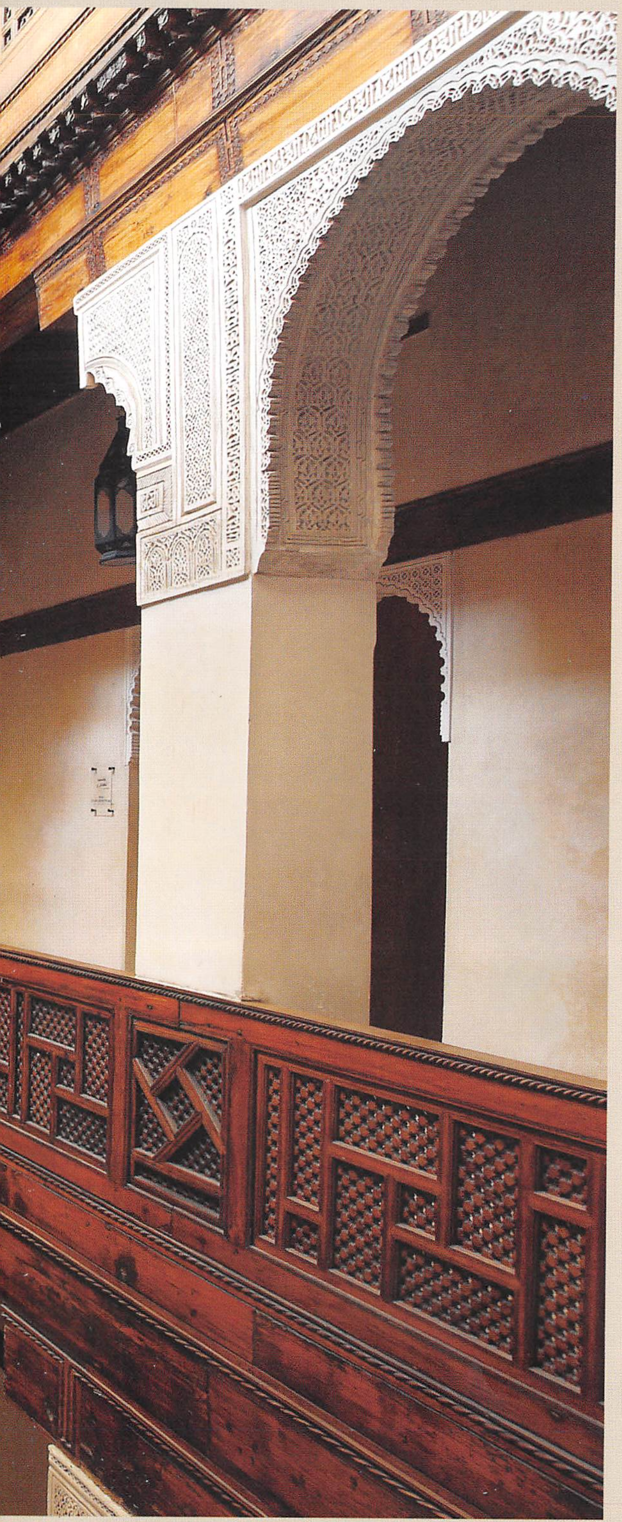

إلى جانب معياري التقييد (الثاني والخامس) المذكورين، ولكي تحظى بصفة الموقع ذي القيمة العالمية الاستثنائية، استجابت مدينة فاس العتيقة أيضا لشرطي «التكاملية» و«الأصالة».

المعياران المعتمدان لتقييد مدينة فاس العتيقة على قائمة التراث العالمي

المعيار الثاني (II) : تتجلى بمدينة فاس العتيقة تأثيرات متبادلة قوية جرت على امتداد فترة من الزمن، وداخل مجال جغرافي محدد، تتعلق بتطور الهندسة المعمارية والصروح الفنية.
شهدت مدينة فاس منذ تأسيسها استقرار ساكنة ذات أصول مختلفة مكونة من قبائل أمازيغية (زواغة، بني يازغة، مغيلة، غمارة، أوربة...) وعربية، بالإضافة إلى جماعة من الفرس الذين أنزلهم المولى إدريس الثاني، بحسب ما ورد ببعض المصادر المكتوبة، بمركز عدوة القرويين. وقد استقبلت المدينة في فترة لاحقة عدة موجات من المهاجرين الذين توافدوا عليها من مدينة القيروان، والأندلس والجزيرة العربية. هذا، وسمح الأمراء الأدارسة لطائفة من اليهود بالاستقرار شمال المدينة، بحارة «أغلان» التي تعرف اليوم بحي «فندق اليهودي». كما فتحوا المجال لبعض المسيحيين بشغل الجهة الشرقية لعدوة الأندلس، إلى جوار مدخل المدينة الذي كان معروفا ب «باب الكنيسة».
تطور مجتمع مدينة فاس المتعدد الأصول بعد ذلك، فالتحق به أفراد ومجموعات بشرية جديدة من أقطار متعددة ساهمت بشكل واضح، بفضل معارفها وخبراتها في شتى المجالات، في تحقيق تطور اقتصادي وعمراني، وازدهار فكري بالمدينة على مدى تاريخها العريق.
ساهم التعايش والاندماج الحاصل بين مختلف مكونات ساكنة مدينة فاس العتيقة في نشأة ونمو مجموعة من الأنشطة التجارية والحرفية التي كان لها الأثر الواضح، ومنذ القرن التاسع الميلادي، في إحداث ورشات في الزخرفة المعمارية والفنية للخشب والجص المنقوشين والمصبوغين. فقد تم التوصل إلى وجود هذه الفضاءات بناء على بعض الشواهد المعمارية والأثرية القيمة التي تم اكتشافها بداخل مسجد القرويين. يتعلق الأمر في مقام أول بدعامة خشبية تحمل نصا منقوشا يعود إلى سنة 263 هـ / 877 م، ويشير إلى أعمال ترميم قام بها بداخل المسجد الأمير داوود بن إدريس الثاني. تعرض الدعامة نقيشة إهدائية مكتوبة بخط كوفي تنم طريقة صياغته عن تأثره بالأسلوب الذي طبع المعالم التاريخية بالقيروان وأفريقية.

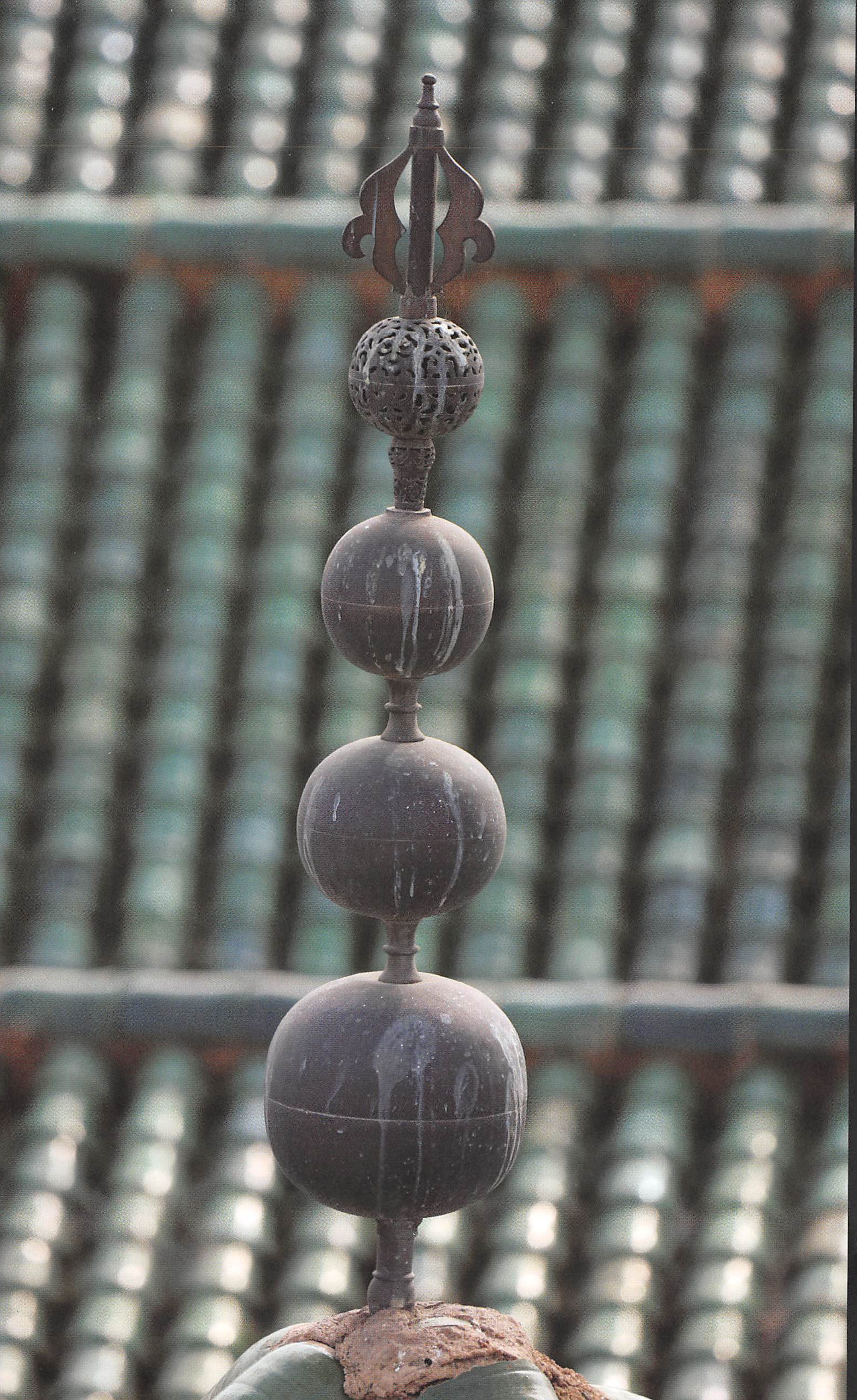

صحن مدرسة العطارين،
الصفحة المزدوجة 38-39.

فندق النجارين،
الصفحة المزدوجة 40-41.

أقواس مسجد القرويين،
يمينا ويسارا.

تفاصيل جامور إحدى قباب قاعة الصلاة،
في الوسط.

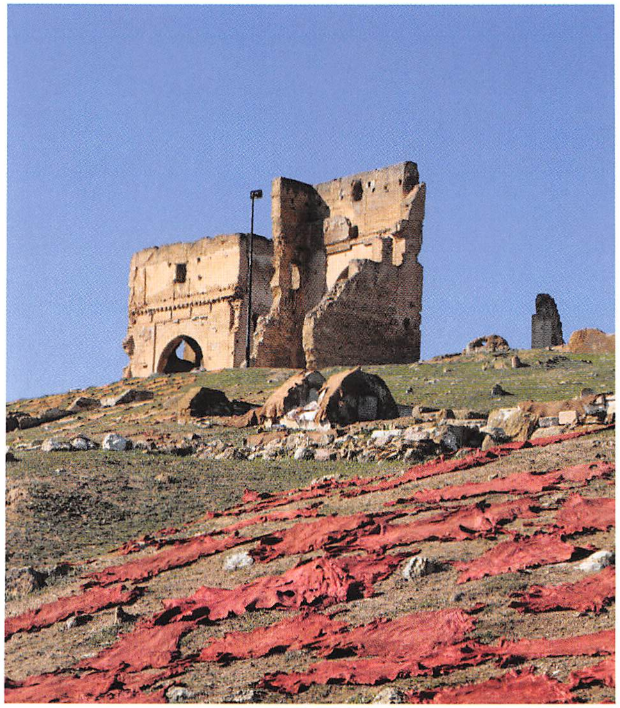

فاس،
آثار العصر المريني.

شاهد آخر تتأكد من خلاله هذه التأثيرات، تمثله قطع من ألواح جصية ذات زخرفة نباتية، وكذا أجزاء نقائش تم العثور عليها عبر حفريات الإنقاذ التي جرت بداخل مسجد القرويين سنة 2006. أسلوب صياغة هذه العناصر الزخرفية التي ترجع على الأرجح إلى الحقبة الإدريسية، يتشابه بشكل واضح مع الأسلوب الذي أنجزت به بعض النقائش التي ترجع إلى القرن 9 م بكل من مدينة القيروان بأفريقية، ومدينتي ألميرية وقرطبة بالأندلس.

أمثلة أخرى متعددة بشأن التأثيرات الثقافية المتبادلة التي كانت قائمة بين مدينة فاس وبعض حواضر الغرب الإسلامي (بشمال أفريقيا والأندلس) في مجال الفن المعماري والزخرفة، تعود للعهدين المرابطي والموحدي. وفي هذا الإطار، تجدر الإشارة إلى القباب الفخمة التي تغطي البلاط الرئيسي الأوسط لجامع القرويين، وكذا أبواب هذا الأخير المغطاة بصفائح البرونز (باب السبيطريين، باب الجنائز، وباب الورد)، والتي تعود للنصف الأول من القرن 12 م. تمثل هذه الشواهد، بالنظر إلى تقنية إنجازها وزخرفتها، مجموعة من الخاصيات المحلية المتشبعة بعناصر الطراز الأندلسي والمشرقي (الفاطمي)، وبخاصة على مستوى العناصر النباتية والأشكال الكتابية.

لقد حظيت مدينة فاس في العصر المريني بمرتبة سامية في مجال العمارة والتهيئة الحضرية على مستوى فضاء الغرب الإسلامي. ويعكس تمركز الأنشطة الإقتصادية الرئيسية إلى جوار وحول مسجد المدينة الجامع خاصية أساسية طبعت المدن العتيقة بالعالم العربي والإسلامي خلال العصر الوسيط. فقد كان هذا المسجد، إلى جانب الأسواق المتاخمة له، يمثل فضاء للقاء والتواصل بين سكان المدينة وزوارها، وهو الدور الذي كانت تلعبه الساحات العامة المركزية بأغلب المدن التاريخية لأوربا الغربية. وكانت هذه الفضاءات المتاخمة للمسجد تحتضن تظاهرات دينية وترفيهية متعددة، كما كانت تنطلق منها أحيانا أيضا بعض الحركات الإجتماعية.

إن مظهر البنية الحضرية المعقدة الذي يعكسه النسيج العمراني العتيق لمدينة فاس وباقي المدن العربية - الإسلامية، يرتبط أساسا بالظروف التاريخية المحيطة بتطور هذه المدن، وكذا بالتصور الخاص باستغلال المجال المبني لدى المجتمعات التي نشأت بها؛ كما أنه يعكس

مختلف الضوابط التي يفرضها « شكل كل مجتمع على حدى، وحاجيات أفراده، والعلاقات القائمة بينهم» (D. Chevallier et alii, 1979، p. 12).

مع مجيء المرينيين، أصبحت مدينة فاس بمثابة مركز ثقافي على صعيد المغرب الكبير، بإمكانه احتضان ثلة من الباحثين والعلماء المغاربة والأجانب (كابن البناء، ابن خلدون، ابن الخطيب، ابن بطوطة..)، الذين توافدوا عليها من أجل متابعة تكوينهم، أو تلقين معارفهم بداخل مختلف المدارس التي تم تشييدها خلال هذا العهد، وكذا بجامعة القرويين العريقة، التي تعتبر من أقدم الجامعات في العالم.

و بغض النظر عن دورها البارز كمؤسسات للتكوين والتحصيل، تحتوي المدارس العتيقة لمدينة فاس على مجموعة من العناصر البنائية والزخرفية التي تعكس أوج التطور الذي بلغه الفن المغربي - الأندلسي خلال القرنين 12 و13 م.

فمدرسة الصفارين (1271 م) التي تعتبر أقدم المدارس المرينية بالمغرب، لا زالت تضم بلاطات من الزليج تشهد على الأصول المغربية لتقنية تقطيع هذه المادة الزخرفية، وذلك قبل بدء استعمالها بباقي دول المغرب الكبير والأندلس.

تتعدد العناصر والمؤشرات التي ترسم ملامح التأثيرات المتبادلة في مجال الفن والعمارة بين مدينة فاس والعالم العربي خلال فترة حكم السعديين والعلويين من بعدهم، وإلى غاية بداية القرن العشرين. يتأكد ذلك من خلال عمارة رواقي النافورتين اللذان قام بإنشائهما المنصور السعدي وحفيده الأمير عبد الله على جانبي فناء مسجد القرويين، حيث يمكن الجزم بأنها نهلت من أسلوب بناء القبتين المشيدتين من قبل النصريين (في القرن 14 م) لتزيين فناء الأسود بقصر الحمراء بغرناطة. تجدر الإشارة أيضا أن المنشآت الدفاعية السعدية بمدينة فاس، وبخاصة البرجين الشمالي والجنوبي، المشيدين في حوالي سنة 1582م، تستمد أسلوبها من عمارة القلاع البرتغالية للقرن 16 م.

و تعكس تهيئة المنازل التقليدية بمدينة فاس العتيقة حول فناء داخلي مكشوف، مظهرا آخر لتبادل التأثيرات الفنية والمعمارية الذي تفصح عنه معالم هذه

الصفارين.

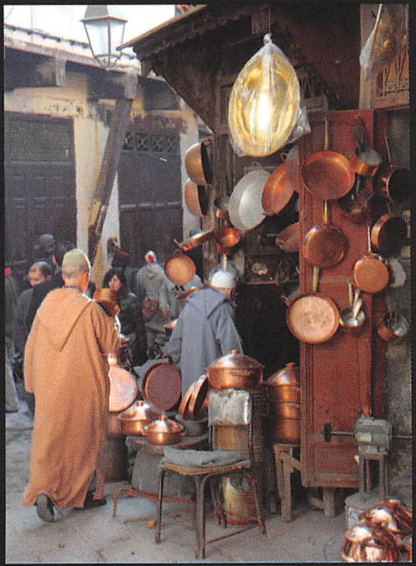

المدينة. فهذا النوع من المساكن «يتميز بقدمه (حيث نعرف انتشاره الواسع بمدن الشرق القديم، وبالحواضر الإغريقية والرومانية)» (A. Raymond, 1985, p.306)؛ وهو يأتي كنتاج لظروف مناخية خاصة (مناخ شبه جاف بصفة عامة)، ولكنه بالأساس يستجيب لمنظومة اجتماعية وثقافية يطبعها هاجس الحفاظ على خصوصيات الأسرة. ونصادف هذا التصور الخاص بتنظيم المجال السكني بأغلب البلدان العربية - الإسلامية، خاصة تلك التي تجاور البحر الأبيض المتوسط. لقد حافظت المنازل الكبرى بمدينة فاس العتيقة على العهد العلوي على التقاليد المرينية في البناء، والتي تمثل بدورها تشابها كبيرا مع مميزات بيوتات غرناطة بالأندلس خلال فترة حكم بني نصر. غير أن هذه المنشآت، على غرار باقي البنايات المدنية والدينية بالمدينة، قد شهدت منذ القرن 18 م، تغييرات مهمة على مستوى الزخرفة المعمارية للخشب والجص. فأصبح التوجه السائد في هذا المجال يميل تدريجيا إلى استبدال تقنية النقش بالزخرفة المصبوغة ذات الألوان الزاهية. وأضحت الأشكال المستعملة تمتح من قائمة الزخارف المشرقية (زخرف زهرة الخزامى، وزهرة القرنفل مثلا)؛ فبرزت بعد ذلك (في حوالي نهاية القرن 19 م) تأثيرات عثمانية تجسدت بشكل واضح في توظيف عناصر زخرفية نباتية مصبوغة على الخشب (فوق السقوف والأبواب الداخلية للقصور والرياضات بشكل خاص). ويعكس هذا التوجه استمرار

فاس،
صانع ينقش النحاس.

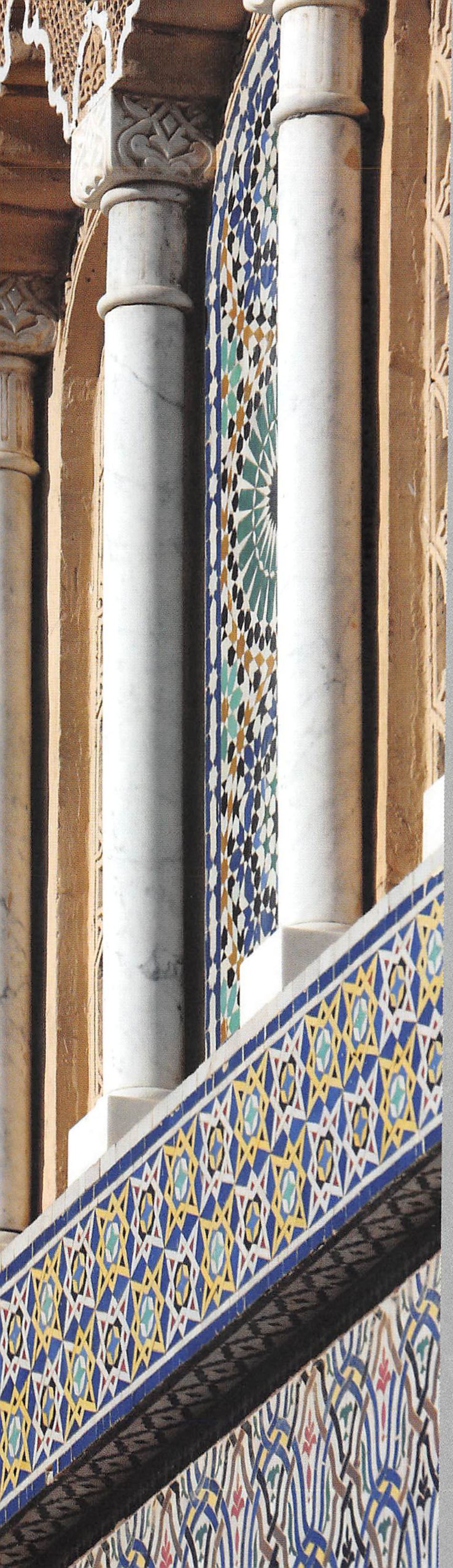

مسجد القرويين،
الصحن والنافورة.

القصر الملكي،
تفاصيل تشهد على عبقرية الصانع المغربي
وعلى غنى معمار ألفي.

التواصل والتلاقح الثقافي المتبادل بين مدينة فاس العتيقة، ومختلف جهات العالم العربي والإسلامي، منذ تأسيسها وإلى غاية بداية القرن العشرين.

المعيار الخامس (V) : تمثل مدينة فاس العتيقة نموذجا بارزا لمستوطنة بشرية تقليدية، أو لأسلوب تقليدي لاستخدام الأراضي يعكس ثقافة أو ثقافات معينة، لا سيما عندما يصبح عرضة للإندثار بتأثير تحولات لا رجعة فيها.

تعد مدينة فاس العتيقة واحدة من بين أولى المدن الوسيطية التي تم إحداثها بعد وصول الإسلام إلى المغرب، وإقامة دولة مركزية به. وقد شكل تعدد أصول ساكنة المدينة عنصرا رئيسيا في تطورها وازدهارها على مدى أزيد من 11 قرنا.

يجسد النسيج الحضري العتيق لمدينة فاس تصورا خاصا في تمثل المجال المبني، متشبعا بمبادئ وقيم ثقافية واضحة المعالم. يعكس هذا التصور أسلوب عيش، وكذا مهارات وممارسات اجتماعية وثقافية (دينية وفنية) تمكنت من الصمود والتجدد على الرغم من آثار التغيرات التي أتت بها المجتمعات الحديثة.

من المؤكد أن طوبوغرافية الموقع قد لعبت، منذ تأسيس المدينة، دورا حاسما في تهيئة شبكة المسالك والطرق، وفي وضع تصاميم مختلف البنايات، لكن تم اللجوء أيضا، على مدى حقبة تاريخية طويلة (من القرن 9 م إلى بداية القرن العشرين)، إلى أسس وتقنيات بناء ووسائل تدبير تستجيب لممارسات اجتماعية وقواعد تحددها مؤسسات ذات طابع ديني، على غرار مؤسستي الحسبة والأحباس.

ارتبط وضع وتدبير النسق المائي العتيق بدوره بهذه الضوابط، وقد لعب دورا فعالا وأساسيا، منذ إحداثه وإلى غاية سنوات السبعينيات من القرن الماضي، في الإزدهار الإقتصادي والإجتماعي والعمراني للمدينة.

بالرغم من اختلاف أنواع البنايات التي تزخر بها مدينة فاس العتيقة، فإن عددا هاما من هذه المنشآت قد تمت إعادة استعماله لفترات زمنية طويلة، ومن دون تغيير وظائفه الأصلية.

لقد شكل الإحتفاظ بالحرف التقليدية للبناء عاملا حاسما في إبراز قيمة هذا الموقع التراثي وحمايته. والملاحظ أنه رغم بعض الفترات التاريخية العصيبة التي شهدتها المدينة بفعل انتشار الإضطرابات وتعاظم المحن، فإن حركة البناء بها لم تنقطع ؛ فتم إحداث منشآت تندرج اليوم ضمن الكنوز الفنية للمدينة، وتمثل نماذج مشرقة لثقافة حضرية مغربية تمتد على مدى عدة قرون.

شرطا الأصالة والتكاملية

تتميز مدينة فاس العتيقة باشتمالها على نسيج حضري ظل متماسكا ومتجانسا خلال عدة قرون خلت. تعكس مكونات هذا الموقع قيمته الكونية الإستثنائية بشكل واضح وجلي. بل إن الدوافع والشروط الرئيسية التي ساهمت في اختيار موضع تأسيس المدينة (الموقع الإستراتيجي، توفر الماء ومواد البناء، القرب من الأراضي الفلاحية...) لا زالت تساهم بشكل وازن في الحفاظ عليها وازدهارها.

تحتفظ مدينة فاس العتيقة بالعناصر الرئيسية التي تمكننا من إعادة رسم الخطوط العريضة للتطور الذي عرفته تهيئتها العمرانية والهندسة المعمارية الأصيلة لبناياتها السكنية والدينية والدفاعية وذات المنفعة العامة، وذلك على مدى أزيد من ثمانية قرون.

من جانبه حافظ النسق المائي التقليدي للمدينة على مظهره ومكوناته الأصلية منذ إنشائه في حوالي القرن 11 م وإلى غاية بداية القرن العشرين، ولم يشهد إلا تغييرات طفيفة جدا.

يبدو موقع مدينة فاس العتيقة كمتحف مفتوح يحتفظ مجاله بأغلب وظائفه واختصاصاته القديمة. وقد كان لصمود المهارات المحلية في مجال الحرف التقليدية للبناء والزخرفة المعمارية دور أساسي في ترميم مجموعة من المعالم التقليدية المتدهورة، كما أنها تعتبر عاملا أساسيا في حفظ القيم التي رتب من أجلها الموقع على لائحة التراث العالمي.

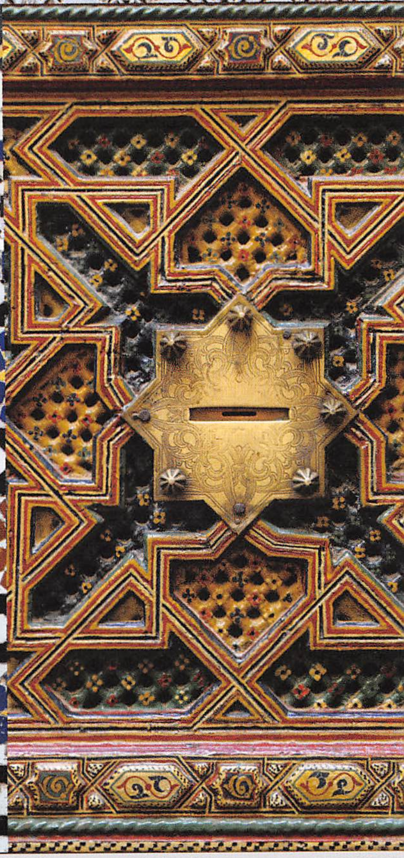

باستثناء أسوارها المشيدة بتقنية اللوح (خليط التراب والجير)، أنجزت أغلب بنايات مدينة فاس العتيقة وفق مقاربة تفصح عن وجود تكاملية على مستوى البنية الأساسية والشكل. يتجلى ذلك بشكل ملموس من خلال استعمال نفس مواد وتقنيات البناء والزخرفة تقريبا (الآجر التقليدي المتبث بملاط الرمل والجير، خشب الأرز، الزليج، الرخام...) على مستوى مختلف أنواع المنشآت.

من أجل تدبير عقلاني لموقع مدينة فاس العتيقة

تبدو مدينة فاس العتيقة في حالة معمارية جيدة. وترتبط المشاكل المطروحة داخل هذا المجال أساسا بتقادم البنايات والكثافة السكانية المرتفعة. كما يمكن أن نضيف إلى ذلك غياب انخراط وازن للساكنة تجاه المشاريع التي تستهدف إنقاذ معالم المدينة وعناصرها التراثية المختلفة وإبراز قيمتها. في إطار الإجراءات الرامية إلى حماية النسيج العتيق للمدينة، تم إصدار مجموعة من النصوص القانونية ذات الطابع المحلي والوطني، يأتي من بينها بشكل خاص القرار الوزيري المؤرخ ب 7 صفر 1373 (6 أكتوبر 1954)، القاضي بترتيب موقع مدينة فاس العتيقة (فاس الجديد وفاس البالي)؛ وكذا المرسوم رقم 2.81.25 الصادر في 23 ذي الحجة 1401 (22 أكتوبر 1981) بتطبيق القانون رقم 22.80، المتعلق بالمحافظة على المباني التاريخية والمناظر والكتابات المنقوشة والتحف الفنية والعاديات. ويضم المجال المسجل على لائحة التراث العالمي، نسيج المدينة الحضري، والأسوار المحصنة المحيطة به، إضافة إلى المجال المعروف ب «منطقة الحماية» التي تمتد خارج هذه الأسوار، والتي تم تحديدها من خلال القرار الوزيري الآنف الذكر. هذه المنطقة التي تتكون أساسا من المجال الأخضر، تعتبر بمثابة عنصر أساسي يضمن الحفاظ على المظهر العام للمدينة العتيقة، ومحيطها الطبيعي، ويتحتم الحرص على استمرار وضعها كمجال ممنوع من البناء.

الصفحة السابقة،
جبس، خشب، زليج...
مواهب بلا حدود للصانع المغربي.

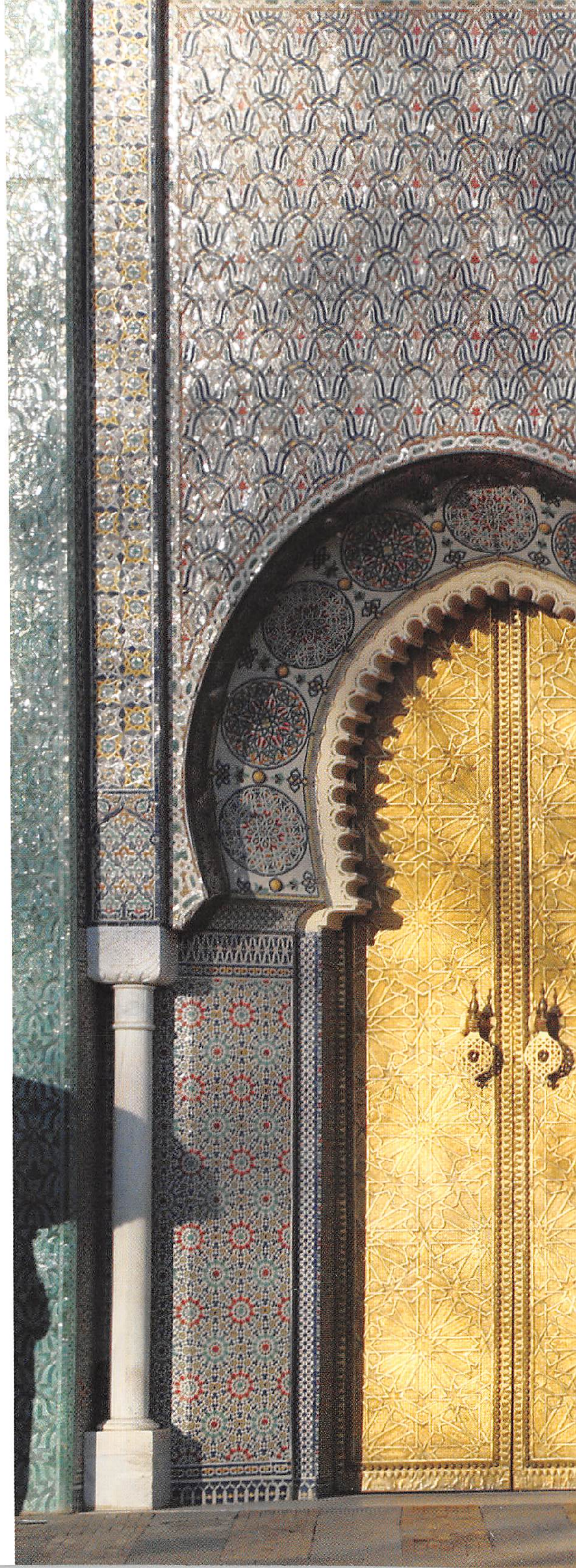

القصر الملكي،
البوابة الرئيسية.

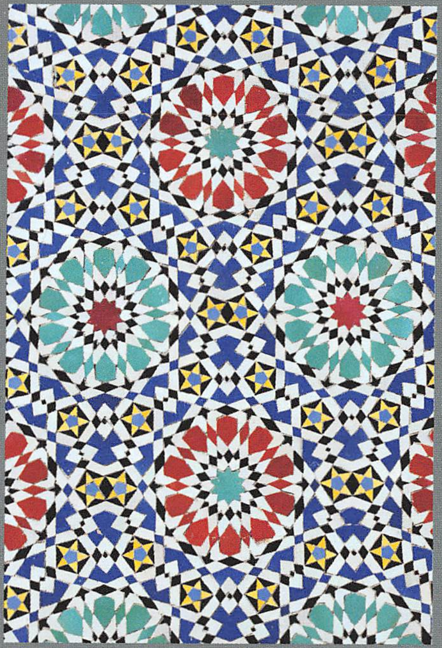

القصر الملكي،
نماذج من نقوش و زليج.

أخذا منها بعين الإعتبار لحساسية موقع مدينة فاس العتيقة كتراث إنساني معرض لضغوطات التطور الحضري الغير المراقب، عملت المصالح المختصة للدولة سنة 2001، على وضع «تصميم للتهيئة» خاص بهذا المجال. تتضمن هذه الوثيقة مجموع الأحكام والتدابير التي تمكن من تنظيم وضبط مختلف التدخلات على مستوى النسيج العتيق ومحيطه الخارجي.

هذا، وفي إطار البرامج الرامية إلى الترويج لتراث المدينة باعتباره دعامة أساسية للتنمية الإقتصادية والإجتماعية، تقوم الدولة المغربية، بتشاور وتنسيق مع مجلس مدينة فاس ومختلف الفاعلين المحليين، بإطلاق عمليات منتظمة من أجل ترميم وحماية المعالم التاريخية، والبنايات المتدهورة أو المهددة بالإنهيار. وفي هذا الصدد، تم القيام بوضع برنامج واضح المعالم لمساعدة الملاك على صيانة منازلهم الخاصة. إلى جانب ذلك، تعمل المبادرات المسطرة على إعطاء وظائف جديدة لبعض المعالم التاريخية في أفق خلق مشاريع مندمجة للتنمية المحلية. وتعمل وزارة الثقافة، تماشيا مع المهام المنوطة بها، على متابعة وتأطير مختلف المشاريع والبرامج بتوافق مع الضوابط الوطنية والعالمية في مجال صيانة المباني والمواقع التاريخية وإعادة تأهيلها.

قائمة المراجع

المصادر

ع . الجزنائي، «جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس»، المطبعة الملكية، الرباط، 1992.

ع . إبن أبي زرع، «الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس»، المطبعة الملكية، الرباط، 1936 (3 أجزاء).

دراسات ووثائق معاصرة

- D. Chevallier et Alii, *Espace social de la ville arabe*, Maisonneuve et Larose, Paris, 1979.
- D. Eustache, *Corpus des dirhams idrissites et contemporains*, Rabat, 1970-1971.
- A. Raymond, *Grandes villes arabes à l'époque ottomane*, Sindbad, Paris, 1985.
- J. Revault, L. Golvin et A. Amahan, «Palais et demeures de Fès», *I. Epoques mérinide et saadienne* (*XIV^{e}- XVII^{e} s.*), CNRS, Paris, 1985.
- J. Revault, L. Golvin et A. Amahan, «Palais et demeures de Fès», *III. Epoque alaouite* (*XIX^{eme}- XX^{eme} s.*), CNRS, Paris, 1992.
- Unesco (Centre du Patrimoine Mondial), «Orientations devant guider la mise en œuvre de la Convention du patrimoine mondial», Paris, juillet 2012.

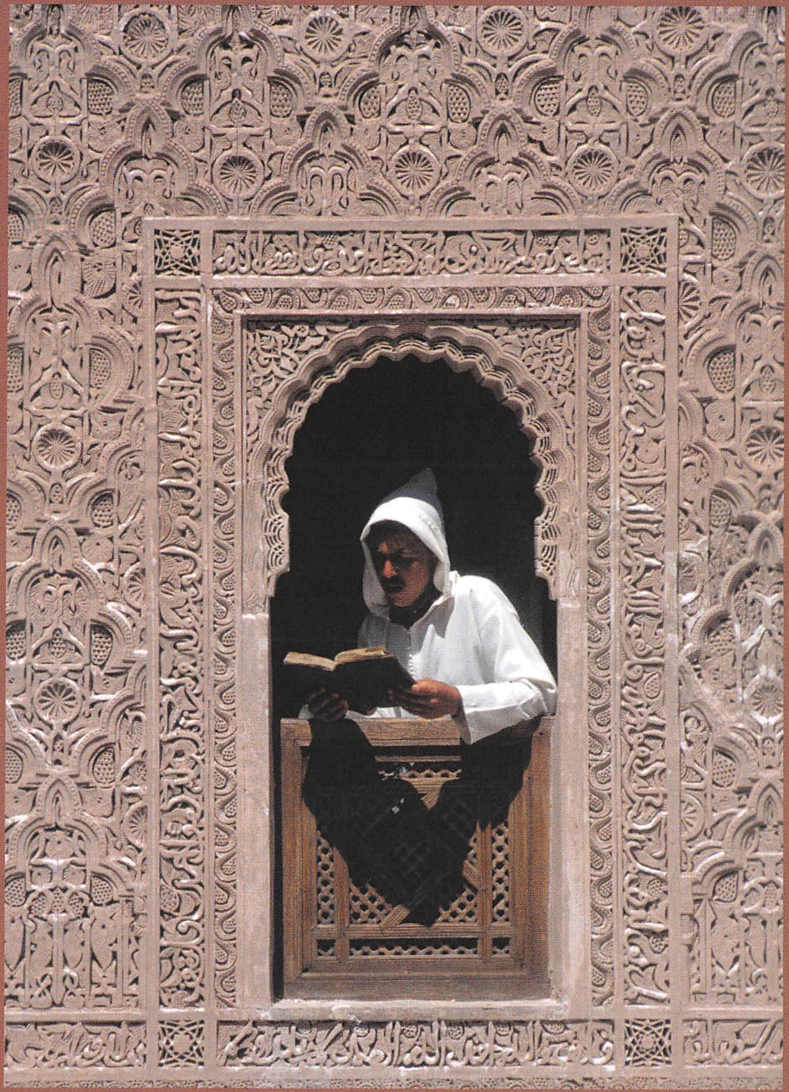

مراكش

تراث ثقافي مغربي

آبدة تراثية مزدوجة التصنيف

TELEBOUTIQUE

ARGANA

مدينة مراكش

الآبدة التراثية

يوسف خيارة

محافظ آثار

أدرجت مدينة مراكش على القائمة الدولية للتراث العالمي لليونسكو سنة 1985، قبل المدينة العتيقة لحلب السورية (1986) وأكروبول أثينا الإغريقي وسور الصين العظيم (1987) ومدينة القيروان التونسية (1988). إنه تتويج لمدينة وسيطية، واكبت عن كثب الأحداث السياسية الكبرى للمغرب الأقصى بل والمغرب الكبير والأندلس على مدى قرنين كاملين، ما بوأها مكانة سياسية واقتصادية وثقافية مرموقة ضاهى إشعاعها كبريات الحواضر العربية والإسلامية، على غرار بغداد بالمشرق العربي وقرطبة بالغرب الإسلامي.

ستة عشر سنة بعد تنويه منظمة اليونسكو الأول، احتفت مراكش بتتويج آخر حين أعلنت نفس المنظمة سنة 2001، «ساحة جامع الفنا» تراثا ثقافيا لا ماديا للإنسانية، وذلك قبل تشريع اتفاقية الحفاظ على التراث الثقافي اللامادي التي اعتمدت سنة 2003. لتكون بذلك أول موقع يحظى بهذا التشريف غير المسبوق من المنتظم الدولي.

مراكش : تاريخ سلالات حاكمة

لم تكن نشأة مدينة مراكش ثمرة تطور تلقائي لتجمع سكني أفضى، جراء اتساع رقعته، إلى نسيج عمراني حضري ، مثلما هو الحال بالنسبة للبدايات الأولى لعدة مدن عالمية. بل كان نتيجة قرار سياسي متبصر ترجم مباشرة على الأرض. في هذا الشأن،تعددت الروايات بخصوص سبب اختيار موقع المدينة، لدرجة تداخلت

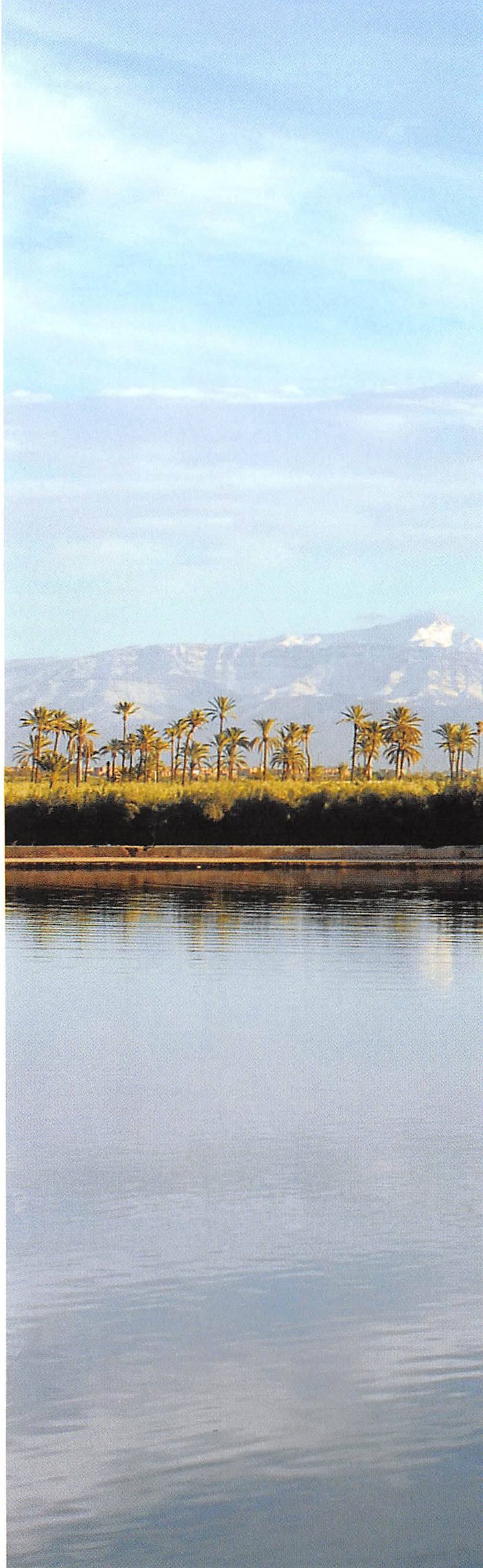

ساحة جامع الفنا،
الصفحةالمزدوجة السابقة.

المنارة.

مراكش،
مشهد من الجزء الجنوبي الغربي لسور المدينة.

فيه الحقائق العلمية والأساطير المتناسلة الأكثر طرافة. من بين كل التأويلات الموتورة، نورد تلك التي تحظى بقبول غالبية الباحثين، والتي مفادها أن المكان الذي أنشئت عليه مراكش كان عبارة عن سهل طبيعي يسمى «أمور» دأبت ساكنة السهل وجبال الأطلس على الالتقاء به لإنجاز مقايضاتها ومبادلاتها التجارية. ونظرا للأهمية الحيوية لهذا الفضاء بالنسبة لكلتا الفئتين، فقد كان هذا السوق القروي المزدهر يعقد تحت رعاية معبود أمازيغي يدعى «أكوش»، الذي كانت طقوس الولاء له تحظر المنازعات والاقتتال. هكذا وتبعا لهذا التأويل ، فإن أصل تسمية مراكش لا يعدو أن يكون محصل الجمع بين اسم الموقع واسم المعبود الذي يرعاه ليعطينا أموركوش والذي سيختزل في ما بعد ليصبح مراكش، واسع التداول.

ليس من الضروري الإسهاب في متابعة تفاصيل أصل التسمية في محاولة لربط اختيار هذا الموقع بتواجد نشاط بشري سابق لمجيء المرابطين، أو حتى لدخول الإسلام لهذه الأرض، إذ يكفي التمحيص في الوقائع والحيثيات التي واكبت الصعود المظفر للمرابطين، لنخلص إلى أن فعل تأسيس المدينة بتلك المنطقة تحديدا أملته خيارات استراتيجية صرفة، بمعزل عن أي تبرير آخر.

هناك عدة أسباب تدفع للاعتقاد بأن الباعث الحاسم في انتقاء مكان إقامة مدينة مراكش هو بالأساس الموقع الجغرافي المميز الذي يسمح بإحكام مراقبة ورصد التهديدات المحتملة لقبائل مصمودة، المتحصنة وراء قمم الأطلس الكبير المنيعة. علاوة على هذه الميزة الأولى، ينضاف تواجده في مفترق شبكة مسارات القوافل التي تخترق سهل الحوز. هكذا وبالإضافة إلى وظيفة مراقبة المجال الترابي التي يؤمنها موقع مراكش، هناك أيضا الإرادة المضمرة في تأمين الشروط الاقتصادية الدائمة لتطور وازدهار العاصمة الناشئة، وكذلك كان. فقد تمكنت مراكش مبكرا من إزاحة مدينة أغمات القديمة عن مسارات القوافل لاستقطابها نحوها معززة بذلك مكانتها كمحطة ضرورية على مشارف الصحراء وفي ملتقى الحوز والمناطق الأطلسية وسوس

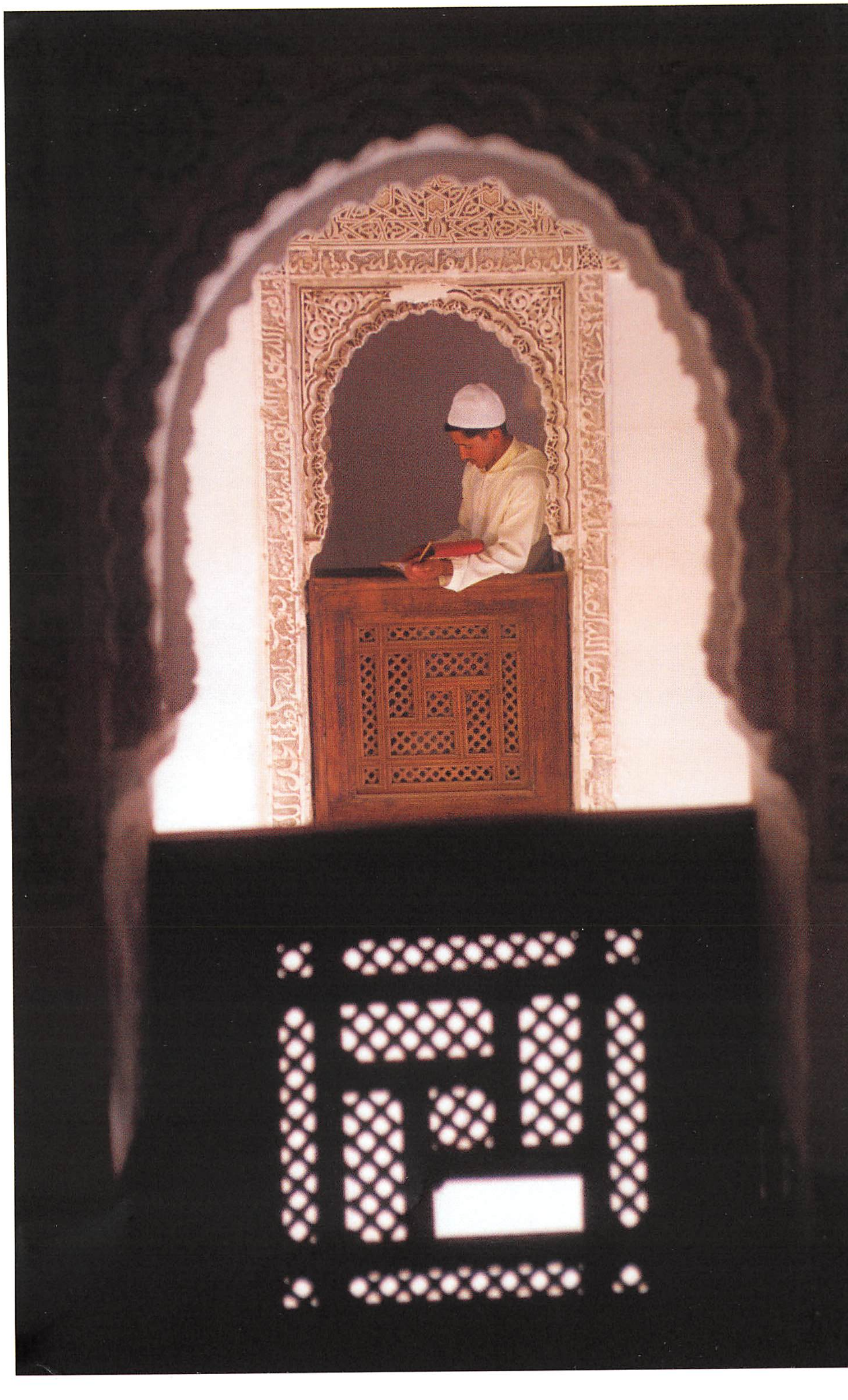

مدرسة بن يوسف،
نافذة من الطراز المعماري
المغربي-الأندلسي، وفي العمق
طالب يتصفح كتابا.

وتافيلالت من جهة، والسهول الأطلسية والبحر الأبيض المتوسط من جهة أخرى .

في البدء كان التجمع الأول للمرابطين في خلاء لا أنيس به، بين واد تانسيفت وجبل ڭيليز الصخري. وكان مستقرهم عبارة عن مخيم بسيط للرحل محاط بسياج من الزرب الشوكي . ولأنه كان هشا يسهل النيل منه، ظهرت الحاجة ملحة لتحصينه لترسيخ تواجدهم بالموقع وفرض هيبتهم. هكذا قام أبو بكر بن عمر، قائد حركة المرابطين الإصلاحية، بتحويله إلى قلعة متينة سميت ب « قصر الحجر » والذي أتم بنائه ابن عمه يوسف بن تاشفين، أول أمراء الدولة المرابطية وذلك ما بين 1060 و1062م .

يعد علي بن يوسف بن تاشفين، وبكل المقاييس المؤسس الحقيقي لمدينة مراكش، إذ عمد إلى تمدين شامل للموقع كان من أهم مظاهره، بناء دار الإمارة، ذلك القصر الأميري الذي جعل منه مقرا للسلطة ورمزا لها، وإحداث عدة منشآت عمومية أبرزها النظام الفذ لجلب المياه للمدينة من منابع دير جبال الأطلس، والمعروف محليا باسم «الخطارات». انتظمت المدينة ووفدت عليها جموع كثيرة راغبة في الاستقرار، واتسع نطاقها إلى درجة استدعت بناء مسجد جامع كبير بعيد عن دار الإمارة، كما تطلب الأمر سنة 1126 م إحاطتها بسور دفاعي مبني بالتراب المدكوك تتخلله أبواب محصنة .

ستعرف مراكش سنة 1130 م أول حصار عسكري لها قامت به كتائب الجيش الموحدي التي انطلقت من قرية تينمل بالأطلس الكبير الغربي، بأمر من المهدي بن تومرت ، الداعية الإصلاحي والثائر السياسي صاحب عقيدة التوحيد. سبع عشرة سنة بعد هذه المواجهة الأولى، ستكون المدينة مسرحا للمعركة الأخيرة والحاسمة بين الفصيلين والتي أفضت إلى غلبة الموحدين وأفول الدولة المرابطية .

هدم الخليفة الموحدي عبد المومن بن علي، الحاكم الجديد لعاصمة إمبراطورية الغرب الإسلامي، كل المنشآت الدينية المرابطية، لطمس معالم السلالة الحاكمة البائدة. ثم شيد بدلها معالم جديدة تحمل بصمته، أهمها مسجد الكتبية الأول، بمقصورته المتحركة والمشيد فوق أنقاض قصر علي بن يوسف المرابطي.

مع الموحدين الذين أنهوا تبعية المغرب الأقصى لخلافة العباسيين بالمشرق، دخلت مراكش في مرحلة ازدهار وعظمة إمبراطورية. فقد أضيف مسجد جامع محاذي للمسجد الأول (مسجد الكتبية الثاني القائم حاليا) وارتبط به من جهة القبلة. كما بنيت المئذنة في ملتقى المسجدين بالزاوية الشمالية الشرقية والتي أكمل بناءها يعقوب المنصور الموحدي في سنة 1195م بعد ذلك. غير أن أهم ما ميز العصر الموحدي هو التوسع العمراني الذي شهدته المدينة سنة 1185 م. على يد يعقوب المنصور حين أضاف حيا كبيرا متاخما للسور المرابطي بجزئه الجنوبي الغربي، عرف باسم تمراكشت أو القصبة كما اشتهر في ما بعد. إنها المدينة الملكية المنعزلة حيث دار الخلافة التي تدار منها شؤون الإمبراطورية.

مد يعقوب المنصور الحي الجديد بكل ما يتطلب من مرافق اقتصادية واجتماعية ضرورية للحياة الحضرية : مثل المساكن والأسواق والحمامات والمساجد والكتاتيب القرآنية والمدرسة والحدائق. كما أقام به ميدانا استعراضيا خاصا بالفروسية على مشارف بوابة «أڭناو» الفخمة، والتي تعد المدخل الرسمي للحي. تجاوزت منجزات الموحدين المدينة إلى أحوازها الغربية أيضا، حيث أحدثت عدة حدائق وبحائر يمكن أن نستشف شكلها وهندستها من خلال الشواهد الإيكولوجية لمنطقة أڭدال التي تغطي مساحتها أربعمائة هكتار، موقع المنارة.

خلال القرن الثاني عشر، صارت مراكش عاصمة عامرة ومزدهرة استقطبت الحرفيين والعلماء والفقهاء والتجار، وتوفرت بها الثروات ومعها خبرات

باب أكناو.

وثقافات المقبلين من مختلف الشعوب المنضوية تحت حكم الإمبراطورية الموحدية، مانحة بذلك للخليفة وحاشيته كل الوسائل لإنجاز مرافق ومعالم كبرى وفق أنماط معمارية وأذواق فنية جديدة.

أعقبت مرحلة السلم والازدهار العمراني والثقافي مرحلة كسوف دامت ثلاثة قرون متواصلة. ففي سنة 1269 م سينتقل الحكم بالمغرب الأقصى لآل بني مرين الذين سينقلون عاصمتهم إلى فاس القريبة من معقلهم ببلاد زناتة. وبفقدان ريادتها السياسية والاقتصادية، دخلت مراكش في حلقة من عدم الاستقرار، وهجرها عدد معتبر من السكان، فيهم التجار والحرفيون والفقهاء، لتنكمش عمرانيا ويضمحل إشعاعها ويصير خبرا بعد عين. حينما زار لسان الدين بن الخطيب مراكش سنة 1359 م ترك لنا وصفا كاسفا ينعي مدينة شبه مندرسة يعمها الخراب. كما أن ليون الإفريقي (أبو الحسن الوزان) ذكر بأن ثلث المدينة غير مأهول وأن الأنشطة الفلاحية أصبحت تنجز داخل بحائر المدينة من فرط انعدام الأمن الذي يسود خارج الأسوار.

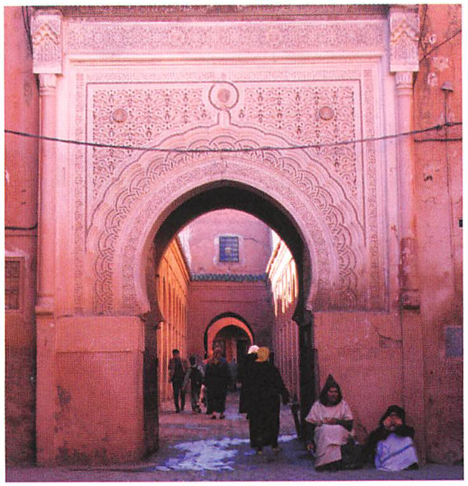

مراكش،
مدخل لأحد الأحياء العتيقة.

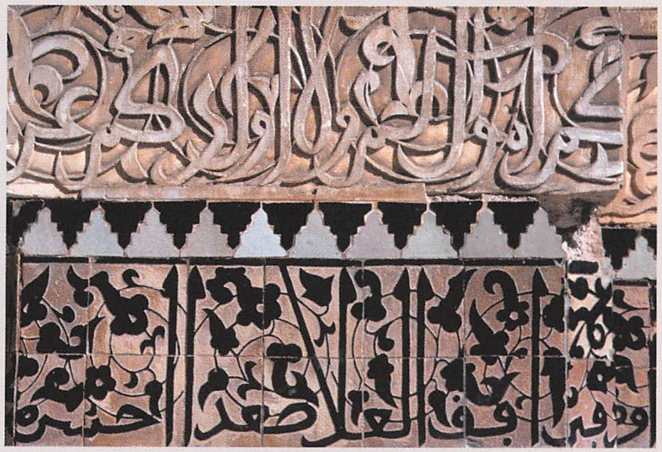

مدرسة بن يوسف،
نقيشة زخرفية جدارية.

باب مسجد سيدي بلعباس،
الصورة يسارا.

منارة مسجد القصبة،
الصورة يمينا.

منذ هذا التاريخ، وحتى نهاية العصر الوسيط، لم تعد مراكش سوى حاضرة إقليمية راكدة ومنكوبة تتأرجح بين سلطة مرينية انصب اهتمامها على شمال المغرب وشرقه، وقبيلة هنتاتة الجبلية التي كانت تدبر أمر المدينة بالوكالة عن السلطة المركزية من خلف فجاج جبال الأطلس الكبير.

ابتداء من سنة 1524 م ستنتهي قرون الكساد والانطواء مع صعود الشرفاء السعديين الذين بعثوا الروح في المدينة وأعادوا إليها بريقها التليد. وقيض لمراكش على عهد الدولة السعدية أن تصبح عاصمة لإمبراطورية امتدت من البحر البيض المتوسط بشمال المغرب حتى النيجر بإفريقيا الغربية. وتمتعت بفترة استقرار ورخاء مكنها من نهضة عمرانية جديدة كان وراءها سلطانان فذان هما مولاي عبد الله الغالب بالله (1557 - 1574 م) والذي يعتبر ثالث بان لمراكش، وأحمد المنصور الذهبي (1578 - 1603) بطل النصر الوطني المدوي على البرتغال في معركة وادي المخازن سنة 1578 م.

باتخاذهم مراكش عاصمة وطنية، كان من الضروري أن يعمد السعديون إلى ترميم الأسوار، وإحياء شبكة التزود بالماء، وإعادة تأهيل الأحياء القديمة الهشة والمكتظة التي أضحت أشبه ما تكون بتجمعات قروية. في سياق هذه التهيئة الحضرية للمدينة نقل حي مرضى الجذري من حومة باب أغمات إلى حي الحارة قبالة باب دكالة. السعديون كان لهم نصيبهم أيضا من الأحياء الجديدة كباب دكالة والقصور، ودباشي وسيدي بن سليمان وسيدي بلعباس وسيدي بوعمر ورياض الزيتون، الذي استقبل آخر الوافدين الأندلسيين، والملاح (الحي اليهودي) بأزقته التجارية، وبيعاته وفنادقه. كما زودوا المدينة بعدة مركبات دينية متكاملة مثل تلك التي بباب دكالة والمواسين وبن يوسف. ولتثبيت شرعيتهم في أعين ساكنة مراكش كخلفاء جديرين بوراثة مجد الموحدين، عمد السعديون لاختيار حي القصبة مقرا لإقامتهم ولإدارة شؤون الدولة. هكذا أعادوا بناءه وفق تصميمه القديم، وأضافوا به مقبرة ملكية وقصرا فارها (البديع).

عمرت مراكش وكثر بناء البيوت والمنازل وامتدت الأحياء وتمايزت واسترجعت الأسواق الحيوية من جديد بفعل فيض الإمكانيات والثروات المجلوبة .فذاع صيتها وعادت لسابق توقدها وتوهجها مضاهية باقي العواصم الإسلامية الشهيرة، مستقطبة التجار والعلماء والحرفيين والدبلوماسيين والمستكشفين.

كانت نهاية السعديين على يد الشرفاء العلويين. وشكل ذلك منعطفا جديدا في تاريخ المدينة الحمراء. إذ جردت من مكانتها كعاصمة للبلاد لفائدة فاس ومكناس على عهد السلاطين الأولين. وكان عليها أن تنتظر اعتلاء سيدي محمد بن عبد الله العرش (1757 - 1790 م) لكي تصل ما انقطع من حظوتها السياسية وصحوتها العمرانية. وفعلا قام هذا السلطان الذي كان خليفة لوالده على مراكش بأشغال معتبرة همت ترميم وتهييء حي القصبة.

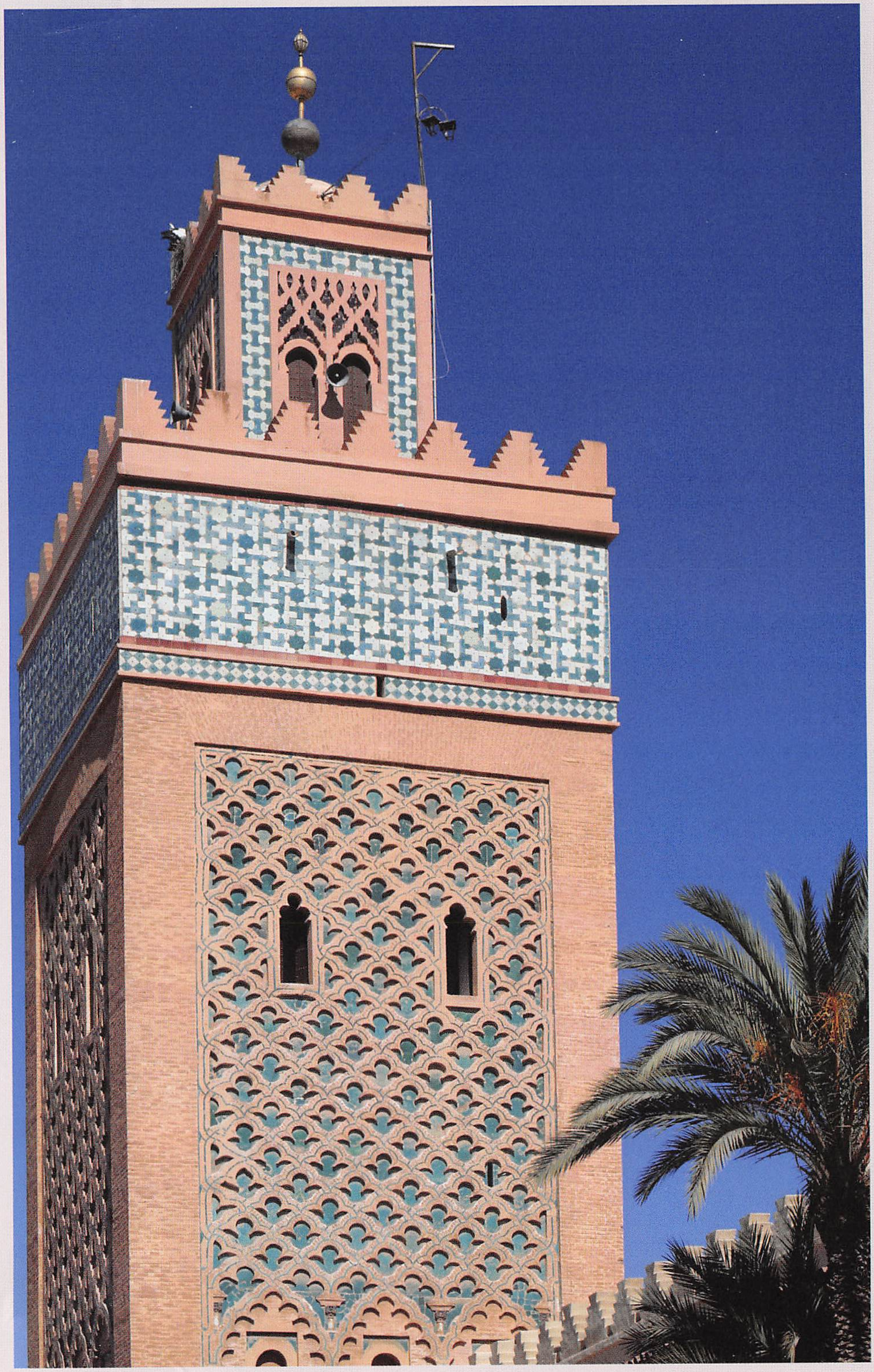

مراكش،
حي بن يوسف، النواة
العمرانية للمدينة.

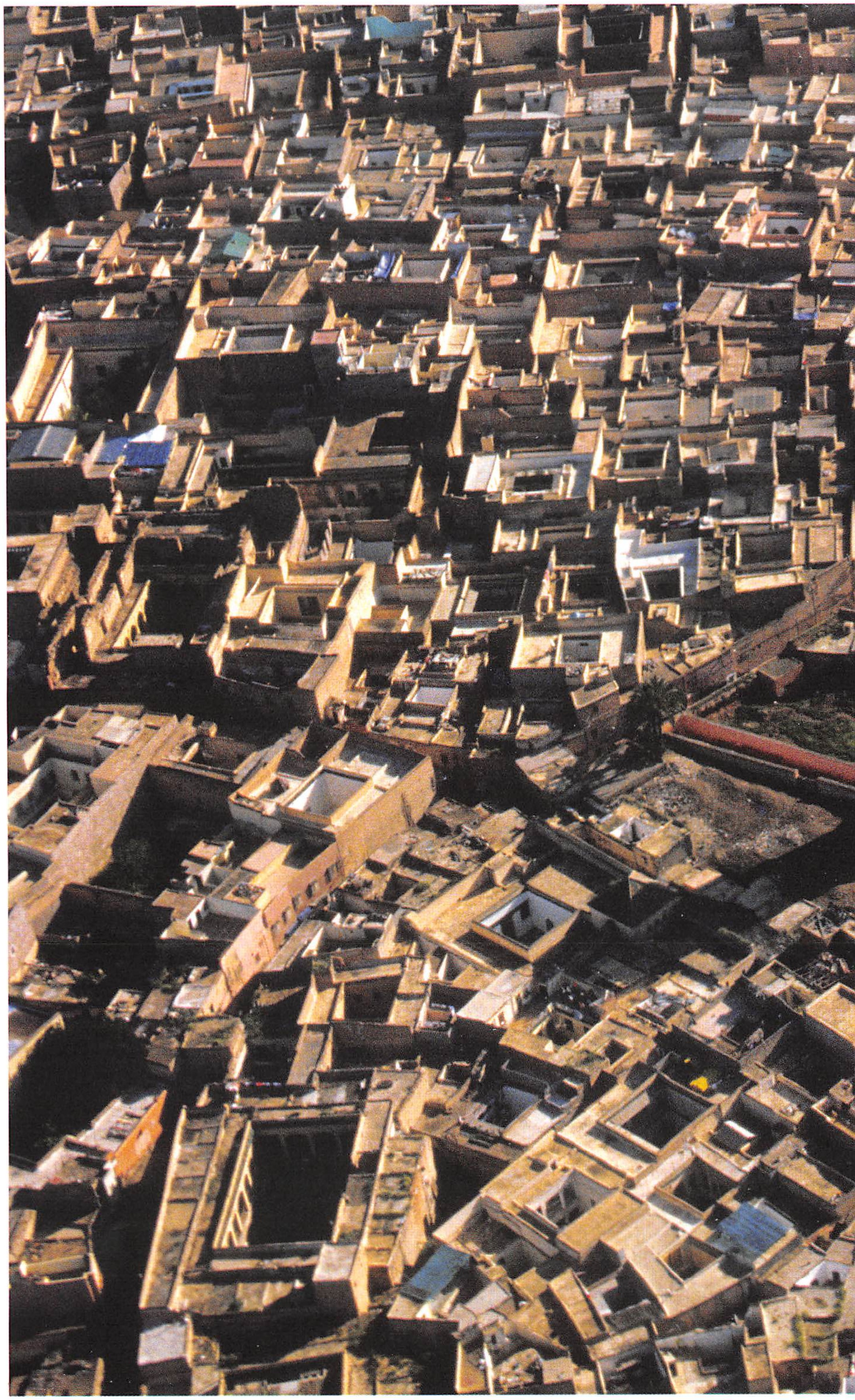

كما اعتنى بعدة أضرحة، وضم الحي الشمالي المحاذي لزاوية سيدي بلعباس للمدينة وأحاطه بسور وأحدث حيا جديدا لحرس القصر وخدامه بمقربة من باب احمر. فنعمت المدينة طيلة مدة حكمه بالاستقرار والأمن وعاودت فئة التجار والمهرة والأدباء الوفود إليها للعيش بها والاستفادة من إمكانياتها.
و بانقضاء فترة حكم هذا السلطان العظيم والمجاهد الذي حرر مدن الجديدة والصويرة الساحليتين من قبضة الاستعمار البرتغالي، ستفقد مراكش صدارتها السياسية وانتعاشها العمراني لتنحصر إنجازات السلاطين الذين تلوه في تدخلات محدودة لم يكن لها وقع مؤثر على شكلها الموروث عن السعديين بالرغم من بعض التوسع النسبي الذي شهدته. فالمولى سليمان (1796 – 1822) أعاد بناء المسجد الكبير بن يوسف ورمم قنطرة تانسيفت، والمولى عبد الرحمان(1822 – 1859) شيد خارج الأسوار جناح منتزه المنارة المطل على صهريج الماء الموحدي والذي خصصه للاسترواح، كما أعاد غرس البساتين والحدائق الكبيرة لأكدال وما رافق ذلك من أشغال ترميم لأحواض الماء القديمة وقنوات الري.
في القرن 19 ميلادي اكتمل تعمير مراكش بعد مسار دام ثمانية قرون. بقي تخطيط المدينة وفيا بشكل جلي لتصميم المرابطين الذي شكل الإطار الذي تطورت فيه. فلم تحدث الإنشاءات المتعاقبة إلا تغييرات طفيفة كانت أقرب ما تكون إلى الحفاظ على إرث الفترة الوسيطية أو الاقتباس منها. وعلى الرغم من أن بداية القرن العشرين قد جلبت معها تحولات سياسية واجتماعية وثقافية غير هينة، من قبيل الاضطرابات المتكررة ومجيء الحماية الفرنسية وبناء المدينة الأوروبية والنمو الديموغرافي والهجرة القروية المضطردة، فقد تمكنت مدينة مراكش من اجتياز هذا القرن وهي تحافظ على شخصيتها التاريخية وسماتهاالثقافية الأساسية، وهو ما خول لها اليوم الصيت العالمي الذي تحظى به.

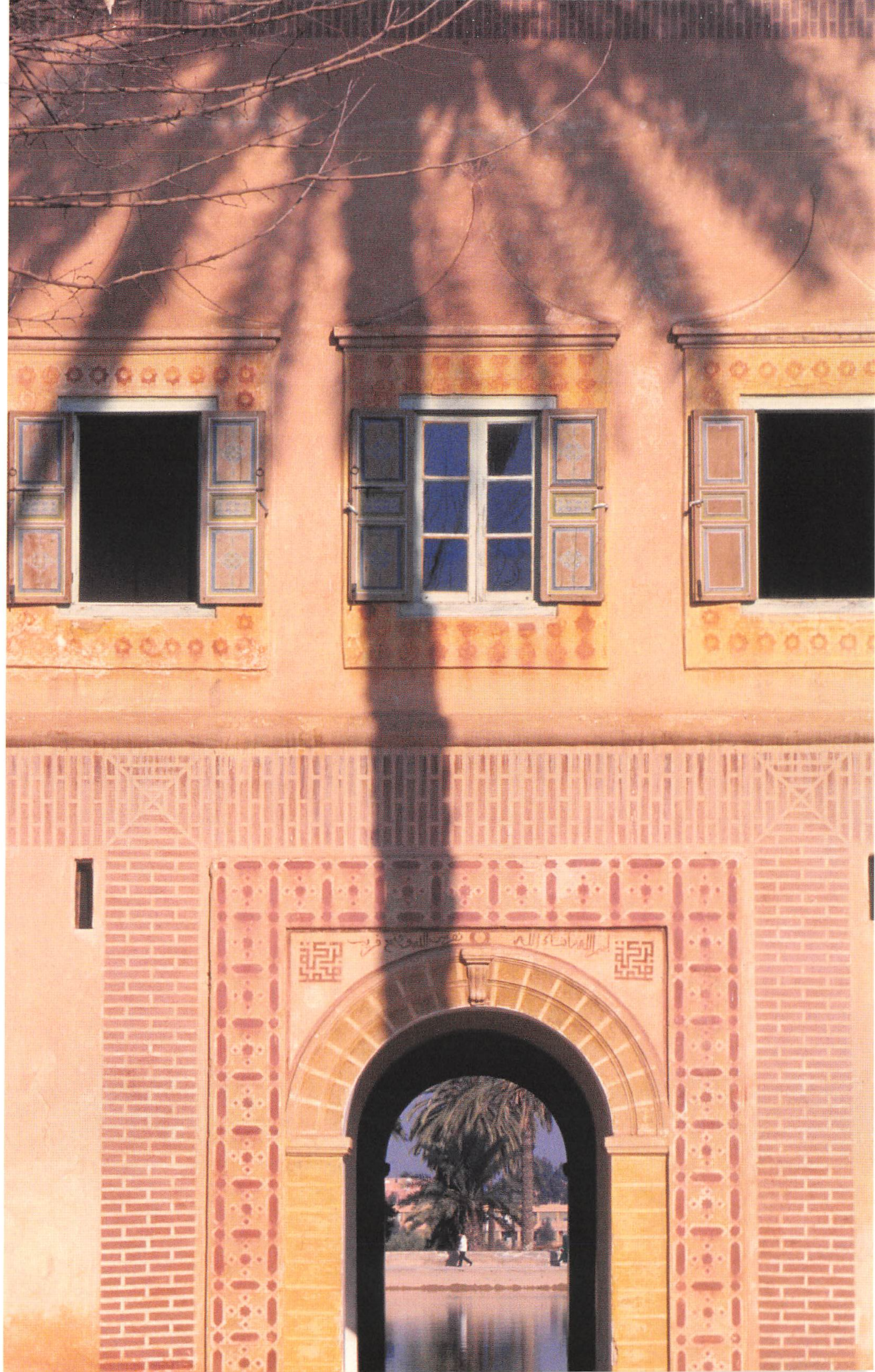

منزه المنارة،
مدخل الواجهة الرئيسية.

مراكش العالمية

إن الميزة الأساسية لمدينة مراكش هي أنها تمكنت من «احتضان وحفظ عدد مدهش من روائع المعمار والفن الإسلاميين لدرجة يمكن لكل معلمة على حدة تبرير الإقرار بالقيمة الكونية الاستثنائية (لهذه المدينة)» ،هذا ما ورد بالحرف في المعيار الأول من إعلان اليونسكو الذي صنف مدينة مراكش تراثا عالميا. كل المعطيات تؤشر على أن هذا المعيار، وهو واحد من بين أربعة، هو المسوغ الحاسم الذي خول لهذه الآبدة التراثية الرائعة ولوج مصاف الممتلك الثقافي للإنسانية عند اجتماع لجنة التراث العالمي لليونسكو في ديسمبر من سنة 1985. هذا الملمح إذن، هو ما نروم الانكباب عليه والتصدي لبعض تفاصيله الأثرية الفنية حتى يتسنى لنا استقراء خصوصيات الفن والعمارة التراثية لمراكش وشخصيتهما المغربية الإسلامية.

قصر الحجر

تكتسي هذه المعلمة، على بساطتها، أهمية كبرى من حيث رمزيتها التاريخية وقيمتها التراثية. فمن حيث الدلالة المعنوية يشكل قصر الحجر التجسيد المادي لاختيار أرض المغرب الأقصى لترسيخ الحركة الإصلاحية المرابطية المالكية، بعد سنوات من الاختمار والترحال بدأت عام 1039 م بالصحراء الكبرى (موريتانيا الحالية). أما القيمة الثانية فهي أركيولوجية، فموقع القصر يحدد لنا المكان القطعي، الذي لا لبس فيه، لمكان ولادة مدينة مراكش والذي كشفت عنه الحفريات المنجزة سنة 1952م على مقربة من أنقاض جامع الكتبية الأولى. إذ مكنت التنقيبات المذكورة التي أنجزت آنذاك من وجود سورين سميكين متعامدين بطول مئتي متر لكل واحد منهما في حالة جيدة

قصر الحجر وقصر علي بن يوسف،
مشهد عام للموقع عقب حفريات 1952.

قصر علي بن يوسف،
بقايا جدار مزين لإحدى قاعات القصر (حفريات 1995).

تتخللهما أبراج دفاعية مربعة متينة. وهو ما يوحي بكون القلعة كانت ذا تخطيط هندسي مربع. كما أظهرت أعمال التنقيب أن المعلمة تمتلك مدخلا غير متعرج وسلم جانبي يؤدي إلى ممشى علوي خاص بالحرس.

استعمل يوسف بن تاشفين في بناء قلعته الحجر النضيد المقطوع من مقالع جبل ݣيليز. وقد عمد البناؤون الذين كانوا تحت إمرته إلى تقنية أقل ما يقال عنها إنها فريدة وغير مسبوقة بالمغرب : فالسوران الرئيسيان، وهما بعرض ثلاثة أمتار، يتشكل كل واحد منهما من حائطين متوازيين تم الربط بينهما بشكل منتظم بروابط مبنية بالحجر مع ملء الفراغات التي بينها بالتراب. خلصت الدراسات المعمارية المنجزة على هذا الحصن إلى قناعة مفادها أن المواد والتقنيات المستعملة تدين لتلك المعتمدة بإفريقية الزيرية وبالأخص لمسجد المهدية الكبير في تونس. هذا التأثير المغاربي يبدو الأكثر ترجيحا خصوصا حين نعلم أن تاريخ بناء قلعة قصر الحجر، سابق عن تاريخ دمج يوسف بن تاشفين للأندلس في الإمبراطورية المرابطية سنة 1103 م وما صاحبه من مجيء لمهندسي وحرفيي وفناني ملوك الطوائف المتمرسين، للمغرب الأقصى للاستفادة من الإمكانيات الكبيرة التي أتاحها لهم المرابطون. وهو ما انبثق عنه تلاقح وامتزاج لمهارات ومعارف الضفتين أفضى إلى ولادة ما سيصطلح عليه أكاديميا بالفن المغربي-الإسباني أو المغربي-الأندلسي.

قصر علي بن يوسف

أمر ببنائه الأمير علي بن يوسف (1131م – 1132 م). اكشفت بعض من آثار هذا القصر إبان حفريات سنة 1952 وتنقيبات سنتي 1995 م و1996 م. إنه أقدم بلاط سلطاني بالمغرب. توجد بقايا قصر علي بن يوسف تحت موقع جامع الكتبية الأولى. وعلى الرغم من أن الأجزاء المكتشفة لا تسمح بإعادة

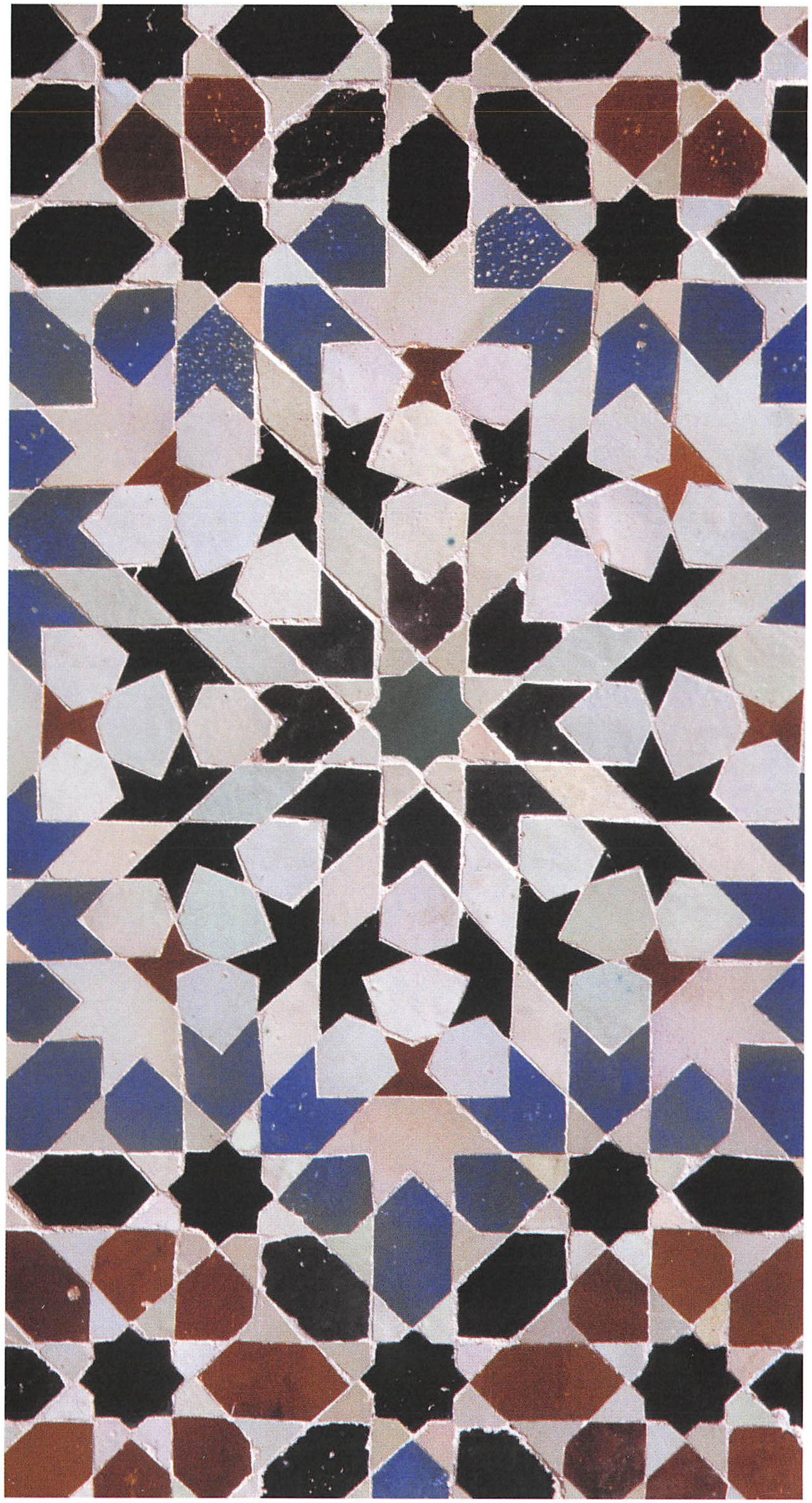

رسم التصميم الكلي له، فمن الممكن استخلاص خطاطته العامة من خلال ما أبانت عنه الحفريات. فوفق كل المعطيات، يبدو أن هذا البلاط الأميري يحاكي الصيغة المعمارية المعمول بها آنذاك بالأندلس، والتي تأخذ بمبدأ تناظر وتماثل الأجنحة والأروقة. فقصر علي بن يوسف شيد وفق مجموعة متعددة من بنايات متحلقة حول باحات مختلفة المقاسات مفتوحة على غرف وقاعات ذات وظائف مختلف، خاصة وعامة، للأعيان وللخدم. كما أسفرت اللقى الأركيولوجية عن وجود عدد معتبر من بقايا قنوات سقي فخارية وآبار وأحواض للماء وممرات مبلطة توحي بوجود حدائق. هذه الشواهد المادية تعضد الفرضية القائلة بأن هذه البساتين الداخلية، وهي أقدم النماذج بالمغرب، تشكل الطراز الأول ل «الرياض» المراكشي ذائع الصيت.

شيد قصر علي بن يوسف بالطابية والآجر وهي التقنية التي باتت الأكثر شيوعا في معظم المباني ابتداء من هذه الفترة بمراكش. وعلى الرغم من أعمال الهدم التي طالت القصر على عهد الموحدين فقد مكنت الحفريات الأثرية من اكتشاف بعض مظاهر الزينة الداخلية لهذه المعلمة من خلال بقايا زخارف مصبوغة بلون أحمر فوق ملاط الجدران الدعامات. يتعلق الأمر بقطع مزركشة بعناصر هندسية ذات تشكيلات معقدة بعناية دقيقة تتفادى الرتابة أو الإطناب. فالمبدأ العام لزخرفة الواجهات الحائطية هنا يعتمد في هيكلته على تركيبة لخطوط مستقيمة ومتعرجة تفضي إلى تشبيكات توحي بأشكال نباتية تعد النجمة أحد توليفاتها. لا يفوتنا هنا ذكر حضور بعض عناصر الزخرفة الخطية. فقد نجح فريق حملة التنقيب لسنة 1995 من الكشف عن بقايا لوحتين حائطيتين تتخلل زخرفتهما الهندسية الكاسحة تبريك كتب بالخط الكوفي العتيق. إنه النموذج الوحيد الذي وجد في الموقع، والذي ولطابعه « القديم » يضع موضع تساؤل الفكرة الشائعة لدى

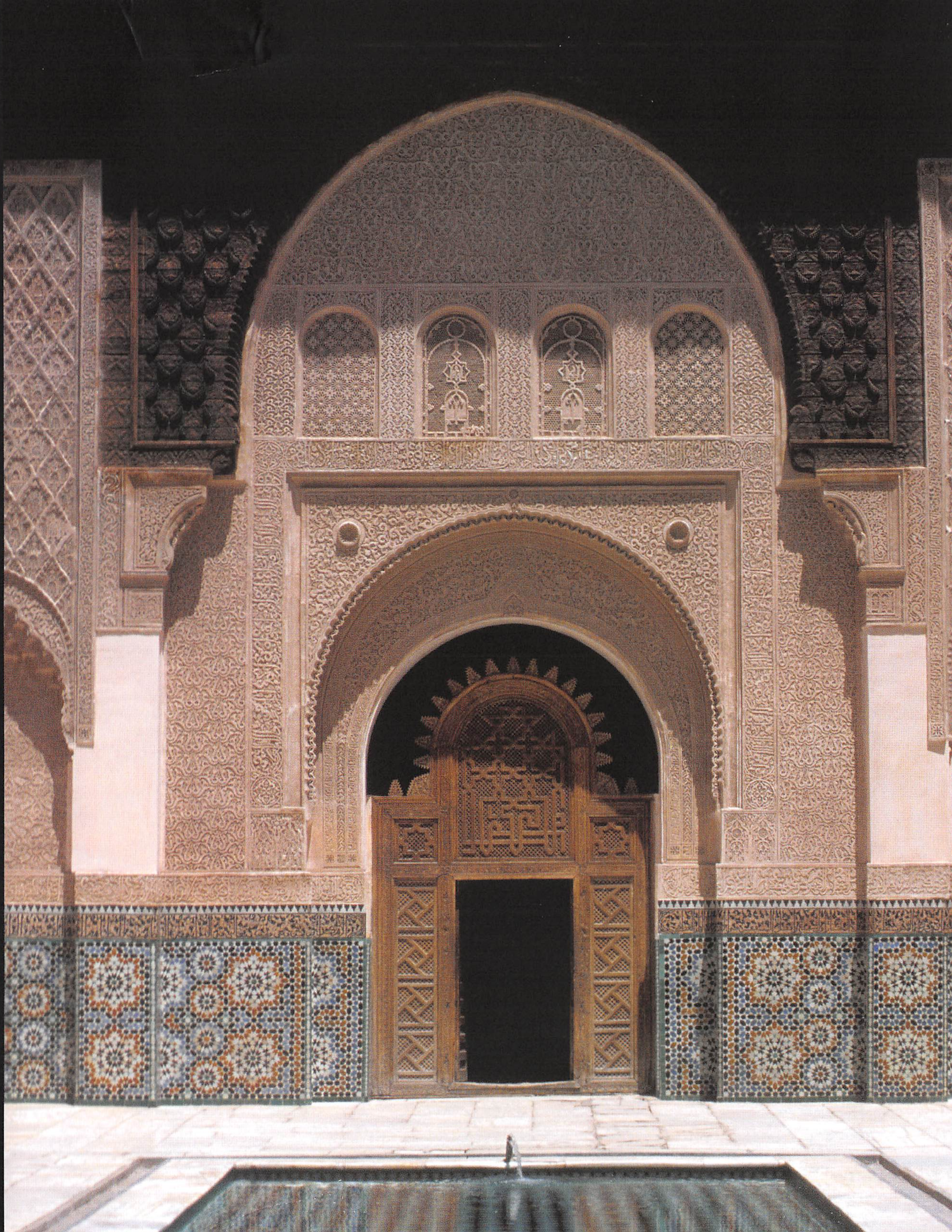

مدرسة بن يوسف،
الصحن وتفاصيله الزخرفية.

القبة المرابطية،
التفاصيل الزخرفية الداخلية.

علماء الآثار عن تأثير قصر كاستييخو بمورسية على قصر مراكش. بحيث يمكن التسليم اليوم بأن الزخرفة المعتمدة بقصر علي بن يوسف بمراكش، سابقة بلا ريب عن نظيرتها الأندلسية.

القبة المرابطية

إنها الأبدة المعمارية المرابطية الكبرى بمراكش، والتي تمكنت بأعجوبة من البقاء مصونة، بمنأى عن التدمير الذي نهجه الموحدون عند دخولهم المدينة. توجد القبة وسط المدينة، وقد بقيت مطمورة تحت الأتربة حتى سنة 1952. هي معلم تاريخي صغير نسبيا كان ملحقا بمسجد علي بن يوسف(1106 - 1143 م) الذي دكه الموحدون. بنيت قبة البُعديين كما تسمى أيضا على شكل مقصورة تعلوها قبة تغطي حوضا مستطيلا للوضوء محاطا بمسقاة ومقاعد. تنتصب القبة وسط ساحة محاطة بميضأة يبلغ تعداد مراحيضها تسعة عشر. وقد بنيت وفق تصميم مستطيل (5.35 م × 7.30 م) بعلو يصل لإثني عشر مترا. واستعمل في تشييد جزئها السفلي الآجر والحجر المنحوت بشكل متناوب. أما الجزء العلوي فتم الاعتماد فيه على الآجر فقط. بإلقائنا نظرة على البناية من الخارج، يبدو هذا الصرح الصغير محمولا على أربع ركائز سميكة في الزوايا. ويمكن أن نميز بوضوح مستويين من الزينة التي تدبج الواجهات الأربع : علوية وسفلية. فالمستوى الأرضي يتشكل من قوسين مزدوجين متجاوزين بعقد كامل (المدخلين الشمالي والجنوبي) وقوس واحد مفصص (المدخلين الشرقي والغربي).

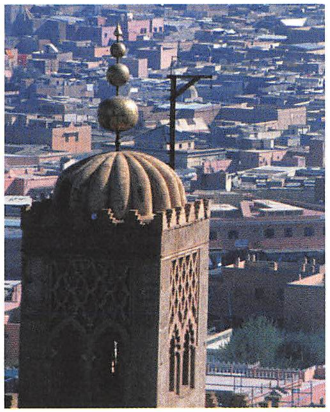

مسح للقبة المرابطية.

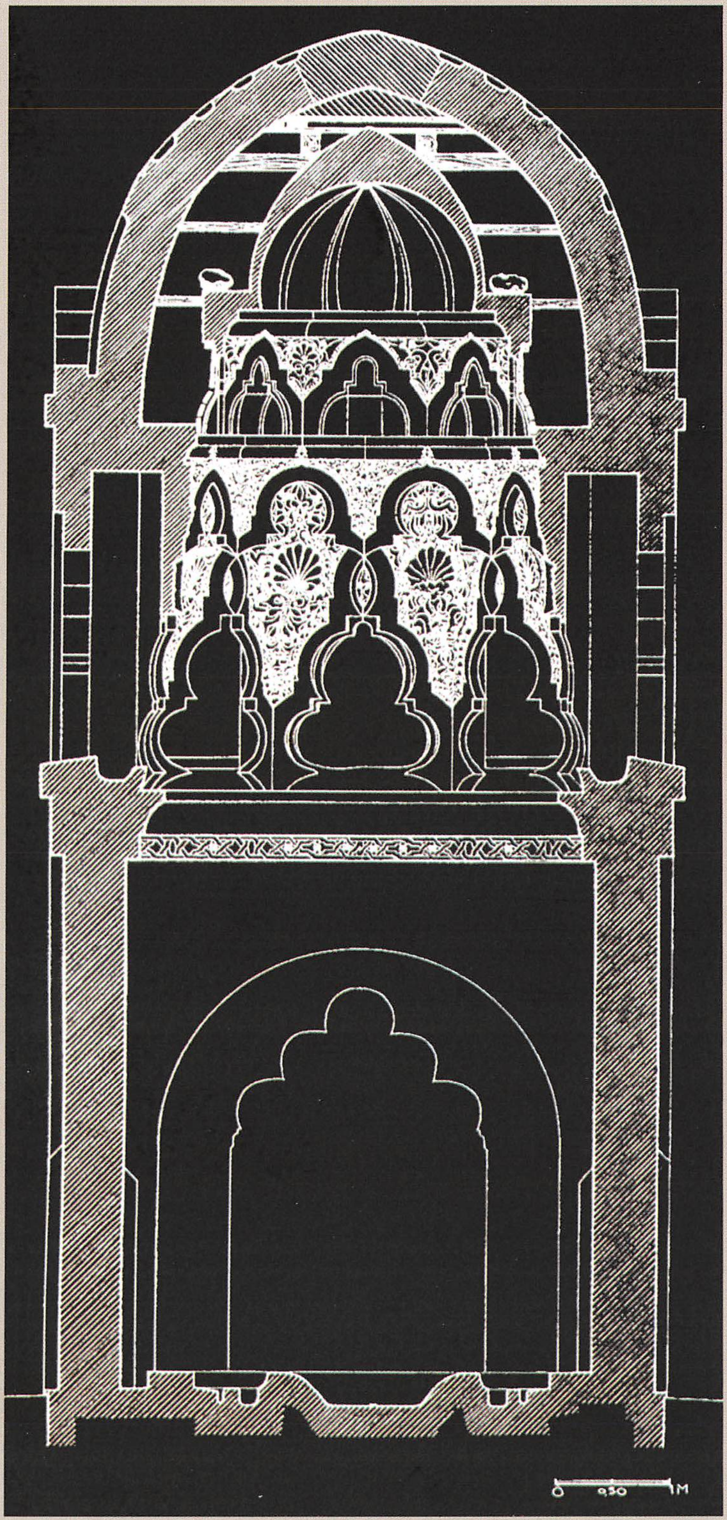

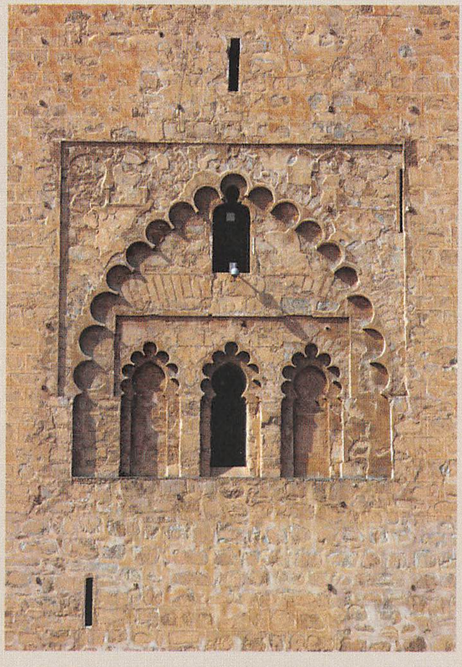

صومعة الكتبية،
نموذج للزخرفة الهندسية للواجهات.

المستوى الثاني (العلوي) مزين بسلسلة من ستة عشر قوسا موزعين على الواجهات الأربع وفق أنماط عقود مختلفة (منكسر، متجاوز، مفصص، محدبة، مستقيمة) خمسة على الواجهتين الشمالية والجنوبي وثلاثة على الواجهتين الشرقية والغربية. يعلوه هذه التشكيلة من الأقواس شرفات مسننة تحف قبة مزينة بحزام من قويسات متراصفة ومتداخلة في ما بينها وأخاديد ناتئة محيطة بنجمة سباعية الأضلع .يذكر هذا النسق الجمالي الخارجي إلى حد كبير بواجهة مسجد باب مردوم الأندلسي بطليطلة.

ويبقى واسطة عقد هذا المعلم قبته المعرقة، المستوحاة من قباب مسجدي قرطبة وتلمسان والتي، بالإضافة لكونها تشكل دليلا إضافيا على التأثير المتبادل على صعيد الغرب الإسلامي، تلخص لنا ذروة الفن المرابطي وخصوبته .فزخرفتها الجصية الداخلية اتبعت نسقا تصاعديا بحيث تزداد الزينة وتتعقد كلما اتجه بصر الناظر إلى الأعلى. إذ مزجت العناصر الهندسية والنباتية الخطية بتمايز

جلي. تم رفع القبة على أقواس مفصصة وضعت مباشرة على إفريز بمثابة قاعدتها، وفق تقنية تسمح بتداخلها حتى يتسنى المرور من الشكل المربع للقاعدة إلى الشكل المثمن الأضلاع. يتمخض عن هذه التقنية بروز حنايا حاملة تم تجميلها بزخارف نباتية تعلوها صدفة بحرية بارزة. وتملأ مقرنصات غاية في الإتقان الفراغات المتبقية في الزوايا. تعلو هذه التشكيلة الزخرفية قبة صغيرة من الطراز الأندلسي. أما النقائش الكتابية فتوجد في الإطارات والحواشي وتشمل بعض التبريكات تذكر الخليفة علي بن يوسف.

مسجد وصومعة الكتبية

مسجد الكتبيين والمعروف عامة باسم «الكتبية» يشكل معلمة بارزة في تاريخ العمارة والفن على مستوى الغرب الإسلامي، بحكم تأثيرها الواسع النطاق تخطيطا وزخرفة على العمارة الدينية زمن الموحدين ومن تلاهم. عرف جامع الكتبية مرحلتي بناء لا نلم بظروفها وحيثياتها. الأكيد أنه تم إنشاء مسجد الكتبية الأول من قبل الخليفة عبد المومن (1147م) فوق أطلال قصر الأمير علي بن يوسف عقب استحكام الموحدين على مدينة مراكش، ثم جرى التخلي عنه لتتم إقامة مسجد ثان وفق نفس تصميم الجامع الأول وهو المسجد الحالي (1160م – 1195م). أما الصومعة السامقة التي انتصبت بين المصليين فتنتمي من الناحية الكرونولوجية إلى المرحلة الثانية من التشييد.

بني مسجد الكتبية (الحالي) على مساحة واسعة تغطي مربعا منحرفا من 92 م × 90 م × 66 م × 57 م، مما يجعله أحد أكبر الجوامع المغاربية. فقاعة الصلاة تحتضن سبعة عشر بلاطا متعامدا مع جدار القبلة يخترقها إحدى عشر أسكوبا محمولا على دعامات وأقواس عالية وسميكة متعددة الأشكال على غرار تلك الموجودة بالمساجد الموحدية بتازة وقرية تينمل بالأطلس الكبير

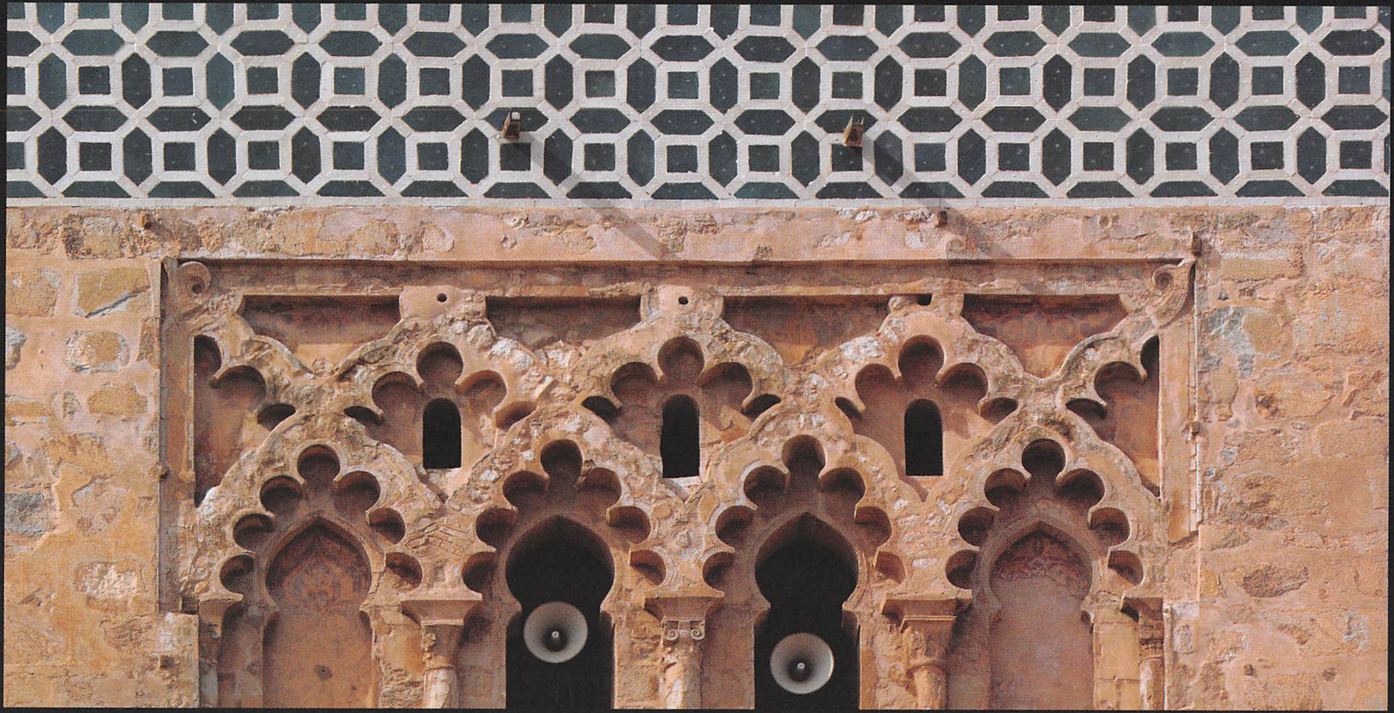

الكتبية،
جزء من نقوش الصومعة
والداخل.

مسجد الكتبية،
منظر عام لأحد أروقة
بيت الصلاة،
الصفحة المقابلة.

والمسجد الأعظم بمدينة سلا. تفرد البلاط الموازي لجدار القبلة والبلاط المحوري المؤدي للمحراب بمقاييس أكبر وعلو أهم عن باقي البلاطات مما أفضى إلى تخطيط يشبه الحرف اللاتيني T وهو ما يشكل إحدى خصوصيات العمارة الدينية الموحدية.و تماشيا وطرازهم ،زود بناؤو ذلك العهد البلاط الموازي لجدار القبلة بخمس قباب للرفع من قدر جدار القبلة بكامله مع إعطاء أهمية أكبر من حيث الزخرفة للقبة التي تعلو المحراب.

تؤمن ستة أبواب متماثلة الدخول لقاعة الصلاة. أما الصحن فله بابان جانبيان متقابلان مفتوحان في الجدارين الشرقي والغربي. كل مداخل المسجد تتميز بسماكة كتلة الإطار المحيط بها ما يجعلها أشبه ما تكون بمداخل منشآت دفاعية، الغرض منها إظهار القوة والعظمة.

محراب مسجد الكتبية عبارة عن تجويف ينفتح على شكل قوس نصف دائري متجاوز بظاهره قوس ثان بارز ذو فصوص. تتكئ هذه الأقواس على مسندين يعلوان تيجان أعمدة أموية تم جلبها من قرطبة لإعادة استعمالها.

الفضاء الداخلي للمحراب مغطى بقبة مثمنة الأضلاع مزينة بمقرنصات في غاية الدقة والصنعة، تشكل إلى جانب نظيراتها بالبلاط المحوري، وقبتي مسجد تينمل، النماذج الموحدية الأقدم بالغرب الإسلامي.

باستثناء أقواس البلاط المحاذي لجدار القبلة والقوس الأخير للبلاط المحوري التي زينت بالمقرنص فكل عقود بيت الصلاة من النمط الصقيل، المنكسر أو المتجاوز، محمولة على سواري مربعة مبنية بالآجر ومكسوة بطبقة رفيعة من الجبس. ولإعطاء جمالية لكتلة هذه الدعامات الثخينة تمت إضافة أعمدة جصية صغيرة عليها، تكللها تيجان أعمدة. في الأخير وجبت الإشارة هنا إلى أن تشكيلة تيجان الأعمدة الرائعة والأنيقة الصنعة بجامع الكتبية تشكل، شأنها في ذلك شأن تيجان أعمدة مسجد تينمل، وثيقة ذات قيمة فنية عالية على صعيد الغرب الإسلامي، لأنها تؤرخ لبداية نشأة تيجان الأعمدة الإسلامية الصرفة في شمال إفريقيا وتذكرنا بروح الابتكار والتطور الذي ميز العمارة والفن المغربيين في تلك الحقبة التاريخية.

باجزء الشمالي-الشرقي لقاعة الصلاة تستوقفنا المئذنة الشهيرة الشامخة بأبعادها، والتي تعتبر علم مراكش بدون منازع. بنيت صومعة الكتبية قبل توأميها، منارة الخيرالدا في إشبيلية وصومعة حسان في الرباط، مشكلة بذلك النموذج الذي اقتبستا منه على مستوى التخطيط والبناء والنسق الزخرفي. وبالرغم من أن الباحثين ينسبونها في أغلب الظن إلى المرحلة الثانية من بناء الجامع كما أسلفنا والتي توافق الخليفة يعقوب المنصور (1184 - 1199م)، فإن هناك من يرى أنها من تصور وحبكة الخليفة الأول لدولة الموحدين، عبد المومن بن علي.

اتخذت صومعة الكتبية تخطيطا مربعا على غرار التقليد المعمول به بالغرب الإسلامي. إذ يبلغ ضلعها 12،80م وعلوها 69،50 م حتى قبة الجامور المضلعة (دون احتساب قياس السهم العلوي: «العزري»). بنيت المئذنة بحجر الصلصال الصلد المقطوع من مقالع جبل گِليز بمراكش. إن نظام بناء منارة الكتبية بسيط من حيث المبدأ، فلدينا جدار خارجي مربع يحوي نواة مركزية مجوفة مشكلة من ست حجرات متراكبة واحدة فوق الأخرى. على أن الفارق المتبقي بين الجدار الخارجي والنواة المركزية والذي يبلغ عرضه 1.50م، استعمل كممشى ملتو ومتصاعد (بدون درج) يفضي إلى قمة الصومعة. وبحسب مؤرخي الفن والعمارة، فقد تم اقتباس هذه التقنية الفذة والتي ستعتمد بعدد من المنارات المغاربية في الفترات التاريخية اللاحقة، من منار قلعة بني حماد في المغرب الأوسط والتي بنيت في بداية القرن 11م .

تكسو المنارة من الخارج خمسة نطاقات زخرفية بارزة تختلف من واجهة إلى أخرى. إذ تشتمل على توليفة من حنايا متجاوزة مفصصة على منوال نظيرتها ببيت الصلاة، أنجزت وفق أشكال متضافرة وتشبيكات متناسقة في غاية الحسن والدقة تغني عن استغراق الوصف فيها. أما المجالات الفارغة بين الزخارف فأثثت بطاقات صماء عليها رسوم ملونة بطلاء أمغر مائل إلى الصفرة تارة

مسجد الكتبية،
منظر عام للواجهات الجنوبية الغربية.

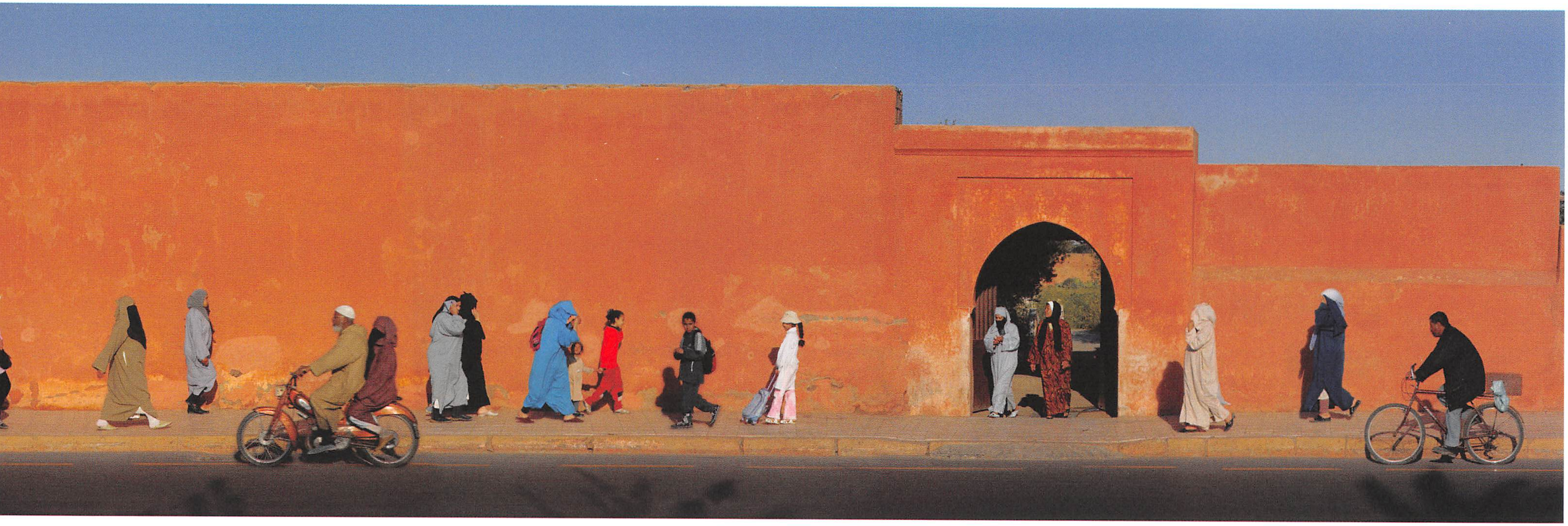

وللحمرة تارة أخرى، تجسد زخارف نباتية (زهرية وسعيفات وصنوبريات)، وهندسية وخطية من الطراز الكوفي. الجزءان العلويان للصومعة وللجامور رصعا بحزام من الزليج الأخضر والأبيض وفق تركيبة هندسية تميزهما عن باقي أجزاء المعلمة وتوحي للناظر بصورة تاج يكلل المئذنة.

خضع داخل صومعة الكتبية هو الآخر للتزيين حيث واستفادت القاعات الطباق المشكلة للنواة الوسطى من أشغال زخرفة متنوعة همت بالأساس قبابها. فسقف الحجرة الأولى زين بقبة مخروطية الشكل. أما الثانية فبقبة مضلعة مرتكزة على مثمن زوايا وأربعة حنايا ركنية بمقرنصات. بينما نظام تسقيف الثالثة وأربع فعبارة عن قبو بحافات حادة متكئ على أعمدة منتصبة بالزاويا. الخامسة وهي قبة على شكل جذع هرم ولها ثمانية جوانب ترتكز على مثمن أضلاع موضوع على حنايا الزوايا. والسادسة، وهي الأكثر بهاء ورونقا، فلها قبة معرقة أو ذات أخاديد رفعت على قاعدة ثمانية الزوايا مكسوة بمقرنصات. واللافت للانتباه هنا هو أنه على الرغم من كون هذه القباب لم تكن موجهة للعيان، بفعل تواجدها داخل الصومعة، فقد حظيت بأرقى وأحسن ما جاد به حرفيو الموحدين، ما يؤازر فرضية التأثير المستلهم من قباب باب مردوم في مدينة طليطلة بالأندلس.

أسوار مدينة مراكش

بحسب رواية قديمة نقلتها المصادر التاريخية، فقد عمد الأمير علي بن يوسف للأخذ برأي المنجمين ليحددوا له التوقيت الملائم للشروع في بناء سور مراكش. ليس هناك أي تأكيد لمدى مصداقية هذه الرواية. لكن المؤكد هو أن إقامة سور المدينة تم سنة 1126 م. لزم الأمر ثمانية أشهر. شيد هذا الصرح بالتراب المدكوك المقوى بالجير (الطابية) واتخذ شكل مضلع غير منتظم تخترقه ثلاث عشرة بوابة. كما أوضحنا سابقا ،لم يشمل هذا المسار الأصلي حي القصبة، والذي بناه الموحدون أواخر القرن 12م. ولا حي سيدي بلعباس في الشمال ولا التوسعة العلوية للجزء الجنوبي.

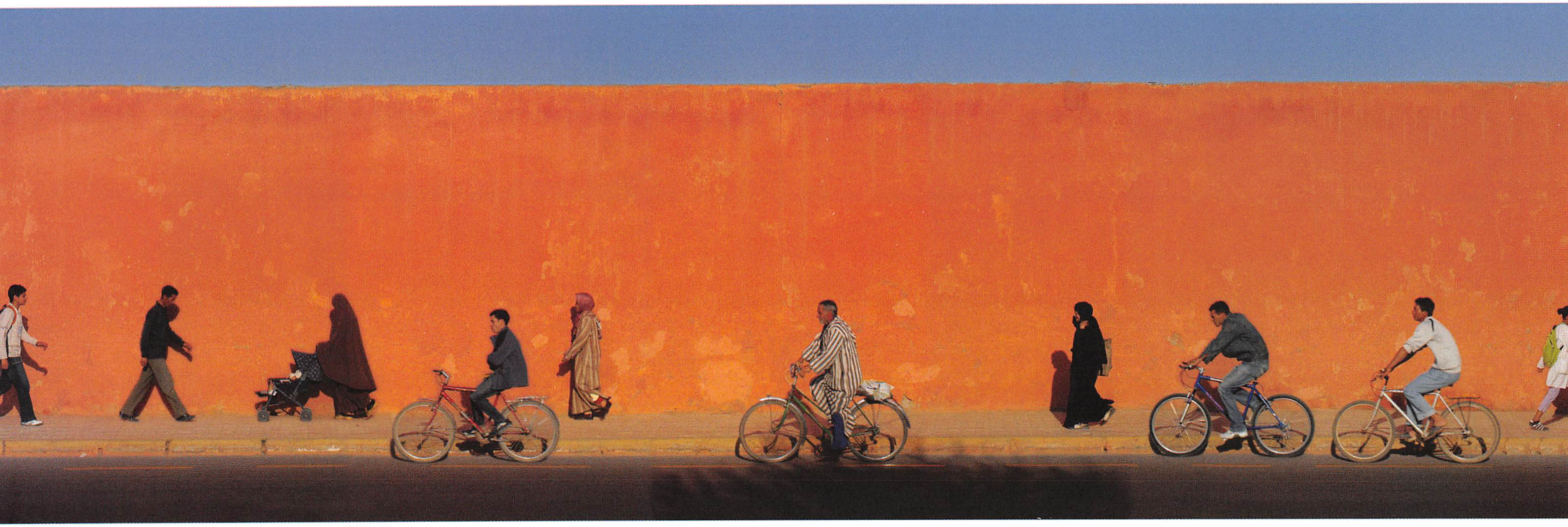

مراكش،
اللون الأمغر الذي أضفى نفحة جمالية ميزت المدينة عبر التاريخ.

يبلغ طول السور 9 كلم بسمك 1.60 م إلى مترين وعلو متفاوت (بين 6 و9 أمتار). كما تتخلله أبراج دفاعية شبه مربعة وتحميه من الداخل ممرات العسس. إن هذه العناصر المعمارية الدفاعية تذكر في كل تفاصيلها بتقنيات التحصين المتبعة بعدوة الأندلس في تلك الفترة : وفي هذا دليل إضافي على التأثير الكبير للطراز المعماري لإسبانيا المسلمة على المرابطين خلال عهد الأمير علي بن يوسف .

الأبواب التي فتحت في السور تتبنى تصميما هندسيا واحدا مشكلا من فئتين. الأولى لها مدخل مباشر غير منعرج محصن ببرجين جانبيين. والثانية لها مدخل مباشر مع انعطاف بأحد برجيها. وتشكل أبواب أغمات وأيلان، والدباغ وتاغازوت أفضل النماذج المرابطية .

يعتبر باب أگناو الموحدي معلمة استثنائية ورائعة الأبواب المراكشية بامتياز. إنه باب الأبهة والفخامة الذي صممه الموحدون واتخذوه مدخلا لحيهم الملكي، تمراكشت (القصبة).

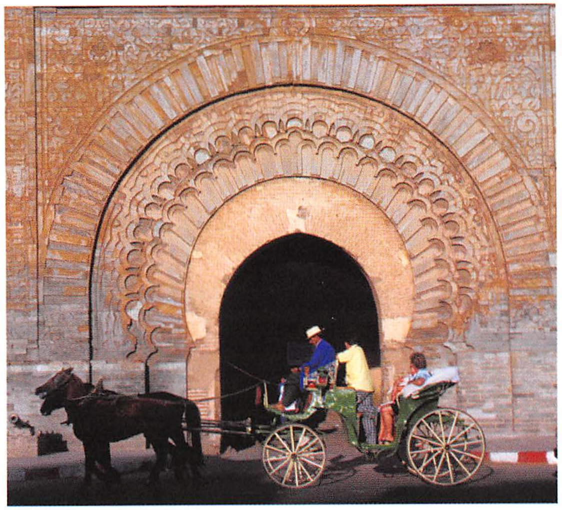

باب أگناو،
عربة خيل، وسيلة نقل تقليدية؛ خصوصية أخرى للمدينة الحمراء.

قصر البديع،
أحد المعالم الفخمة للعصر السعدي. (الصفحة المزدوجة الموالية).

قصر البديع،
بقايا قاعة الاستقبالات الملكية
(القبة الخمسينية).

بني الباب على شاكلة قوس عال بعقد كامل تماشيا والنمط السائد في الفن المغربي-الأندلسي. زخرفت باب أگناو على منوال المحارب الموحدية. إذ لدينا إطار مستطيل وزخرفة لا تبدأ إلا مع انطلاقة القوس. وفوق فتحة العقد مباشرة أربعة تقوسات جدارية ناتئة ومتدرجة موازية لانحراف فتحة العقد. زينت هذه النطاقات الأربعة بعناصر هندسية على شكل أقواس مفصصة وأخرى متشابكة مضفورة وقفرات عقد شديدة الغور والبروز. بعد ذلك نجد أكاليل زهرية تمثل سعفات صقيلة ومنمنمة وركنيتين جانبيتين تتصدر كل واحدة منهما صدفة بحرية. وأخيرا يحد الإطار إفريز يحمل نقيشة مكتوبة بالخط الكوفي المغربي تدعو الزوار إلى دخول الحي الملكي في أمان : «ادخلوها بسلام آمنين...». زينت النقيشة أيضا بتشبيك زهري مكون من أغصان وسعفات صقيلة. وبحسب المستشرق هنري تيراس الذي قام بدراسة مستفيضة للأبواب الكبيرة بالمغرب، يعتبر باب أگناو من أجمل الأبواب في العالم.

إرث ما بعد العصر الوسيط : السعديون والعلويون

يشكل القرن 16 م منعطفا حاسما في تاريخ المغرب بما أنه سجل قطيعة مع النموذج السياسي الوسيطي الذي كان قائما على عقيدة دينية إصلاحية والمستند على القبلية كقاعدة له. فقد عمد السعديون خاصة مع المنصور الذهبي ما بين (1578 و1603 م) إلى بلورة توجه سياسي وإيديولوجي جديد يجعل من الحاكم سلطة دينية مهيمنة في البلد ورمزها الوحيد. ومن بين الإجراءات الموازية التي لجأ إليها المنصور الذهبي لتكريس شرعية تخصيصه حيزا غير هين لتمظهرات سلطانه وصولته. كانت التشريفات والمراسيم السلطانية الوازنة التي أحاط هذا السلطان نفسه بها تروم الإعلاء من مهابته ووقاره إزاء النخبة القريبة منه ووسم مخيال رعيته. الطقوس السلطانية هاته المحضرة بعناية كانت موجهة أيضا للعدوين الخارجيين الدائمين للمغرب حينها، أي الجارين المتنافسين : الإسبانيون والعثمانيون.

قصر البديع،
حوض بالداخل.

قصر البديع

في هذا السياق المومأ إليه، ولهذه الغاية أمر أحمد المنصور الذهبي يوم 4 أكتوبر 1578 ببناء قصر البديع الذي خصصه للاستقبالات الرسمية والمراسيم الاستعراضية. وقد أشرف هذا السلطان بنفسه على الأشغال معتمدا على فريق من المهندسين والصناع القرطبيين، كما يثبت ذلك تصميم القصر وبقايا الزخرفة التي بقيت حتى اليوم. كما أنه لم يدخر أي جهد لجلب أحسن المعلمين البنائين في البلد واستعمل أجود وأنبل المواد كالجبس والرخام وحجر الجزع بمختلف ألوانه. وفي هذا السياق نجده يخاطب فيرديناند الأول دو ميديسيس لجلب الرخام من إيطاليا، والذي كان يقايضه بمادة السكر « وزنا بوزن» حين كان السكر صناعة مغربية.

وصف الضيوف الذين زاروا القصر قببا مزينة بمقرنصات معقدة محمولة على أعمدة رخامية وتيجان أعمدة مطلية بماء الذهب أو بأوراق مذهبة رقيقة، وأرضيات وجدران مزينة بالزليج وأسقف مرصعة بالذهب، وأبواب من الخشب النفيس مكسوة بنقوش وتشبيكات لامتناهية. كما أنهم تحدثوا عن نافورات ماء على هيئة أسود ونمور وثعابين منحوتة في الفضة الخالصة، ناهيك عن الزخرفة الخطية المنقوشة على الخشب والرخام والزليج والجص والتي تعرض أبياتا شعرية تمدح السلطان وتشيد بمأثرته. ظل قصر البديع يحتضن مباهج السلاطين السعديين طيلة ثلاثة أرباع القرن، حتى اخترق صيته آفاق البلاد بفعل الشهادات التي كان ينقلها السفراء الأوروبيون الذين كانوا يدعون إليه في مختلف المناسبات.

خرب البديع في القرن 17 م بأمر من السلطان العلوي المولى إسماعيل (1672 – 1727). بدأ الهدم حوالي 1696 ودام عشرات السنوات. وقد نقلت أنفس المواد المفككة إلى مدينة مكناس ليعاد استعمالها في بناء المنشآت الأميرية بالعاصمة الجديدة للسلطان العلوي. لم يتبق حاليا من هذه المعلمة

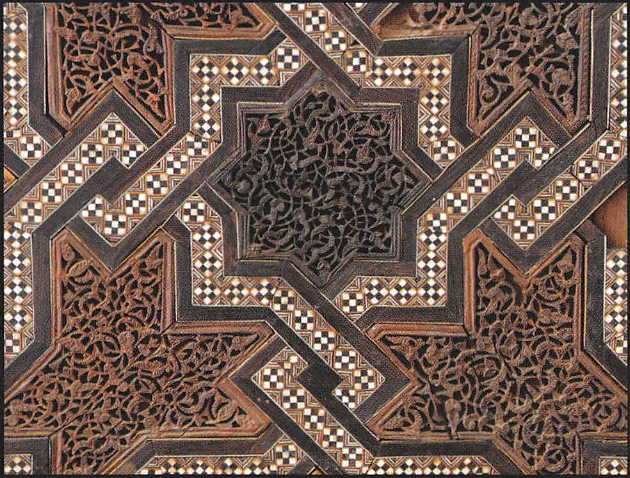

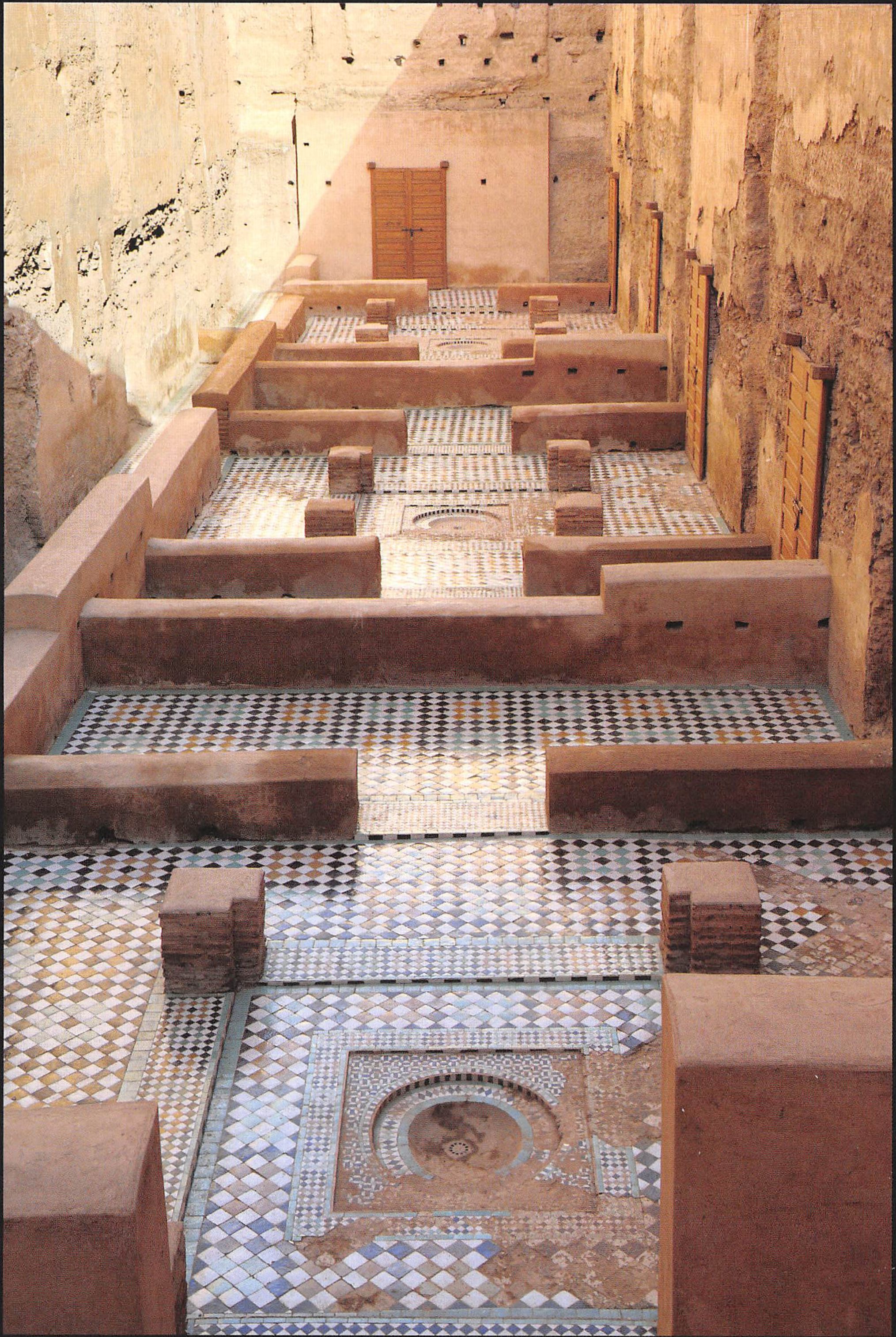

الجديرة بعالم الحكايات الأسطورية إلا أطلال أسوارها، وساحتها المركزية الفسيحة، وبقايا صهاريج وأحواض، وبعض الشواهد الزخرفية.

بني قصر البديع على مصطبة تم رفعها على جدران عالية من الطابية السميكة المقساة بالجير. ويبدو أن السبب الحقيقي وراء هذا الاختيار هو إنشاء حدائق مزهرة بأشجار باسقة في أسفل الساحة الداخلية التي تقوم مقام الفناء الكبير للقصر لتفادي حجب المرأى الأخاذ لأجنحة البلاط الرئيسية المتقابلة والمنتصبة حسب الاتجاهات الأربعة. لقد مكن اللجوء إلى هذا الحل من التوفر على شبكة مرور تحت أرضية خاصة بالخدم والعبيد، ليتحركوا وينتشروا بيسر وسلاسة في أنحاء البلاط بعيدا عن الأعين.

يبلغ طول الفناء الرحيب والمستطيل 135 م على عرض 110 م، يتخلل وسطه حوض بطول 90 م وعرض 20 م، يقوم مقام روضة مغروسة بالأشجار. على مستوى الزوايا الأربع للفناء أقيمت صهاريج ماء مستطيلة طولها 30 م مقابل 10 م عرضا. على كل جانب تصطف بنايات أنشئت بالطابية المتينة تتوسطها قباب عظيمة متقابلة بنيت على الخطوط الوسطى للفناء. أشهر هذه المرافق هي قبة الاستقبالات والمعروفة باسم «القبة الخمسينية» نسبة لقياسها البالغ خمسون ذراعا طولا. إنها بناية قامت على تصميم مربع، رفعت قوائمها بالطابية المدعمة بالجير. كان سقف هذا الجناح الملكي مغطى بقبة هرمية مسنودة باثنتي عشر عمودا من الرخام. تتوفر على ثلاثة بوابات ذات مصراعين فتحت في جوانبها الشمالية والجنوبية والشرقية.

بالداخل ينتصب إيوان بقاع القبة الخمسينية حيث يجلس السلطان إبان مراسيم الاستقبال. في الوسط هناك بهو مزين بأحواض صغيرة للماء موشّاة بزليج متعدد الألوان ونافورة ماء.

تلقب القباب الأخرى، المتحلقة حول الفناء الكبير، بأسماء ذات دلالات توحي بترفها الزخرفي وبهائها المعماري الذي لم يتبق منه إلا أطلال : إذ

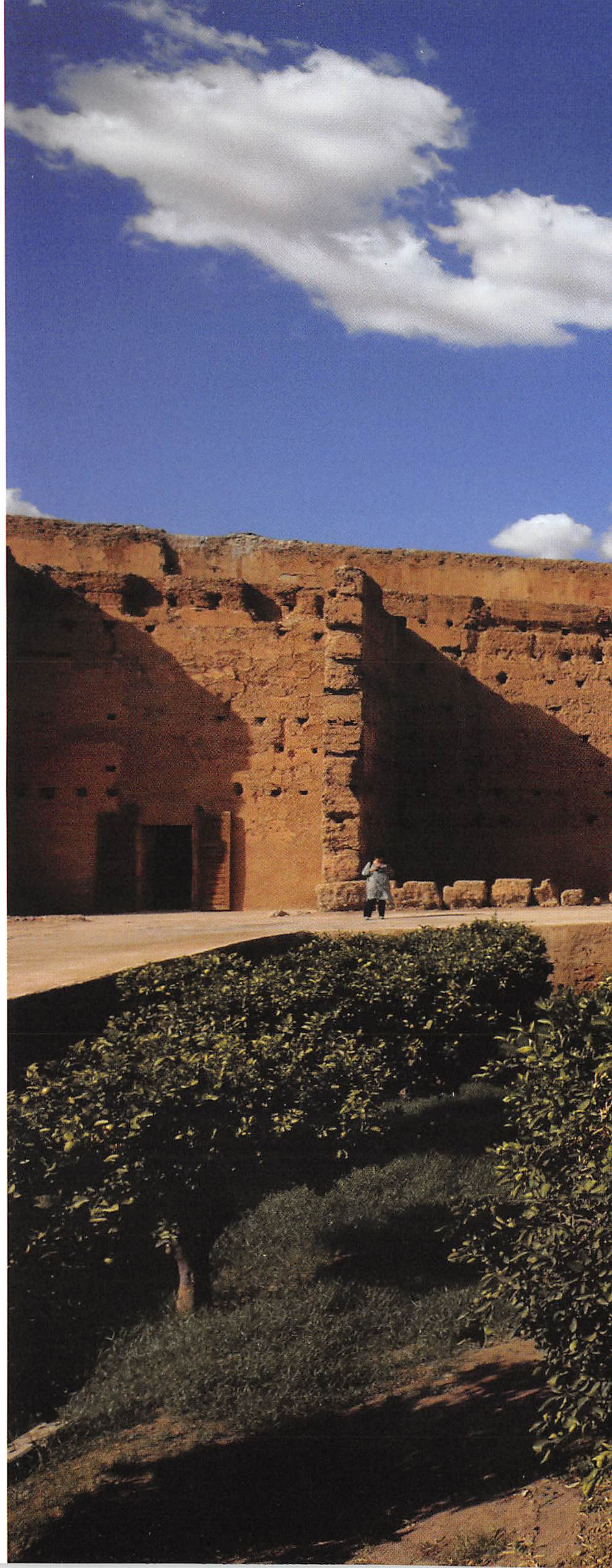

قصر البديع،
مشهد عام لبقايا الواجهة الشمالية الشرقية وحديقتها، شواهد على عصر ذهبي غني بالأحداث التاريخية الاستثنائية.

حفظت لنا المصادر هذه الأسامي من قبيل قبة الكريستال، قبة الزجاج، قبة الخيزران، وكلها أسماء تذكر بروعة وجلال المكان ومنزلة مالكيه.

قبور السعديين

« قبور الأشراف » هذه هي التسمية الفعلية لمقبرة السلاطين السعديين. كان هذا البناء الجنائزي ملحقة لمسجد القصبة، وكان يتم الدخول إليه من باب متصل من جهة قبلة المسجد الذي بناه يعقوب المنصور الموحدي. وقد سورت المقبرة وسقطت في النسيان بعد انصرام زمن حكم دولة السعديين، حتى اكتشفت سنة 1917 م من طرف مصلحة الفنون الجميلة والمعالم التاريخية، والتي قامت بترميمها وتهيئة مدخل لبنايتها. النواة الأولى لهذه المقبرة الملكية، معروف باسم قبة لالة مسعودة، وقد بناه السلطان مولاي عبد الله الغالب، مكان دفن والده محمد الشيخ، الذي توفي سنة 1557. وفي عهد أحمد المنصور الذهبي زينت هذه المعلمة التي تأوي جثامين والده ووالدته(لالة مسعودة) وأخيه، وعرفت أشغال توسعة وزخرفة. يتكون هذا الضريح ذو التخطيط المربع من مصلى صغير وقاعة كبيرة ومقصورتين صغيرتين. مزدانة بزخرفة آية في الصنعة.

أما البناء الثاني فمشكل من ثلاث قاعات تحمل أسماء «قاعة المحراب» «قاعة الإثنا عشر عمودا» و«قاعة النوافذ الصماء الثلاث»، وقد اختصه أحمد المنصور الذهبي لنفسه ليوارى به جثمانه. تتضمن القاعة الأولى محرابا تعلوه مقرصنات يتخذ شكل عقد كامل منكسر مرتكز على أربعة أنصاف أعمدة رخامية رمادية محاطة بأربعة عميدات أخرى مماثلة .

بيت الصلاة مقسم إلى ثلاثة بلاطات حددتها أربعة أعمدة رخام بيضاء. تتم إنارته بثريا معلقة غرب النوافذ الصماء الثلاث. لم تستقبل القاعة التي كانت

قبور السعديين،

مركب جنائزي ملكي يبرز مستوى الفن والعمارة على عهد السعديين.

تقوم مقام المسجد إلا قبور علوية، وخصوصا السلطان مولاي اليزيد الذي توفي سنة 1792 م. القاعة الوسطى تحتضن قبر السلطان أحمد المنصور وثلاثة من السلاطين الذين تلوه تباعا. وهي مزدانة بقبة محمولة على إثني عشر عمودا رخاميا من نوع الكرار الإيطالي الجيد. أما الأروقة المحيطه بهذا الفضاء المركزي المربع فتعلوه قباب من المقرنصات وأسقف من خشب الأرز المصبوغ والمذهب. الجدران الداخلية مكسوة بزليج مزين بتشبيكات هندسية على مستوى مترين ابتداء من الأرض ،يحده في الأعلى حزام نقشت عليه أيات قرآنية أحدهما بالزليج المحفور والآخر بالجبس. والجزء الموجود أعلى هاته الأفاريز مغطى بجبس منقوش على شاكلة خلية النحل. أما الأرضية فتأوي مقبريات رخامية مزخرفة بنقائش خطية وزخارف هندسية. وتقدم القاعة الثالثة المسماة « قاعة الحنايا الصماء الثلاث « زينة أبهى وأكثر ثراء.

اتبع هذا الضريح السعدي تقليدا دأبت عليه السلالات الحاكمة بالمغرب بدأ مع الموحدين في قرية تينمل مهد حركتهم، حيث دفن الخلفاء الثلاث الأوائل. لكن واعتبارا لما ألم بهذا الضريح من هدم ، فمن المرجح أن يكون النموذج المريني للأضرحة الملكية في شالة بالربط وفاس هو الذي ألهم السلاطين السعديين. على مستوى آخر فالتصور المعماري التي تم اعتماده يذكر، وبدون أدنى شك، بعودة قوية للفن المغربي ـ الأندلسي موسوم بلمسة محلية مغربية طاغية. وإذا كان من المؤكد أن مساهمة الموريسكيين الذين هجروا إسبانيا ماثلة، فلابد من الإشارة إلى تأثيرات أوروبية بادية مثل هيكل الأسقف المذهبة بقاعة الاثنى عشر عمودا، الشبيه بطراز فن عصر النهضة الإيطالية. وهو أمر يجد تفسيره في تشبع أحمد المنصور بأذواق فنية أخرى خلال أسفار عبر البحر الأبيض المتوسط زمن المنفى، وهو ما يبرر استعانته بمهارات صناع أوروبيين لإنجاز هذه المعالم الملكية .

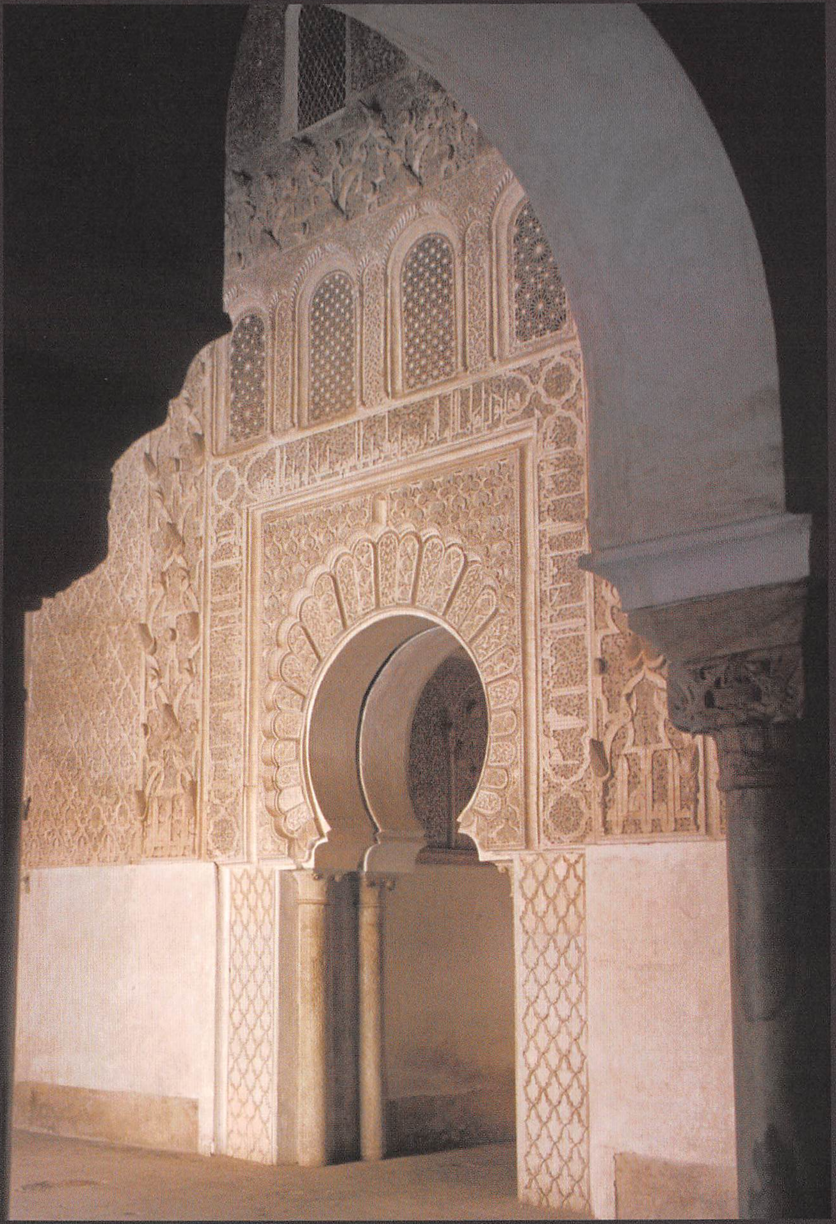

مدرسة بن يوسف،
تفصيل للزخرفة الخطية.

مدرسة بن يوسف،
الطلبة (دارسو الشريعة) في نقاش بالرواق الموازي للصحن، الصفحة المقابلة.

مدرسة ابن يوسف

تعد مدرسة ابن يوسف أكبر مدرسة في شمال إفريقيا وأحد أروع المعالم التاريخية بالمغرب. استمدت اسمها من موقعها الجغرافي بحي ابن يوسف، النواة المرابطية للمدينة العتيقة بمراكش. تذهب بعض المصادر التاريخية إلى التأكيد على أنها بنيت، على أنقاض مدرسة مرينية قديمة، من طرف السلطان المريني أبي الحسن (1331 - 1348م).

مدرسة ابن يوسف من منجزات السلطان السعدي عبد الله الغالب، فعدة كتابات تشيد بهذا العاهل وتعطي تاريخ البناء (1564 - 1565 م). اتخذت المدرسة تصميمها مربعا، قوامه صحن مركزي يحفه رواقان جانبيان تسندهما ركائز مكينة. في قلب هذا الفناء غير المسقوف، يوجد حوض مستطيل بالرخام الأبيض مخصص للوضوء. قبالة المدخل، وعلى مستوى المحور الأوسط للساحة، توجد قاعة صلاة. تتشكل من ثلاثة بلاطات يحدها خط أقواس تقوم على أعمدة تيجان ضخمة وأعمدة رخام قصيرة ومكتنزة، كلاهما من الرخام. على مستوى جدار القبلة تنفتح تجويفة المحراب على شكل قوس بعقد كامل، محمول على أعمدة رخامية صغيرة. المحراب هو العنصر الرئيس داخل المنظومة الجمالية التي ترصع الواجهة التي تعتليه. حيث تركيبة زخرفة جصية معقدة ومتوازنة رائعة الإتقان تذكر برفعة هذا المقام ببيت الصلاة، حيث يتقاطع البلاط الأوسط وبلاط جدار القبلة.

خصص الطابق العلوي للمدرسة لإيواء الطلبة حيث أعدت لهم مجموعة حجرات صغيرة رصت حول فناء صغير تحده درابيز من الخشب المخرم. يمكننا أن نستشف من خلال سعة هذه البناية، والتي تغطي 1680 مترا وتحوي 130 حجرة ، وفخامة ورونق زينتها المعمارية التي استعمل فيها الزليج، والجبس المنقوش بعناصر هندسية متقنة، والخشب والرخام، الرغبة الجامحة للسلطان السعدي في رد الاعتبار لمدينة مراكش ومصالحتها مع ماضيها الوسيطي المجيد، عقب انمحائها أمام غريمتها فاس .

القصور ودور الأعيان : آخر ملاذ للإرث المعماري المغربي – الأندلسي بمراكش

خلال القرن 19 وبداية القرن 20 ستنحصر مجمل الإنجازات المعمارية الهامة في قصور وإقامات الأعيان والموظفين السامين والأغنياء من ساكنة مراكش. تميزت هذه الإقامات بمساحاتها الواسعة ، وبذخ زخرفها، والمجهود الخارق المبذول في سبيل إنجازها. من بين هذه المنشآت الخاصة نذكر على الخصوص : قصر الباهية ودار سي سعيد ودار الباشا الكلاوي، وكلها من أرفع التحف المعمارية والفنية على صعيد المغرب.

إن استعراض مجموع هذه المساكن الفخمة الأشبه بالقصور الأميرية تظهر أن إنشاءها بقي وفيا لمبدأ البنية التقليدية التي جرى بها العمل قرونا قبل ذلك في الغرب الإسلامي. يتعلق الأمر بالتصور البسيط للدار التقليدية بالمدينة القديمة، لكن وفق مقاييس وأحجام أكبر. فكل هذه الدور تعتمد على خطاطة جعلت من الفناء المحاط بحجرات مديدة، الوحدة البنيوية الأساسية التي يتم تكرارها بحسب ثراء المالك، وكذا مساحة البقعة الأرضية المتوفرة لديه. وهو ما كان يفضي في النهاية إلى منشأة من عدة أفنية بغرف ذات أحجام ووظائف متباينة تتواصل فيما بينها برداهات وممرات ملتوية لمضاعفة الحرص على الخصوصية. تتوفر هذه الصحون على أرضية مبلطة بالزليج والرخام وبعضها له «ساقية» حائطية أو نافورة في الوسط . البعض الآخر منها له جنينة صغيرة مخضرة تتوسطها نافورة.

ومثلما هو الحال في أي دار تقليدية، هناك توزيع وظيفي لفضاء المسكن، يعتمد على الفصل بين المجال الفخم الوثير الخاص برب البيت وأسرته وضيوفه، وهو النطاق الذي يحظى بعناية كبيرة من حيث المظهر. ففي قصر

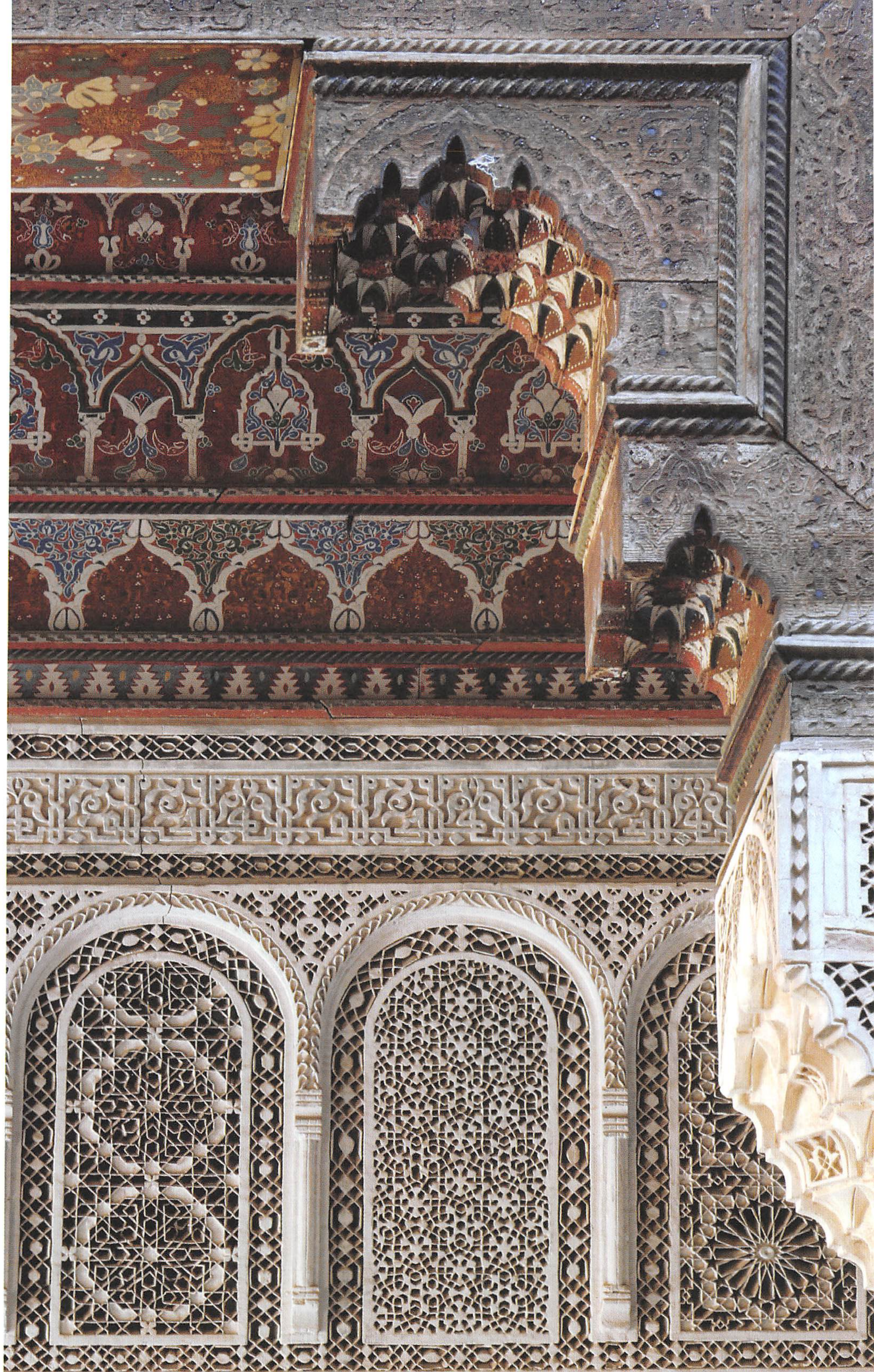

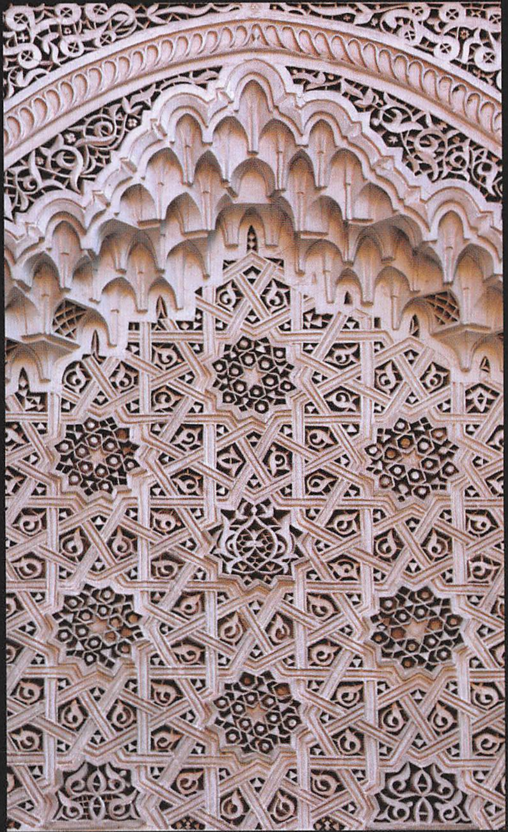

قصر الباهية،
تحفة من الفن الأندلسي– المغربي.

الباهية على سبيل المثال، نجد الرياض الصغير، والصحن الصغير والفناء الشرفي والرياض الكبير وجناح مقام الزوجة. وبما أن الأمر يتعلق بمسكن الصدر الأعظم، فالباهية تتضمن في جزئها الفاخر أيضا بنايات إدارية للموظفين وفناء للاستعراض. أما المجال الثاني بهذه الدور فهو أكثر بساطة بحكم تهيئته لأعمال وأشغال تسيير القصر. إذ يتكون من مجموع دور صغيرة (دويرية) ذات مظهر بسيط بأفنية صغيرة وحجرات ضيقة.

بالإضافة إلى الضخامة والرحابة، تلتقي هذه البنايات في السمة الجمالية المعتمدة في دبجتها والتي تجعل منها بحق تحف معمارية على شرف الفن المغربي الأندلسي. فسواء في قصر الباهية، أو دار سي سعيد أو رياض دار الباشا، كل هذه القصور اعتمدت على ما تبقى من مخزون هذا الفن الأصيل بالمغرب. حيث بلغت الزخرفة حد الإفراط : فقد استعمل فيها، الرخام والزليج المتعدد العناصر الهندسية والألوان والقباب المصبوغة والمذهبة بأشكال هندسية متشابكة، وصور نباتية منمنمة والأسقف المقرنصة الجصية والخشبية وكتابات منقوشة ودرابيز مختلفة والزجاج الملون (العراقي). وللوقوف على هذا الأمر يكفي زيارة قاعة الانتظار في قصر الباهية وملحقاتها والحجرات الخاصة بالطابق العلوي لدار سي سعيد لتنسم الروح التي سكنت فن القرن 19. غير أنه من الضروري أن نسجل هنا بداية دخول بعض التأثيرات الأوروبية التي انضافت إلى الموروث التقليدي وشكلت معه وحدة متجانسة. والمثال الأوضح على ذلك نجده في رياض دار الباشا، حيث استعمل لتعلية الرواق أعمدة ذات حزوز من الطراز الأوروبي (ذات الأصل الإغريقي الروماني) أضف إلى ذلك التلبيس الخشبي المثلث للواجهات الخارجية للنوافذ، وهما تأثيران منحا البناية لمسة خاصة .

دار سي السعيد،
زخرفة حديثة مقتبسة من
النمط المغربي-الأندلسي.

إن هذه الجولة المقتضبة التي قمنا بها في ثنايا ماضي مراكش ومعالمها التاريخية تبقى غير مكتملة ولا تفي هذه المدينة كامل منزلتها وأتم اعتبارها. فالعديد من المنجزات الهامة لم يتسن ذكرها : مثل مسجد بن صالح المريني والمركب السعدي في المواسين وباب دكالة وجناح المنارة العلوية ناهيك عن عدة زوايا ومساجد وفنادق وأبواب حضرية علوية. كما لم نتطرق للنظام العمراني الذي نظم المدينة، وجعل منها إحدى نماذج المدن العتيقة الأكثر تمثيلية للعمران الإسلامي على غرار فاس والقيروان والقاهرة وحلب.

إن الصورة المختزلة جدا التي قدمناها من خلال الأركيولوجيا والعمارة وتاريخ الفن تتيح ملامسة الرصيد الثقافي المادي لهذه المدينة، وكذا الدور الأساسي الذي لعبته على الصعيد الوطني، وعلى مستوى غرب البحر الأبيض المتوسط وإفريقيا ما تحت الصحراء، في تبادل المعارف وبلورة التأثيرات الفنية والتمازج بين الثقافات المتباينة، المحلية والإقليمية. إن مراكش، تعد في الآن نفسه، مدينة أمازيغية وعربية وصحراوية وأندلسية وإفريقية، انتصبت طيلة تاريخها كقلب نابض للمغرب وللإمبراطوريات التي قادتها. ومما لا شك فيه أن التنوع الثقافي الذي هو السمة المميزة للبشرية يجد في مثال مدينة مراكش أحد أسمى تجلياته وأروع نجاحاته.

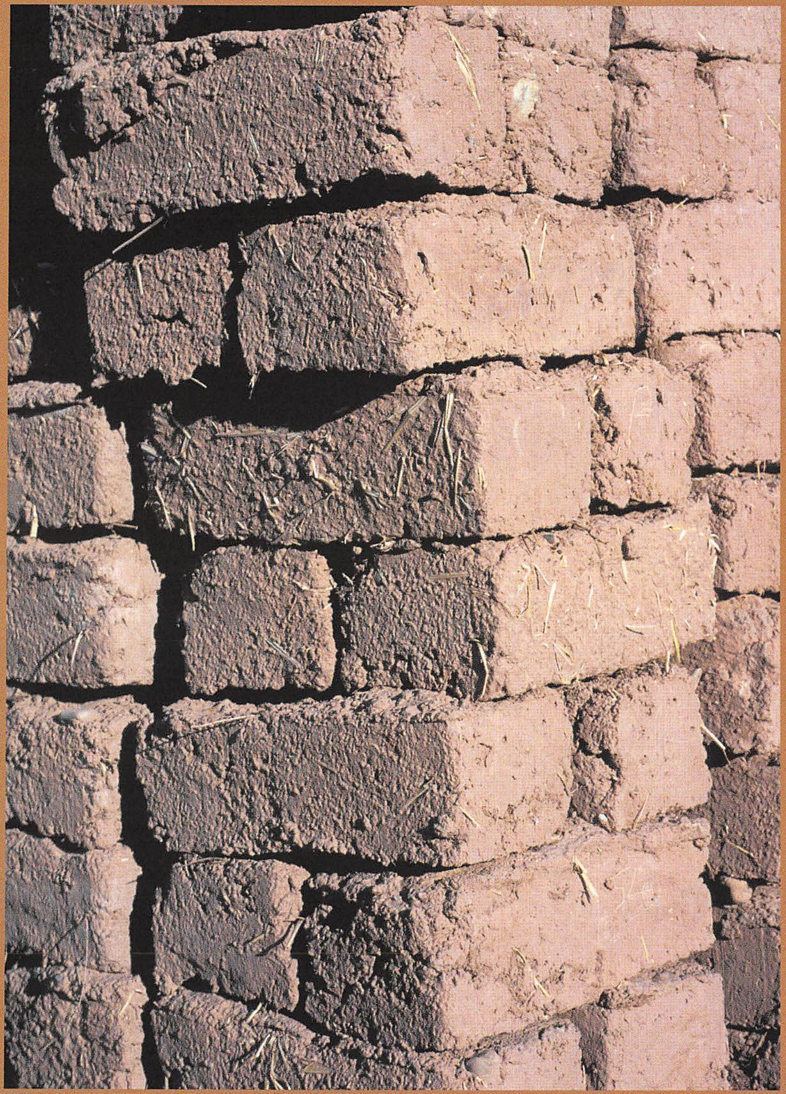

آيت بن حدو

تراث ثقافي مغربي

موقع للتراث العالمي مشيد بالتراب

آيت بن حدو

موقع للتراث العالمي مشيد بالتراب

محمد بوصلح
محافظ التراث وباحث أنثروبولوجي

« نحن هنا إزاء تقليد معماري حقيقي - وكبير - لا تفسر الوحدة العميقة لغنى أشكاله بالضرورات الثابتة للحياة في الواحات فقط، ولكن أيضا بتاريخ طويل ومعقد منسي من طرف الناس ومتجاهل من طرف النصوص لكنه بقي مكتوبا في أشكال البناء نفسها»

هنري تيراس، 1938

تشكل الواحات المتاخمة للصحراء مجالا للحياة ذو أهمية جوهرية. مرد ذلك للموقع الجغرافي الخاص، وللظروف المناخية، وربما لالتقاء تقاليد محلية بتأثيرات أجنبية. في هذه الأودية يمكن الاستدلال على التمازج بين سكان من أصول متباينة (أمازيغية، يهودية، عربية، سودانية) منذ قرون. إن هذا التشكل الاجتماعي ما هو إلا نتاج صيرورة طويلة للهجرة، والاندفاعات الإثنية، والتاريخ المضطرب، والإكراهات الاجتماعية المختلفة التي ولدت معمارا أصيلا تتراءى سماته الأكثر أصالة في القصور، والقصبات والمخازن الجماعية.
تمثل القرى الجماعية أو القصور (مفرد، قصر، «إغرم» باللغة الأمازيغية) تجمعات تتشكل من بنايات ومجالات عمومية وخاصة (ساحات عامة، مساجد، محارف الحدادة، مداخل، دور سكنية، إلخ)، والتي تقدم نفسها في شكل بنية متراصة ومغلقة ومحاطة بسور لأسباب أمنية وسوسيو-إقتصادية. للقصور باب أو بابان للدخول ومراقبة المرور. كما

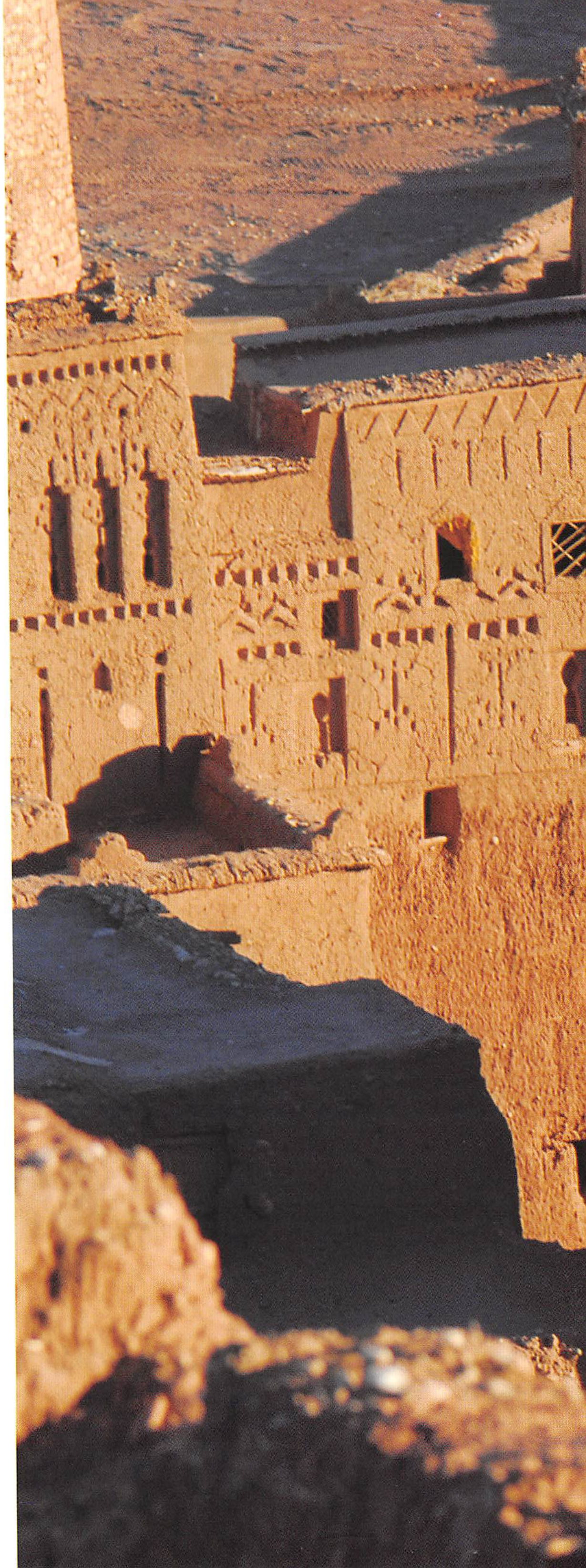

تتوفر بعض القصور على أربعة مداخل، تبعا لدورها السياسي والإقتصادي (مثل قصر تاوريرت بورزازات وقصر تامنوغالت بواحة مزڭيطة، بوادي درعة، إلخ).

إن قصبات الأعيان (مفرد، قصبة، «تيغرمت» باللغة الأمازيغية)، وهي مساكن-قلاع-مخصصة للعائلة الواحدة مبنية في أماكن إستراتيجية حتى يتسنى الدفاع عنها، هي إحدى علامات التحول الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الذي عرفته المنطقة، وظهور السلطة القيادية في منتصف القرن التاسع عشر. يمكن لهذه البنايات ذات النمط المعماري المتميز أن تكون معزولة أو مجمّعة، وهي ذات أشكال منتظمة بأبراج في الزوايا. وتتكون من عدة طوابق وتتوفر على أسطح وعلى فضاءات داخلية منتظمة حول صحن مركزي محاط بأروقة ذات أقواس. تعكس هذه المكونات المعمارية الانسجام التام بين الإنسان والاقتصاد والبيئة.

آيت بن حدو: درس في المعمار

يمثل قصر آيت بن حدو موطن ذاكرة محملة برسائل ثقافية ذات قيمة لا يمكن تقديرها. إنه نموذج لتلك القرى الجماعية المبنية بالتراب المدكوك وكتل اللَّبِن (الآجر المجفف). إنه تعبير عن تصور وشكل أصيل للحياة. ولم تنفك بنياته المختلفة والمنجزة وفق تقاليد أصيلة، تدهش زوّار المنطقة كما تلهم أيضا المؤرخين، وعلماء الاجتماع، والمهندسين المعماريين... غير أن المنشآت المبنية بالتراب المدكوك هشة والعودة للتقنيات المحلية في البناء صارت صعبة. فصيرورة الحداثة طالت كل المجالات وأضحى استعمال مواد يقال بأنّها حديثة يفرض نفسه. ثم إن هشاشة التراث المعماري للقصر زادت من تكريسه الظروف المناخية للمنطقة وكذا ضغط الزوار وانعدام الوعي بأهمية

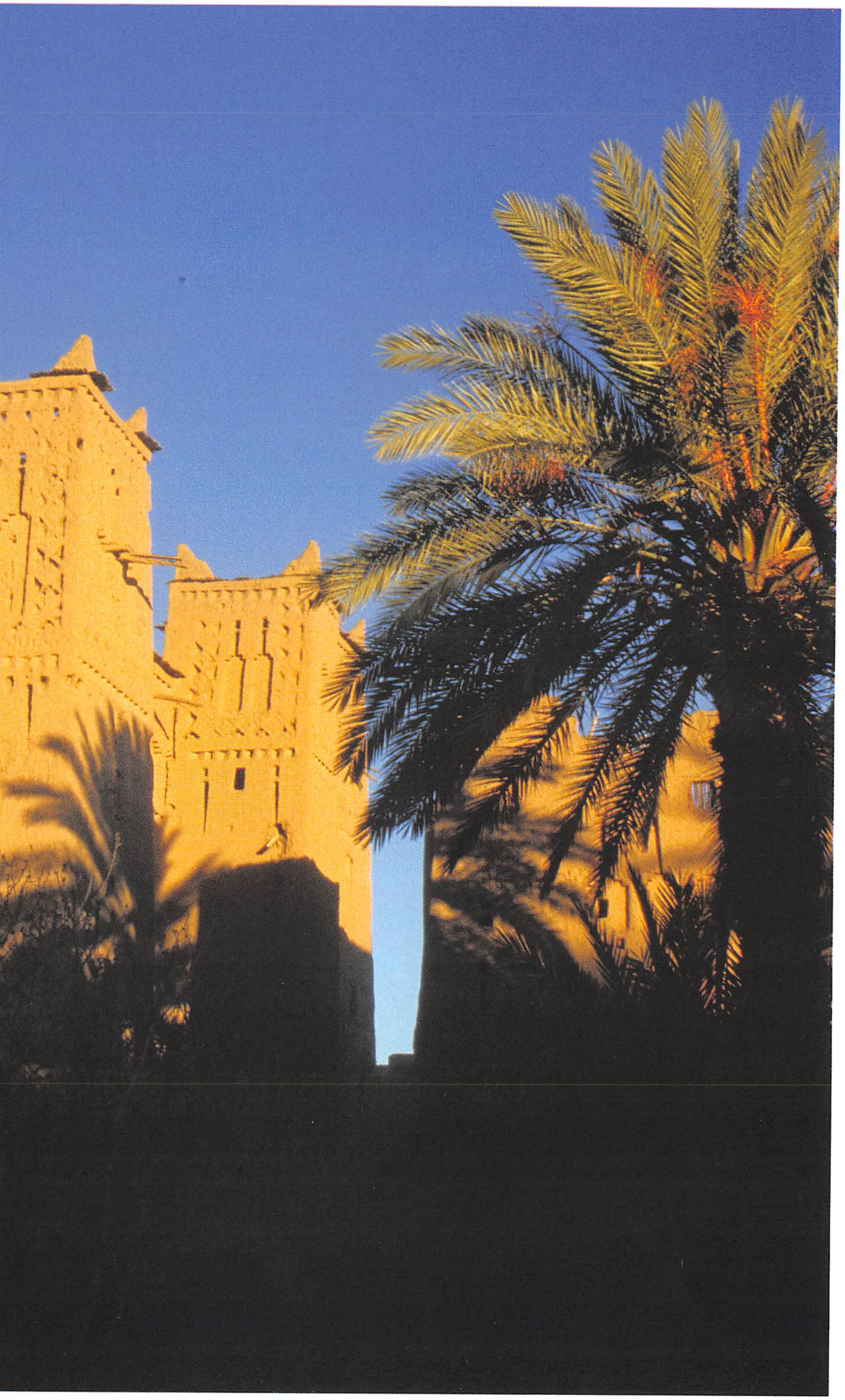

تيغرمت،
شكل مربع بأربعة أبراج في الزوايا.
يتميز هذا النمط من البناء بثراء زخارفه التجريدية والهندسية.

المواقع والفضاءات الثقافية. مما يفرض ضرورة تدخّل عاجل للحفاظ على الآثار المادية للساكنة.

يجسّد البناء بالتراب المدكوك في قصر آيت بن حدو المهارة، وكيفية تصور الفضاء والزمان، والطبيعة والعلاقات الإنسانية. وهو نموذج للمنشآت المبنية بالتراب بحسب تقنيات محلية، تتجلى فيها استمرارية تاريخية يتداخل فيها الفن بما هو إجتماعي، وثقافي وروحي.

تعكس هذه المنشآت المعمارية وفرة الأشكال وثراء الأساليب الزخرفية، والتنظيم العقلاني للفضاء. فقصر آيت بن حدو يعد متجانسا إلى أبعد الحدود مع طبيعة المنطقة شبه الصحراوية وينتصب شاهدا على علاقة الإنسان بمحيطه البيئي بصفة عامة. فالتجمع السكاني يترجم الصلة الحميمية والصراع الدائم بين الإنسان ومجاله. وعلى مستوى استغلال هذا المجال، فقد تم التنسيق بين الأراضي المستغلة في الفلاحة والمجال المسكون بالشكل الذي يمنع ضياع شبر واحد من الأرض إلا إذا اقتضته ضرورة لا تقل حيوية.

أما المنازل السكنية، فإنها تعتمد على تكيف صارم مع قساوة الظروف الطبيعية (الحرارة والبرودة) ومع طبيعة الظروف البشرية (الأمن والمنافسة الجهوية على المجال). لذلك نلاحظ أن الأماكن التي أقيمت بها تلك البنايات تأخذ بعين الاعتبار هذين العاملين (مواقع إستراتيجية للمراقبة، قريبة من موارد البناء، هندسة ملائمة لأحوال الطقس...). كما يراعى في ذلك قلة الأراضي الصالحة للزراعة والحرص على عدم إتلافها. كل هاته العوامل أدت إلى ظهور سكن متكتل وبنايات عمودية، تلتصق فيها المنازل لتحتمي ببعضها البعض ولتزداد درجة صلابتها ومقاومتها للظروف المناخية، كما يتم استعمال المواد المحلية في تشييد هذه البنايات مما يجعلها مندمجة مع الطبيعة ومع الموارد الاقتصادية

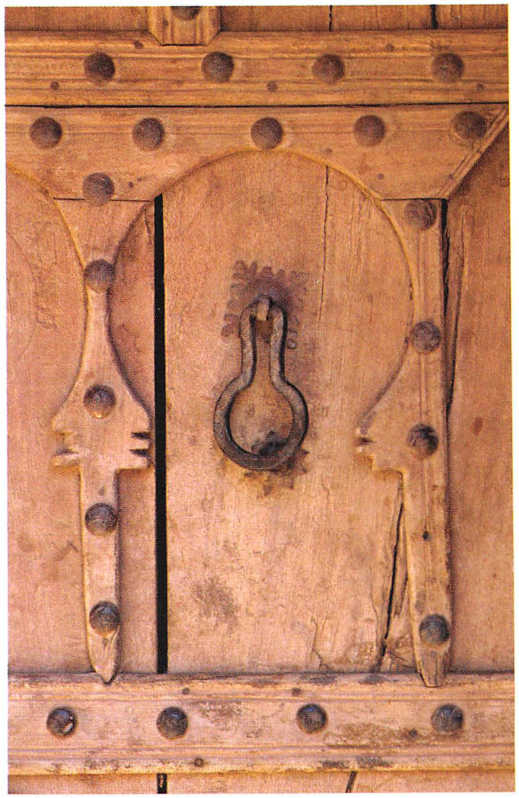

دور وقصبات،
أبواب هذه البنايات التقليدية تحف حقيقية تشهد على فن محلي ذي قيمة عالية.

المتاحة محليا: التربة، خشب النخيل والصفصاف، القصب، الحجارة، التبن، شجر الغار... وقد رافقت هذه الأشكال العمرانية بروز مهن خاصة، حيث تخصصت فئات اجتماعية في البناء بالتراب وأخرى في الزخرفة. ولكل منها مميزاتها الثقافية. ونشير كذلك إلى أن هذا السكن يوفر مناخا اجتماعيا متميزا يعتمد على التماسك والتآزر والجوار، وهذا ما يغذي في كل ساكن داخل القصر روح الجماعة والاقتناع بكونه لا يعيش لنفسه بل من أجل الجماعة التي تضمن له القدرة على التكيف مع مجاله البيئي.

يشكل قصر آيت بن حدو، وهو شاهد كبير على البناء بالتراب المدكوك، تركيبا معماريا، بمعنى أن البنايات التي لها وظائف مختلفة تتواجد في نفس القصر (دور سكنية، قصبات، حصن، مخزن جماعي، خان للقوافل، إلخ). واليوم يبحث هذا التجمع والمرتّب تراثا عالميا، عن التوازن المفقود بين الطبيعة والثقافة حتى يتسنى للسكان التعرف على معالمهم السوسيو-ثقافية والرمزية.

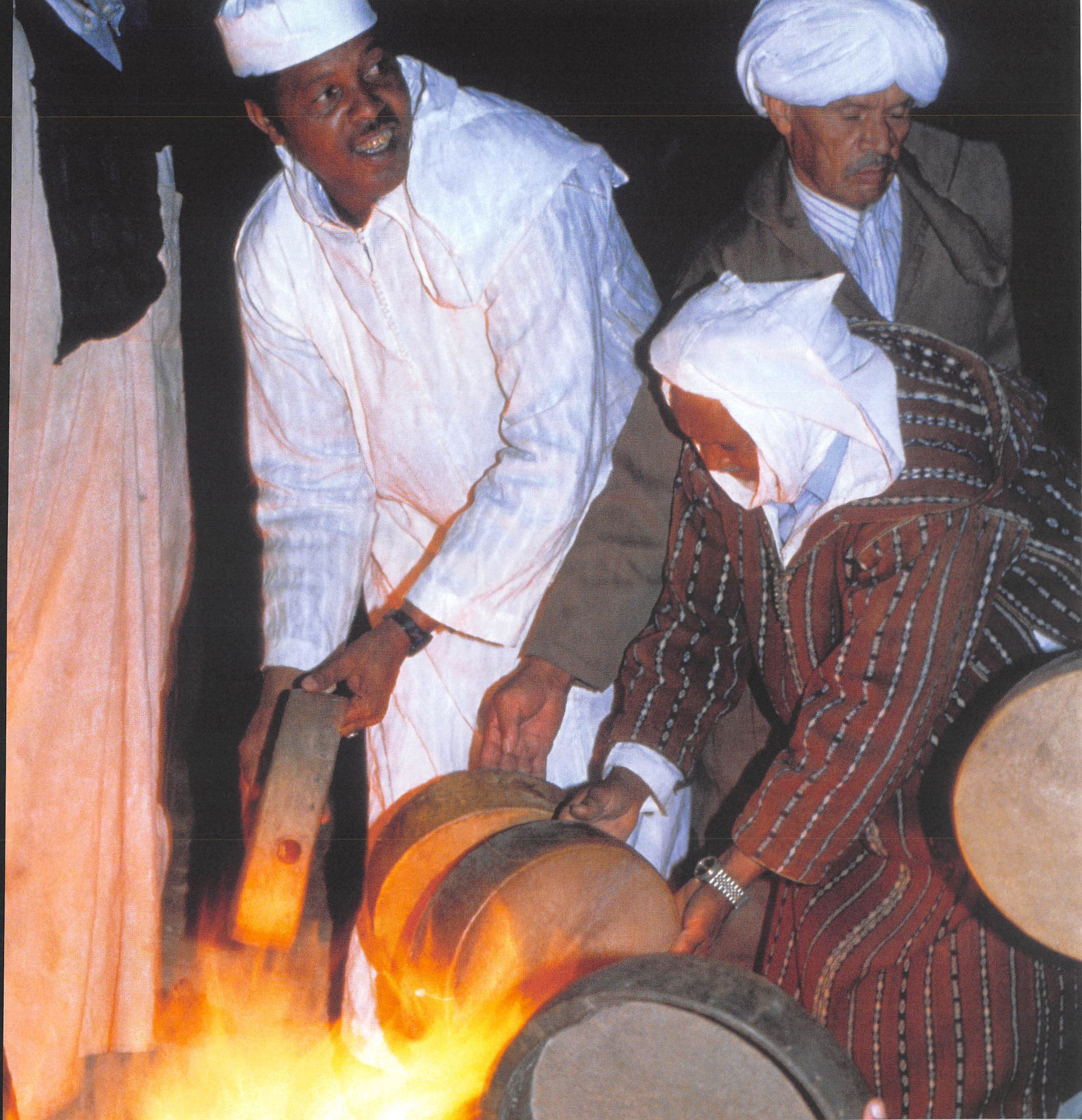

أحواش،
أصوات «تالونت» ما زالت تضبط إيقاع
حياة ساكني القصر.

معطيات اجتماعية - زمنية

نظرا للموقع الاستراتيجي لقصر آيت بن حدو على أسفل السفح الجنوبي للأطلس الكبير بوادي أونيلة، فقد عرف عدة أحداث تاريخية واجتماعية لازال الكثير منها لم ينفض عنه الغبار. يعود تاريخ القصر حسب نص الترتيب على لائحة التراث العالمي إلى القرن الثامن عشر. لكن الرواية الشفوية التي تعتبر أهم مصدر للمعلومات في غياب النصوص المكتوبة، تقول بأن تاريخ القصر أقدم من ذلك. وحسب هاته الرواية، فإن الحصن المتواجد في أعلى التلة، إغرم-ن-إقدارن (مخزن الخزفيين باللغة الأمازيغية)، هو أقدم بناية بالموقع. وبحسب الدراسات الإثنو-أركيولوجية المنجزة ما بين سنتي 2000 و2005 من طرف باحثين مغاربة وبلجيكيين، فهذا التحصين يعود إلى القرن 12 (عصر الموحدين). وقد عبر إبن تومرت وعبد المومن وادي أونيلة إبان غزو حصن تازاغورت في درعة الوسطى. غير أن هناك إسم آخر، مازالت تحفظه الذاكرة المحلية، وهو لشخص يسمى « بن حدو » الذي يحمل القصر اسمه يعتقد بأنه كان يسكن المنطقة خلال العهد المرابطي (القرن 11 الميلادي). من جهة أخرى، كان الموقع أحد محطات طرق القوافل التجارية التي كانت تربط بلاد السودان (غاو، تمبوكتو، دجيني، إلخ) بمراكش عبر وادي درعة وممر تيزي-ن-تلوات.

هجر سكان آيت بن حدو القصر خلال مرحلة غير معروفة، لمدة سبع سنوات، بعد أن تم تدميره من طرف قائد يدعى « أزروال » (رجل ذو عينين زرقاوين)، وهو حدث لا يؤكده أو ينفيه أي نص تاريخي أو أبحاث أثرية. ربما حدث ذلك في عهد السلطان محمد الرابع حين كلف القايد أزروال الرحماني بجمع ضرائب جنوب الأطلس باسم السلطان، كما ذكر ذلك روبير مونتاني.

وخلال نهاية القرن التاسع عشر مر السلطان العلوي الحسن الأول بالقصر خلال «حركته» بين سنتي 1893 و1894 في طريق عودته إلى مراكش عبر قمة تيزي-ن-تلوات. واستغلت عائلة الگلاوي هذه المرحلة لتقوية نفوذها بمنطقة الجنوب الشرقي وبآيت بن حدو خاصة وذلك بواسطة علاقات المصاهرة مع بعض الأسر، حيث تزوج المدني والتهامي وحاسي الگلاوي ثلاث من بنات عائلات قيادية بقصر آيت بن حدو.

أما سكان القصر، فهم من عشيرة آيت عيسى (خمسة أخماس) وعشيرة آيت بن حدو (خمس واحد). وتنتمي هاته العشائر إلى قبيلة آيت زينب التي تنتمي بدورها إلى إتحادية آيت واوزكيت. وكان هؤلاء السكان ينقسمون إلى عائلات أمازيغية، وحراطين (عناصر سمراء) وبعض العائلات اليهودية.

يحتفل السكان كل سنة بموسم الولي الصالح سيدي علي أو عمر (السبت الثاني من كل شهر يونيو بحسب التقويم الفلاحي) ويحضر هذا التجمع آيت بن حدو وسكان القرى المجاورة.

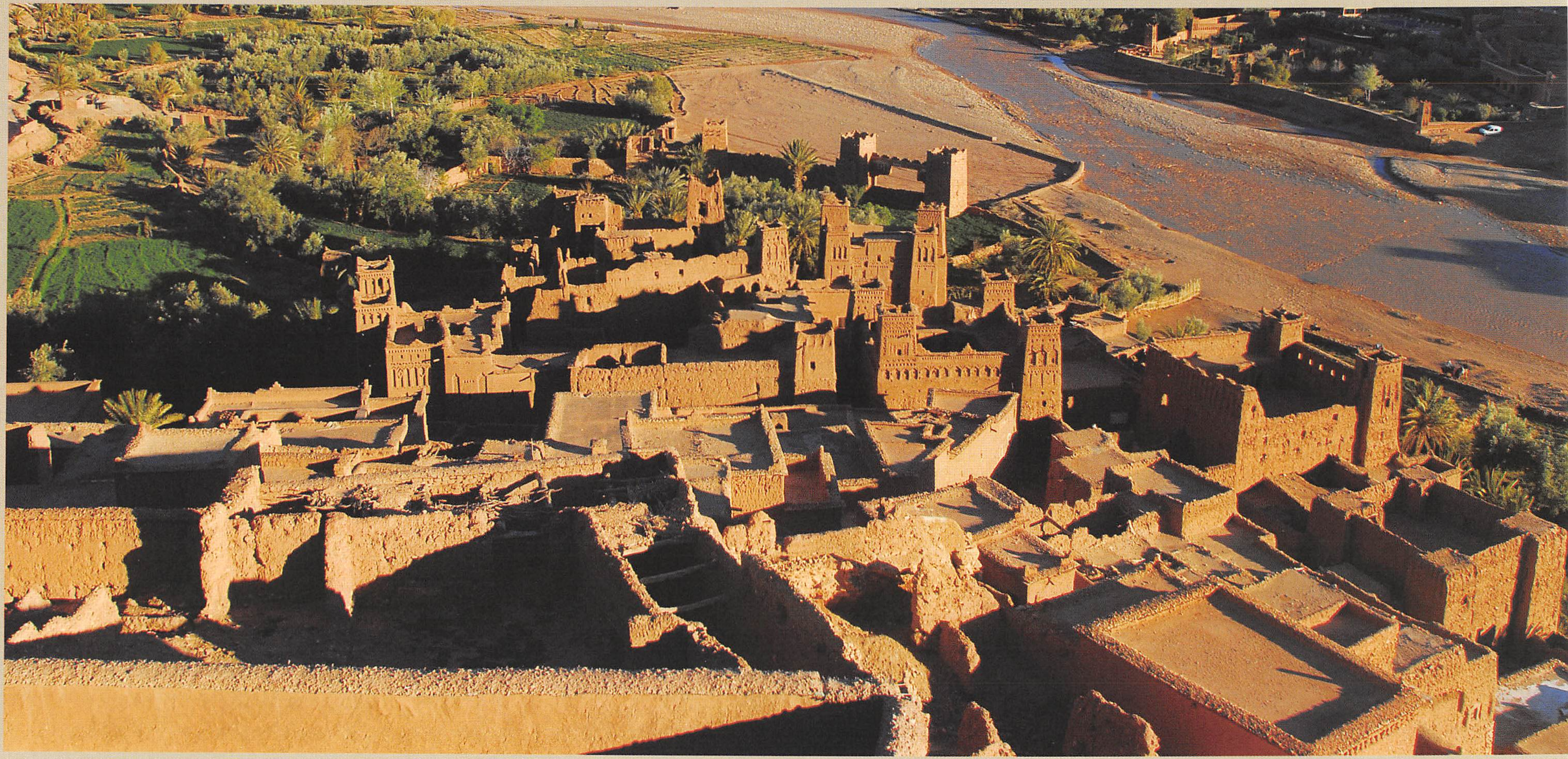

تقديم القصر

اكتسب موقع آيت بن حدو الذي يقع على بعد 30 كلم شمال غرب مدينة ورزازات، والذي يدخل ضمن المجال الترابي للجماعة القروية آيت زينب، دائرة أمرزݣان، إقليم ورزازات، صيتا وطنيا ودوليا خاصا. ونظرا لبنائه بالتراب المدكوك كلية وفوق مجال تلي معلّق، فإن الموقع يبقى الصورة الأكثر تداولا للمواقع الأثرية للجنوب الشرقي للمغرب. إذ نجدها على الملصقات، ووصلات الإشهار، والبطاقات الهاتفية، إلخ.

ويتخذ القصر شكل تجمع سكاني معماري متراص ومحصن ومنعزل فوق هضبة مرتفعة لأسباب أمنية وسوسيو-إقتصادية مرتبطة فيما مضى بالحياة الجماعية قصد استغلال حوض الوادي والأراضي الزراعية المجاورة.

وجل البنايات من مساكن وقصبات تم بناؤها حسب تقنية القولبة وكتل اللِّبن. وتكمن ميزتها في اندماجها في وسط طبيعي واجتماعي محدد. وأساليب تزيينها هي ثمرة خيال بنّائيها. ويمكن تمييز فضاءين لهذا المعمار الذي يحمل قيم الأصالة والإبداع والتكيّف وله سمات مميزة: فضاءات خاصة (خصوصا الدور السكنية) وفضاءات عامة. وتتمثل أهم مكونات المجال العام للقصر في:

- المسجد، بدون مئذنة، الذي تم تشييده وسط منازل القصر والذي يحتوي على بئر وقاعتين، إحداهما لتدفئة الماء والأخرى للوضوء، ثم هناك بيت الصلاة ومدرسة لتعليم القران؛

القصر،
منظر انطلاقا من التحصين
مع الأبراج المنضدة للقصبات
الست المبنية داخل الإغرم.

- الساحة الجماعية التي تحتضن، بمناسبة الأعياد والمناسبات العائلية (زواج، ختان، حصاد...)، الأهازيج والرقصات الشعبية، خاصة رقصة أحواش؛
- بيادر الدرس، وهي أمكنة جماعية خاصة بدرس الحبوب وتوجد خارج أسوار القصر ويتم استغلالها من طرف كل سكان القصر؛
- كنيس داخل القصر؛
- المخزن الجماعي (إغرم-ن-إقدارن) المتواجد في أعلى رابية القصر على علو 1300 م والذي تحيط به آثار أسواره، وقد تم ترميمه من طرف مركز صيانة وتوظيف التراث المعماري بمناطق الأطلس والجنوب؛
- مكان استراحة القوافل التجارية (خان) شرق الحصن.

يتخذ إغرم شكلا غير منتظم بفعل الطوبوغرافية، وقد كان محصّنا ومحاطا بسور يتفاوت طوله (بين 3 و6 م)، بأبراج مراقبة اختفت اليوم. وكان الولوج إلى القصر والخروج منه يتم عبر بوابتين فقط وذلك قصد مراقبة التحركات.

يتكون القصر بصفة عامة من فضاءين متميزين ولكنهما متكاملين : فضاء عام وفضاء خاص. وبخصوص التقسيم الفضائي للدار السكنية، فهي تنتظم حول فناءات أو صحون، حيث إن الأروقة والأقواس هي هيكل المحور الأساسي الذي تتشكل من حوله مختلف الفضاءات. تؤدي هذه الصحون ذات المساحات الصغيرة دور كوة نور تؤمن الإنارة والتهوية. ينفتح المدخل الرئيسي للدار على بهو مظلم مخصّص للبهائم ولتخزين الأدوات. وتخصّص الطوابق لأعضاء العائلة، والسطح معدّ للتجفيف وللنوم في الليالي الحارّة من فصل الصيف.

يعود صيت القصر، بنسبة كبيرة، إلى السينما. فقد ألهم عدة مخرجين سينمائيين منذ سنوات الستينيات، وكان مسرحا لتصوير عدة أفلام نذكر منها:

دور وقصبات،
كوات ضوء تتشكل من حولها
الفضاءات الداخلية لهذه
البنايات التقليدية.

«لورانس العرب»، «سدوم وعمورية»، «المسيح الناصري»، «جوهرة النيل»، «المصارعون»، «مملكة السماء»، «أمير فارس». وفي الوضع الحالي، يرتبط النشاط الأكثر هيمنة بآيت بن حدو بشكل لصيق بالسياحة. إن تسجيل القصر على لائحة التراث العالمي قد لعب دورا محرّكا في إعادة لفت الانتباه للموقع، وكان سببا في توافد عدد كبير من السياح والشركات السينمائية وظهرت عدة دكاكين في الموقع المرتب وفي قرية إيسويض الجديدة. وظهرت فنادق، ومقاهي أيضا. وبقي النسيج نشاطا تقليديا تمارسه النساء في إطار عائلي.

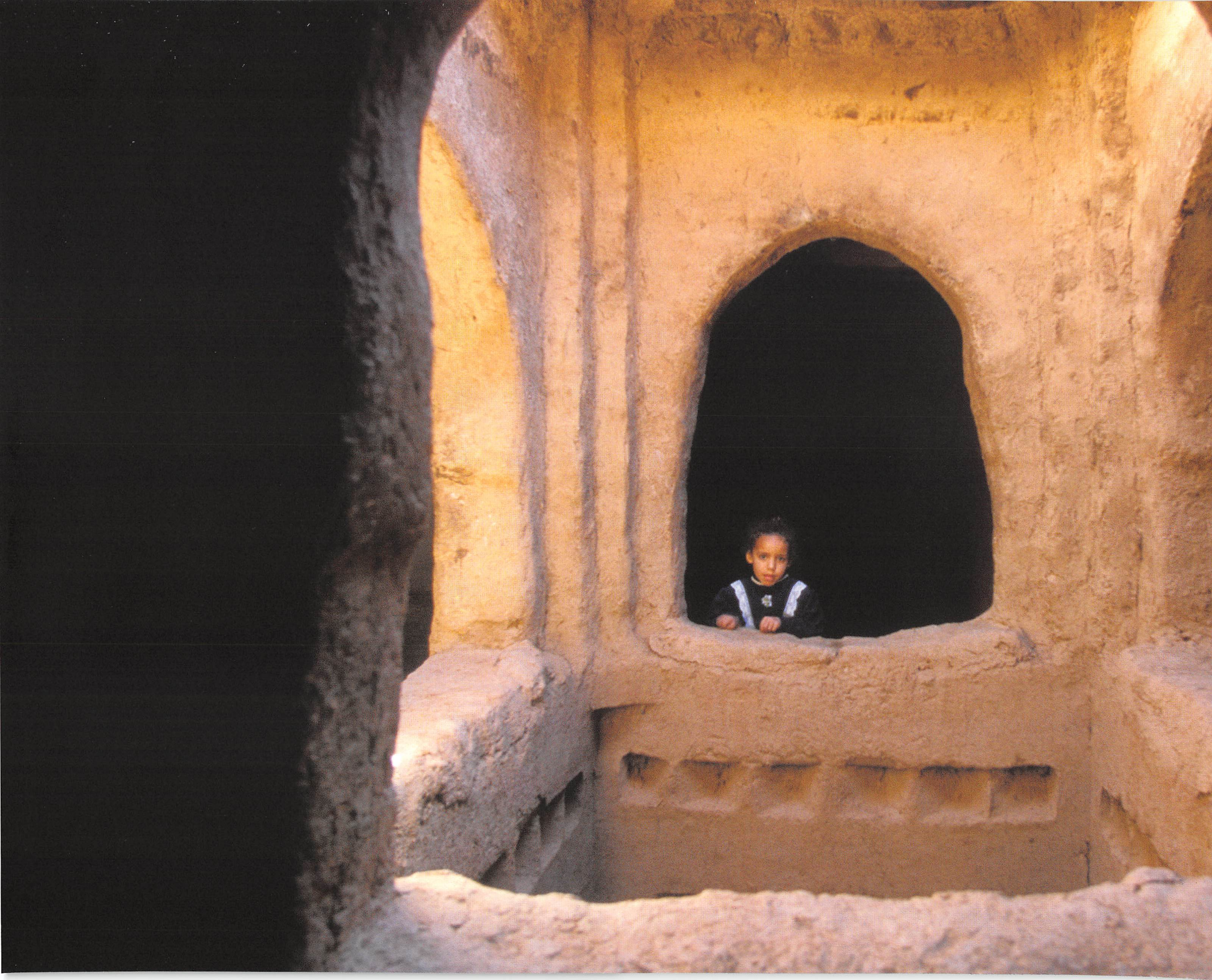

آيت بن حدو والقيم العالمية الاستثنائية

بحسب الاتفاقية المتعلقة بحماية التراث العالمي الثقافي والطبيعي، أدرج قصر آيت بن حدو ضمن قائمة التراث العالمي منذ 1987. ويكرس هذا التصنيف ضمن هذه القائمة، القيمة العالمية الاستثنائية لتراث ثقافي ينبغي حمايته لفائدة كل البشرية. وتتميز مكوناته المعمارية المختلفة والمبنية بالتراب المدكوك بقيم هندسية وجمالية قل نظيرها في المناطق المتاخمة للصحراء من المغرب. وتحتضن كل فضاءاته بنايات بالغة الأهمية بالنسبة إلى الثقافة المغربية.

سجّل قصر آيت بن حدو في قائمة التراث العالمي لأنه يستجيب للمعيارين VI وV (المعايير التوجيهية التي يتم تطبيقها في اتفاقية التراث العالمي. هذه التوجهات تحدّد عشرة معايير تتحكم في إدراج معلم ما ضمن التراث العالمي. تندرج ستة معايير ضمن التراث الثقافي وأربعة ضمن التراث الطبيعي).

المعيار VI : قصر آيت بن حدو، وهو مثال بارز لقصور الجنوب المغربي التي تجسد المبادئ النموذجية للبناء التي نراها في وادي درعة، وتودغة، ودادس وسوس.

المعيار V : قصر آيت بن حدو، هو مثال للمساكن التقليدية المبنية بالتراب المدكوك، وهو يجسد ثقافة صارت هشة أمام التحولات السوسيو- إقتصادية والثقافية والتي لا يمكن تلافيها.

يعتبر قصر آيت بن حدو، مقارنة بقصور الجنوب الشرقي، من أهم التجمعات التاريخية التي حافظت على طابعها المعماري الأصيل على مستوى مواد وتقنيات البناء وكذلك الأشكال الهندسية المتنوعة. فاستعمال المواد وتقنيات

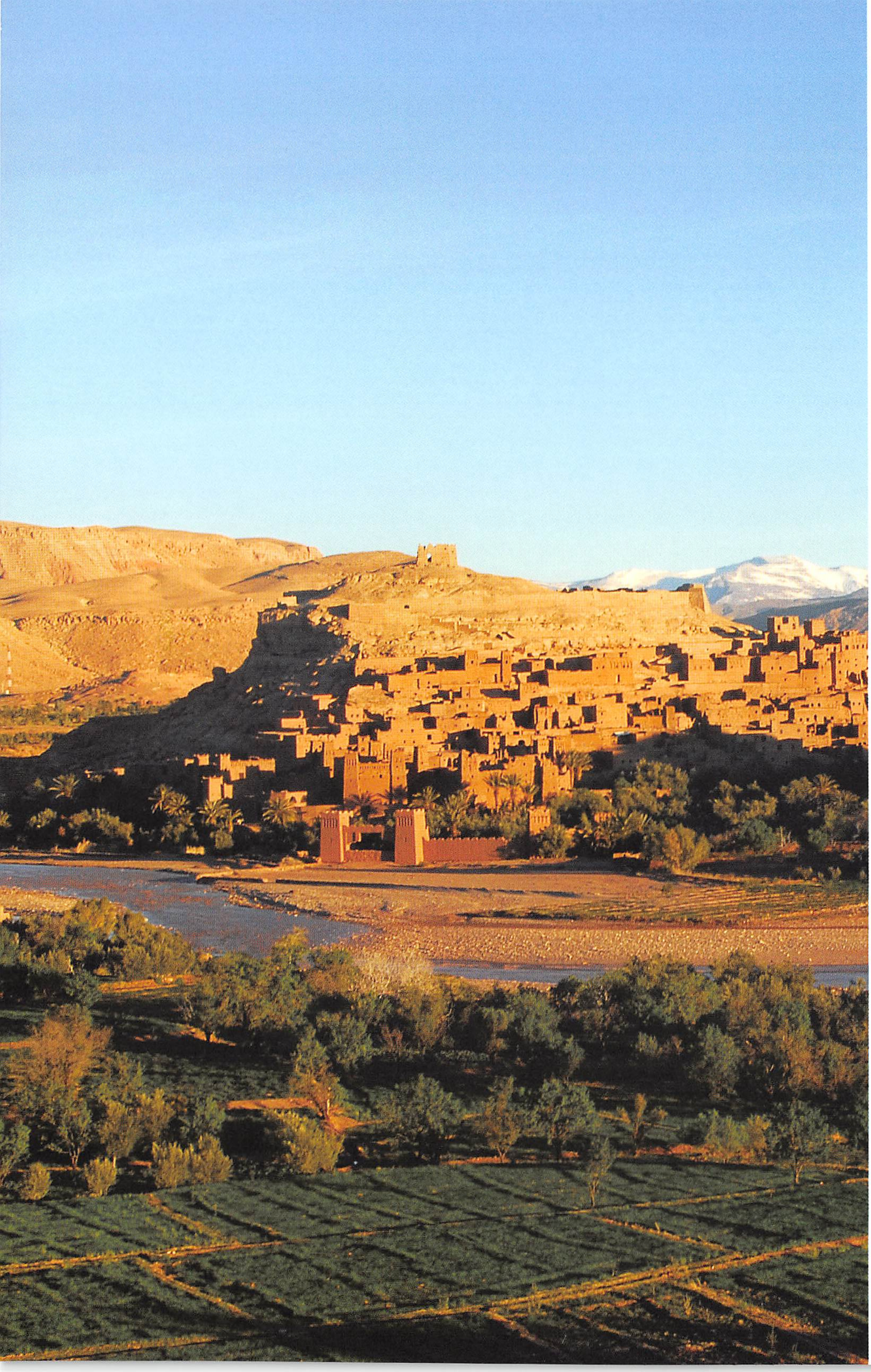

البناء تشهد على مهارة فعالة وعلى تمكّن وتكييف عدة مواد مع الشروط المناخية القاسية.

يتمتع التراب بمزايا لا يمكن تقديرها بالنسبة للاقتصاد، والتكنولوجيا والبيئة. وهكذا فالتراب ومختلف مواد البناء المحلية موجودة بوفرة في المنطقة، الأمر الذي لا يستدعي لا شراء ولا نقل المواد. ثم إن هذه الوفرة لا تتطلب تحويلا صناعيا، ممّا يوفّر اقتصادا مهما في الطاقة.

إن توفر السكان على موادّ موجودة في الجوار قد سمح لهم بصياغة هذه المواد بمجهودهم وأفكارهم وإنتاج تحف هي التعبير الأكمل عن عبقريتهم. كما أن التراب، وهو مادة مستعملة منذ عهود سحيقة، يمنح تماسكا للبنايات ويؤمّن أفضل عزل للحرارة. فالمعمار المبني بالتراب يحافظ على الرطوبة في الصيف ويقاوم البرودة في الشتاء.

بالحفاظ على الطراز المعماري، تتناغم البنايات المشيدة بالتراب المدكوك مع الوسط الطبيعي والاجتماعي... فأصالة التقنيات المعمارية تؤمن انسجاما للفضاءات المسكونة داخل القصر. وبالفعل، فالمهارة المحلية مندمجة كلية في التوازن الطبيعي، وتستند على تقنيات عريقة مورست منذ آلاف السنين من بينها تقنيتان مستعملتان بكثرة في المنطقة.

الأولى وهي تقنية القولبة، والتي تقتضي إعلاء الجدران سريرا فوق سرير من خلال دك التراب المبلل بين لوحين خشبيين. بواسطة الدكّ المنتظم باستعمال مهراس يتراص التراب ويتخذ شكل جدران من 0،6 م إلى 1 م عرضا قادرة على مقاومة الضغط وثقل البناية. يستخرج التراب المستعمل في البناء من عين المكان أو ينقل من مقلع حين تكون البناية في مكان يفتقد لتراب له جودة عالية.

التقنية الثانية تقضي بوضع كتل اللَّبِن (الآجر المجفف) داخل قوالب عن طريق اليد، وتركه يجف في الشمس طيلة عدة أيام. إن استعمال الآجر بالمنطقة مخصص لبناء جدران الطبقات العلوية، وإنجاز السطوح، ولإغلاق الفجوات أو تعلية جدران عازلة وتشكيل مجموعة من الزخارف.

تمنحنا القصبات، في أسفل القصر، دوما صورة عن مجال يعتنى به جيدا. وتحيل هاته «التيغرمين» على سكن محلي نجده في مناطق الأطلس والأودية المتاخمة للصحراء. يتعلق الأمر بمساكن للأعيان كانت فيما مضى أماكن للحكم أو إقامات لحاكم المنطقة «قائد» وعائلته أو ممثليه محليا أو مساكن لعائلات ثرية. إنها تعبير عن نمط عيش مرتكز على الفلاحة حيث يمارس القائد سلطته بطريقة مميزة لحماية مصالحه.

هذه التحصينات غنية بأشكال الزخرفة، خصوصا في الجزء العلوي من الواجهات. إن الوظيفة الدفاعية لهذه البنايات ظاهرة جدا، فهي تتوفر على فجوات وفتحات ضيقة في الواجهة. لمعمار القصبات في آيت بن حدو قيمة مميزة، حيث يقوم هذا النوع من السكن على نموذج واحد يعتمد على شكل منتظم له أربعة أبراج في الزوايا ويتكون من ثلاثة إلى أربعة مستويات، زيادة على السطح. تنتظم هذه الطوابق حول صحن مركزي محاط بأروقة وأقواس. وهذه الأخيرة هي المحور الرئيسي للهيكل الذي تتشكّل من

التغرماتين (القصبات)،
أيقونات المعمار المبني بالتراب في الأطلس وفي الأودية المتاخمة للصحراء بالمغرب.
(الصفحة المزدوجة السابقة).

حوله مختلف فضاءات الدار. تقودنا بوابة الدخول إلى بهو مخصص للتخزين والبهائم. والمستويات العلوية التي يتم استعمالها حسب إيقاع الفصول تتوفر على حجرات، ومستودعات، ومطبخ، وقاعة للاستقبال («تامصريت») التي تتميز عن باقي المرافق الأخرى بتزيين غني. عموما تؤمن القصبات ثلاث وظائف أساسية: الدفاع، الإقامة والخدمات.

إن الزخرفة هي الخاصية المميزة لمساكن الأعيان والتي يمكن إعتبارها معمارا زخرفيا بامتياز. تندرج أساليب الزخرفة في رمزية هندسية وذلك باستعمال المربع، والمعيَّن، ولوحات الإفريز، إلخ، تستعمل هذه الأساليب في أعالي القصبة من الخارج، وفي أبواب الدخول، والنوافذ وقاعات الاستقبال. وتقوم الزخرفة على وضع وترصيص الآجر بحسب عدة أشكال وتصميمات، شريطة أن يكون كل صف من الآجر بمعزل عن الآخر، وقد تعطي بهذه الطريقة زخارف على شكل إطارات وخلايا على شكل رقعة «الضاما»، وإفريزات بقضبان وشرائط مسننة والتي تشكّل إفريزات الأجزاء العلوية من الأبراج. كما يمكن أن يوضع الآجر مائلا، ليشكل في هذه الحالة زخارف متعرجة أو أشكال هندسية أخرى كالمعينات.

يرتكز نظام بناء القصبات على تقنية التراب المدكوك لتعلية طبقات الجدران. أمّا الأجزاء العلوية فتبنى بالآجر. تبنى هذه القصبات فوق أسس من الحجر والذي يسمح لها بمقاومة عوامل التعرية. وتحمى الجدران على مستوى السطح بسرير من القصب فوقه رأس علوية من الطين. أما الواجهات، فهي دائما محمية بملاط لا يتسرّب منه الماء. ويتكون هذا الملاط من الصلصال المخلوط بالتبن المفروم والذي يؤخّر انسياب الماء فوق الجدار. وهناك عدّة ميزابات منحوتة من خشب النخيل أو الصفصاف في أعلى الجدران لتصريف مياه المطر.

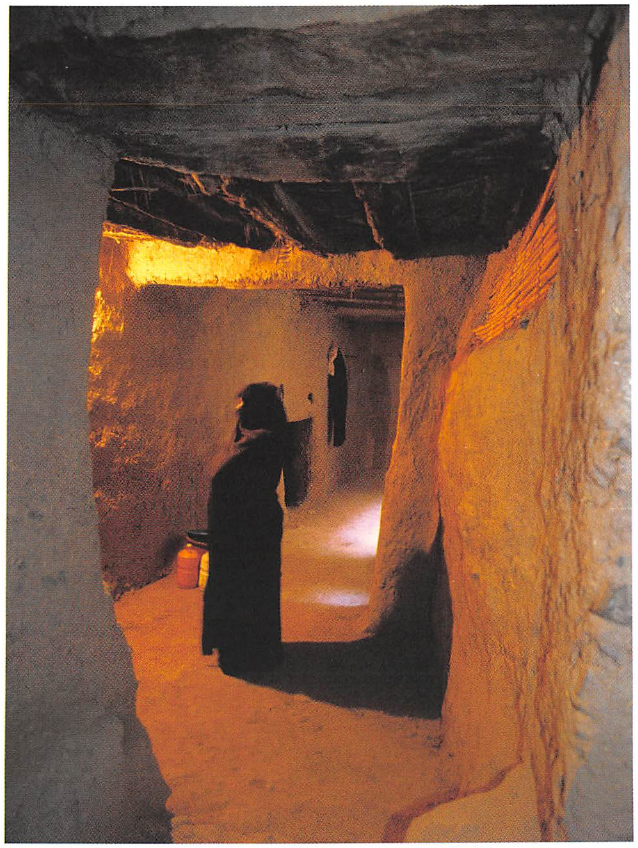

زقاق ملتو يناوب النور والظلمة
ويوصل لباقي المكونات الفضائية
للقصر.

تسند السقوف في الداخل بأعمدة من خشب شجر الصفصاف أو الأوكاليبتوس أو النخيل وتتموضع هذه بين جدران الحجرات والفضاءات الداخلية عموما، وتركّب فوقها وبشكل عمودي عوارض خشبية توضع عليها حصائر من قصب أو من أغصان شجر الغار. وتضاف فوق هذا طبقة من التراب المبلول والمخلوط بالتبن. وتتم تغطية المجموع بأوراق الأشجار (يستعمل البلاستيك حاليا) وفوقه يتم إضافة تكسية بالتراب المدكوك والمغطى بملاط. تستجيب تقنيات البناء في العادة لمنطق يعلي من قيمة الحميمية ورغد العيش. وعموما، يقوم النسق الفضائي في القصبات على العمودية ويتم الانتقال من طابق إلى آخر بحسب الفصول.

الطاطاوي،
ضرب من الأسقف التقليدية، المشكلة من قضبان من دفلى بألوان طبيعية، إحدى التقنيات المستعملة في بناء دور الأعيان.

أشغال الترميم والآفاق الجديدة

وكما هو الحال بالنسبة لكل مواقع التراث العالمي، دعت اليونسكو ومنذ 2002 الدولة المغربية إلى بلورة مخطط تدبير يؤمن المحافظة على القيم التي من أجلها صنف القصر. كان الخصاص كبيرا وضاغطا وقدمت العديد من التقارير المنذرة بالتآكل المتواصل للموقع وذلك منذ تصنيفه سنة 1987، وبدأت تتراءى أيضا العديد من المشاريع الكبرى وغير المناسبة. وصاغ كل خبير بعث لآيت بن حدو توصيات للحفاظ على هذا التراث، لكن كلّ الأفكار التي اقترحت ذهبت سدى، إذ إنها لم تنجز بالمساهمة الفعّالة للفاعلين المحليين والسكان. بل إنّ بعض المقترحات ساهمت في تثبيط المبادرات المحلية القليلة للمحافظة على الموقع ، بما أنها جعلت الناس يعتقدون بأن تمويلا كبيرا سيأتي من الخارج وسيسمح بالترميم الشامل للمساكن.

عرف موقع آيت بن حدو منذ بداية التسعينيات عدة تدخلات لترميمه أنجزها مركز صيانة وتوظيف التراث المعماري بمناطق الأطلس والجنوب بدعم مالي من برنامج الأمم المتحدة الإنمائي ومساعدة تقنية من اليونسكو. أنجزت الأشغال الأولى بهدف إعادة تثمين المكونات التراثية والبيئية للموقع وذلك بدمجها في صيرورة تنمية مستدامة للمنطقة. ورغم المجهودات التي بذلت لحماية ما هو أساسي في هذا الموقع فالوضعية مقلقة. القصر يوجد في حالة إهمال شبه

كاملة وحالته ووضعه متدهور جدا. فمجموع الشروط والوسائل الموضوعة رهن إشارته وتنميته كتراث عالمي تبقى غير كافية. يجسد هذا الموقع بشكل جيد التحولات التي تعيشها القصور ومساكن الأعيان في جنوب المغرب ويجمع بداخله كل المشاكل التي تطرحها حمايته..

كان يتوجب إذا صياغة مخطّط تشاركي يثمر عملا جماعيا، تتداخل فيه عوامل ثقافية، عاطفية ومهنية.

وهكذا وفي سنة 2006 قررت كل الأطراف المعنية تجميع مجهوداتها لوضع مخطّط للتدبير والذي سيكون مرجعا لكل من أراد تطوير نشاط ما في آيت بن حدو. وقد تمخّض هذا المخطّط عن سنة من التفكير ومحترفات حضرها أزيد من سبعة وستين شخصا يهمّهم مستقبل الموقع، إمّا لأسباب شخصية أو مهنية. كانت المقاربة التشاركية انشغالا دائما لتأمين إعداد مخطط شارك فيه الجميع ومقبول من الجميع باعتباره الطريق الأكثر واقعية التي ينبغي تتبعها لزرع حيوية جديدة في إرث لا يعوض، ويجذب آلاف الزوار كل سنة (الإحالة: م. بوصلح وس. موريسي: مخطّط تدبير قصر آيت بن حدو، 2007 - 2012).

يمكننا وبعد عدة سنوات من إعداد مخطط التدبير هذا، تقويم آثاره على المبادرات الخاصة والعمومية، وقائمة كل الأنشطة التي صارت ممكنة بفضل توزيع الأدوار والمسؤوليات. زرعت حيوية جديدة في الموقع بفضل زيادة عدد الفاعلين الذين لهم نظرة مشتركة تهم المكان. أواخر 2012 وصل مخطط التدبير إلى نهايته. وقد قوّت بعض المنجزات الملموسة صورة موقع استثنائي، والحصيلة الأكثر أهمية هي أن الفرقاء يواصلون الاجتماع فيما بينهم بشكل منتظم حتى يعدّلوا بعض الأشياء ويقرروا بعض الأنشطة التي ينبغي القيام بها. وبقدر ما كان مخطط التدبير يعمم ويكون موضوع نقاش في الاجتماعات بقدر ما كان يصير وثيقة مرجعية لاتخاذ قرارات بشأن الأنشطة التي ينبغي القيام بها في القصر.

وفي هذا المستوى من تنزيل مخطط التدبير، تجدر الإشارة إلى إنجاز عدة مشاريع:

- بناء دار متعددة الخدمات من طرف مصالح وزارة الإسكان والتعمير في القرية الجديدة؛
- أشغال صيانة وتأهيل جوانب القصر؛
- بناء مقر للاستقبال، ووضع حاويات للنفايات وشراء أدوات ووضعها رهن إشارة الساكنة المحلية من طرف مركز صيانة وتوظيف المعماري بمناطق الأطلس والجنوب؛
- تكوين شباب القصر في مجال الإسعافات الأولية المستعجلة من طرف مندوبية وزارة الصحة بورزازات؛
- ترميم الحصن والأسوار التاريخية من طرف مركز صيانة وتوظيف التراث المعماري بمناطق الأطلس والجنوب؛
- إعادة بناء سقوف بعض الدور داخل القصر من طرف مركز صيانة وتوظيف التراث المعماري بمناطق الأطلس والجنوب؛
- تزويد القصر بالماء الشروب عن طريق الربط الفردي وبناء محطة لتصفية المياه العادمة من طرف المكتب الوطني للماء الصالح للشرب؛

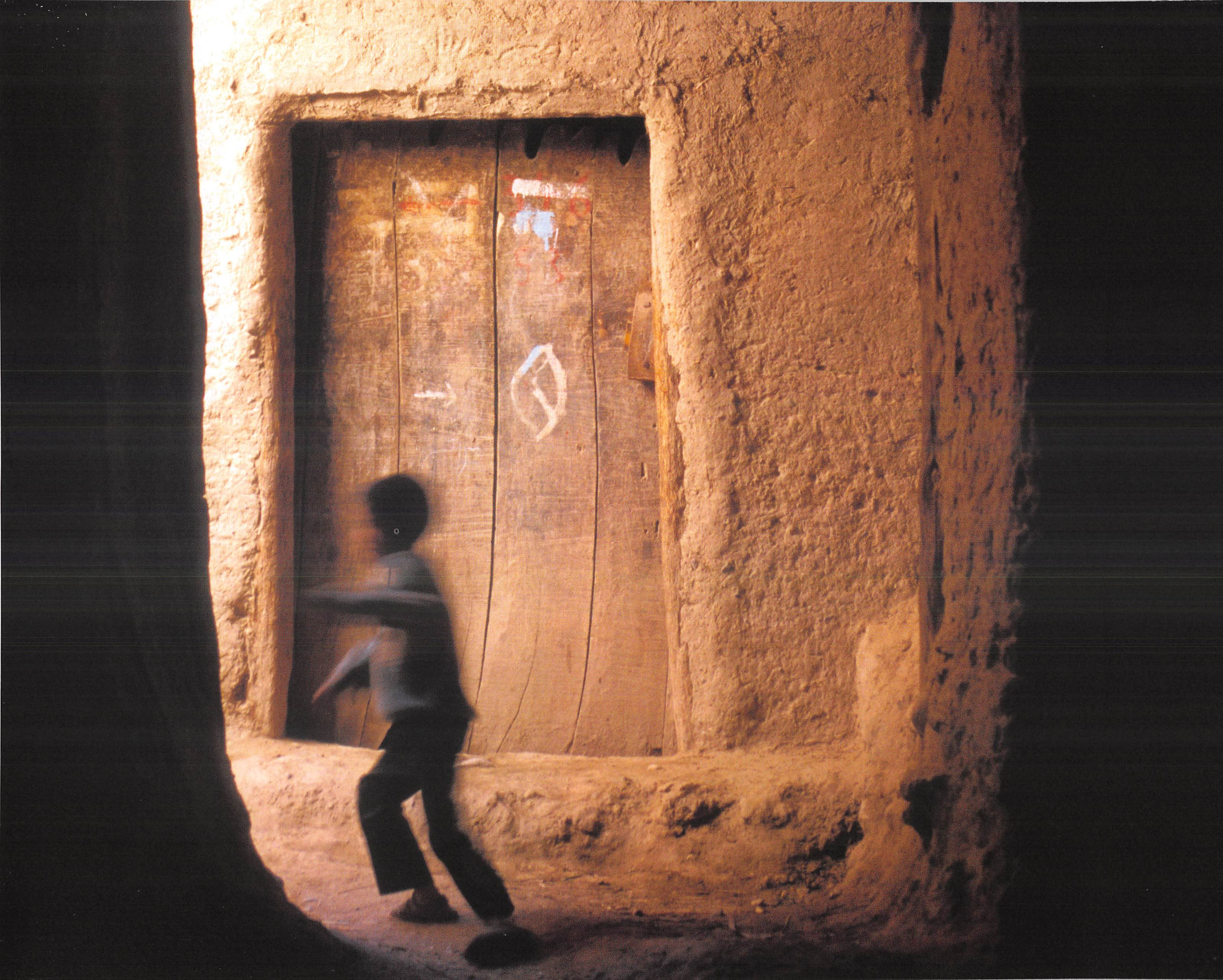

وادي المالح وإغرم آيت بن حدو،
منظر بانورامي للحقول انطلاقا
من الضفة اليمنى للوادي.
(الصفحة المزدوجة التالية).

- وضع متاريس مضادة للتعرية من طرف المصلحة الإقليمية للمياه والغابات؛
- تقوية وترميم السواقي من طرف مكتب الإستثمار الفلاحي بورززات؛
- تبليط الأزقة وتهيئة مدارات الزيارة من طرف عمالة ورززات؛
- تقوية بنيات وجدران وممرات القصر من طرف عمالة ورززات؛
- تهيئة قاعة لتقديم الإسعافات الأولية من طرف مركز صيانة وتوظيف التراث المعماري بمناطق الأطلس والجنوب؛
- مشروع ترميم التحصينات والأسوار التاريخية لقصر آيت بن حدو، وهو ممول من طرف وزارة الثقافة، وقد أنجزت مرحلة دراسة المشروع بتعاون بين مركز صيانة وتوظيف التراث المعماري بمناطق الأطلس والجنوب؛
- والمركز الدولي للبنايات الطينية بگرونوبل ومولت من طرف صندوق مركز التراث العالمي؛
- مشروع ترميم أسقف وإعادة تكسية الملاطات الخارجية لبعض الدور السكنية داخل قصر آيت بن حدو، ممولا من طرف وزارة الثقافة؛
- بناء قنطرة تربط بين ضفتي الوادي وتسمح بتواصل بين الموقع المرتب والقرية الجديدة.

قصر آيت بن حدو مثال للقرية الجماعية المبنية بالتراب المدكوك والآجر. إنه تعبير عن تصورات وأشكال حياة أصيلة، والحفاظ عليه ضرورة قصوى حتى لا تصير مختلف فضاءاته أنقاضا تشهد على ماض مجيد للأجداد وعلى عدم اهتمام لحفدتهم وللمصالح المعنية بصيانته. وتبذل اليوم جهود متعددة لإعطائه بعدا جديدا دون المساس بأصالته ولا بمقامه كموقع للتراث العالمي.

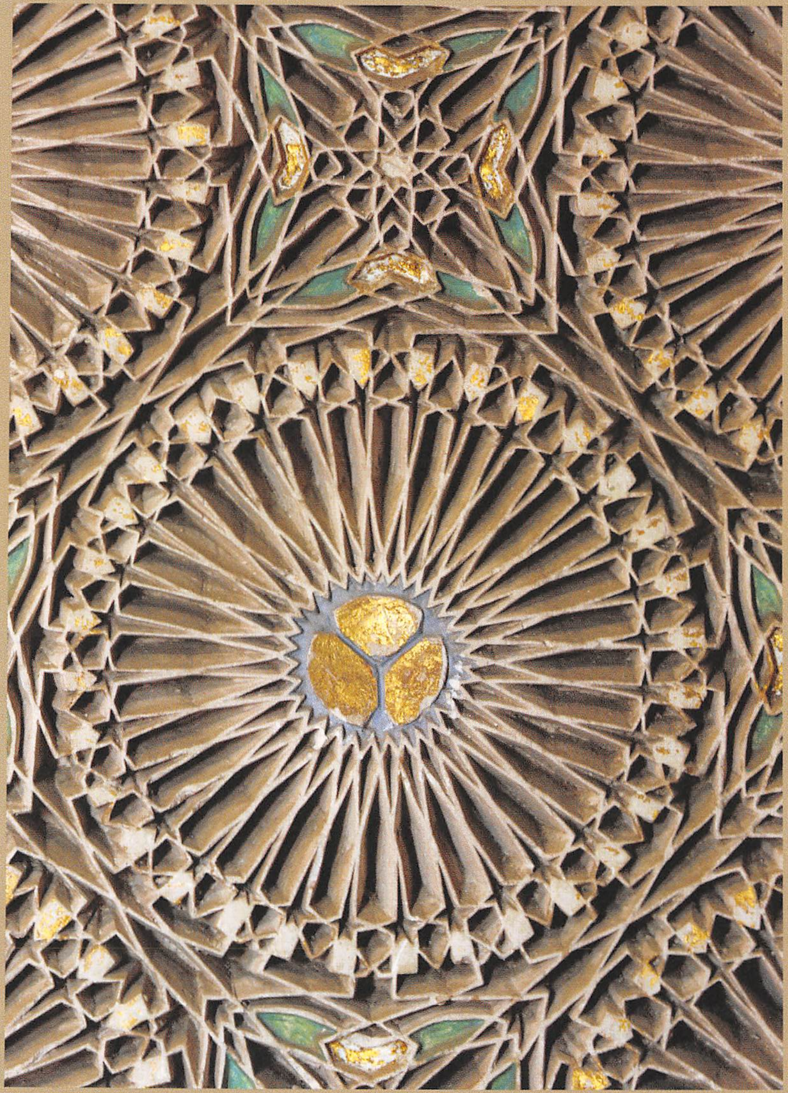

مكناس

تراث ثقافي مغربي

فضاء حضري في تحول شامل

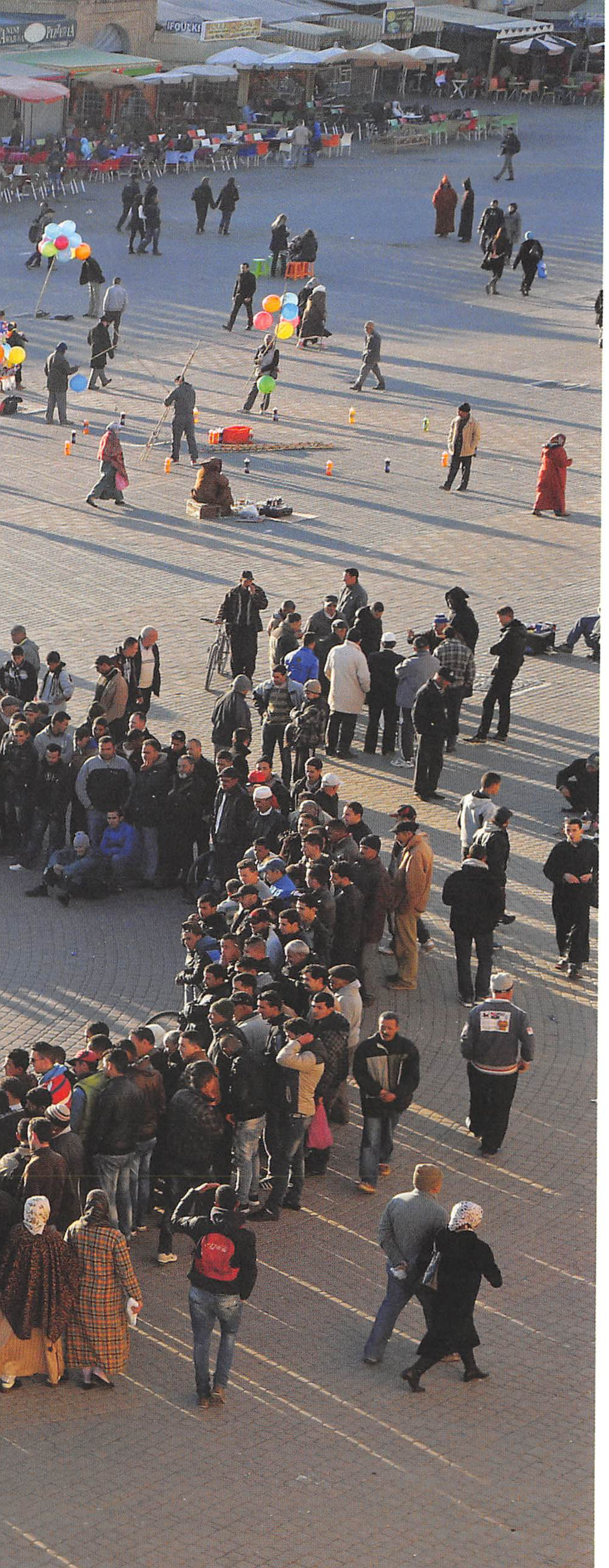

المدينة التاريخية لمكناس

فضاء حضري في تحول شامل

أبا صدقي

مهندس حضري

مفتش المآثر والمواقع جهة مكناس-تافيلالت

يعود أصل كلمة مكناس، التي أسست سنة 1061 م من طرف المرابطين كحصن عسكري، إلى القبيلة الأمازيغية الكبيرة مكناسة التي كان نفوذها يمتد من نواحي المغرب الشرقي حتى منطقة تافيلالت خلال القرن الثامن م. لقد استفادت من موقع جغرافي مميز في سهل سايس، بين مقدمة الريف شمالا والأطلس المتوسط جنوبا.

سقطت المدينة في أيدي الموحدين (1147 - 1269). وطيلة فترة حكمهم، شهدت مكناس نوعا من التمدن والحضارة . تشهد إحدى الكتابات على أن توسيع المسجد الكبير يعود إلى عهد محمد الناصر (1199 – 1213م). وفي هذه الفترة أيضا نقل الماء من عيون «تاغما» إلى المدينة لتزويد السقايات، والحمامات والمساجد. ومن خلال وجود أربعة أصناف من الحمامات، يمكن الاستدلال على التوسع العمراني خلال هذه الفترة التاريخية.

خلال الفترة المرينية (1269 - 1374) توسعت مكناس على حساب الحوائر التي تطورت من حولها، كما أضيفت إليها الجماعات الأندلسية التي وفدت على المدينة بعد سقوط مراكز إقامتها في يد المسيحيين، وظهرت طائفة اليهود التي تكاثرت في المدينة بعد اندحار سلطة الموحدين الذين كانوا يشددون الخناق عليهم .وأنشأ أبو يوسف (1269 - 1286) القصبة الجديدة خارج أسوار المدينة الموحدية ، واهتم المرينيون بتشييد المنشآت العلمية فظهرت بها

مكناس،
باب الخميس.
(الصفحة المزدوجة السابقة).

ساحة الهديم.

المدرسة البوعنانية.

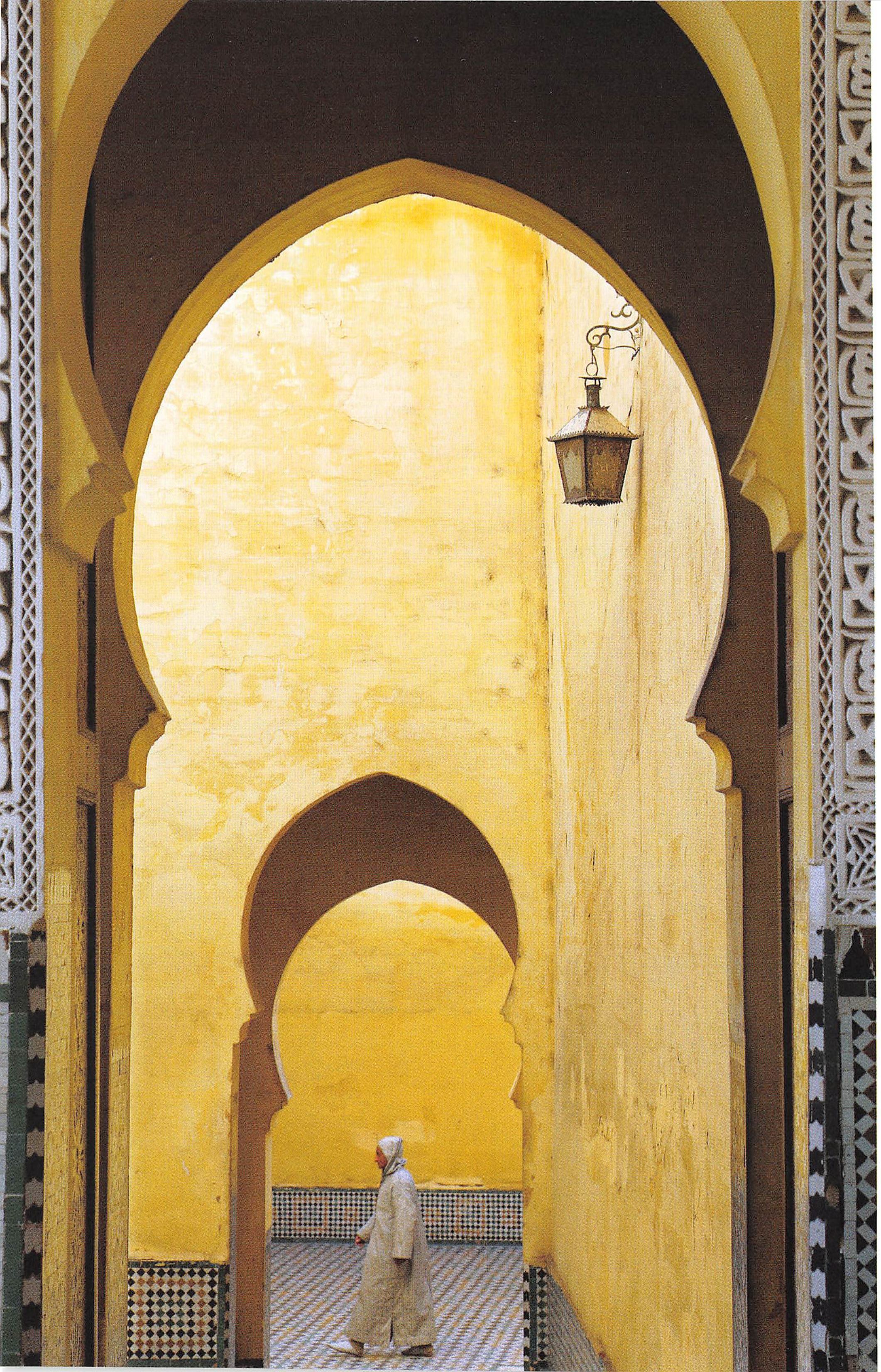

ضريح المولى إسماعيل.

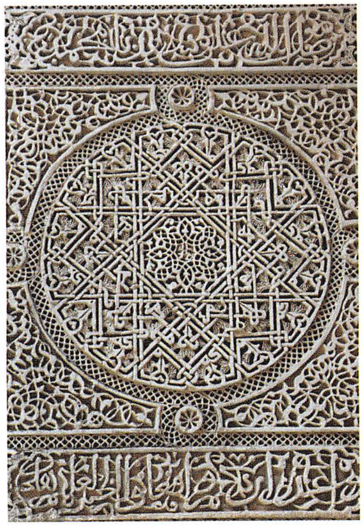

ثلاثة مدارس (الشهود، البوعنانية، العدول)، بالإضافة لعدة بنايات عمومية منها المساجد والمستشفيات، والمكتبات، والسقايات .

على المستوى العمراني، قام المولى إسماعيل (1672 - 1727)، الذي يعتبر واحدا من مؤسسي الدولة العلوية، بعدة أشغال للبناء وتطوير المدينة خصوصا المساجد والأضرحة والحدائق، كما بذل كل جهوده ليجعل من مكناس عاصمة لحكمه بما ترمز إليه من مظاهر العظمة والجاه والسلطان التي ميزت شخصية المولى إسماعيل، الذي قضى نصف قرن من الزمن في بنائها وتعميرها. لقد جعلها محاطة بأسوار تتخللها أبواب كبيرة تضم القصر بمرابضه الهائلة، وأكاديمية عسكرية، ومخازن شاسعة للحبوب وخزانات تعكس بمعالمها التفوق الحاصل في دمج الطرازين المعماريين الإسلامي والأوروبي في العاصمة الإسماعيلية في مغرب القرن 17.

لقد ساهمت المدينة التاريخية لمكناس بشكل كبير في تطوير الهندسة المعمارية المدنية والعسكرية، باحتوائها على آثار الحضارات المغربية المتعاقبة منذ الدولة المرابطية، مرورا بالفترة الإسماعيلية التي شكلت منعطفا بالغ الأهمية في رسم معالم النسيج العمراني العام لمدينة مكناس الوسيطية.

مكناس،
منظر للأسوار.

برج الما.
(الصفحة المقابلة).

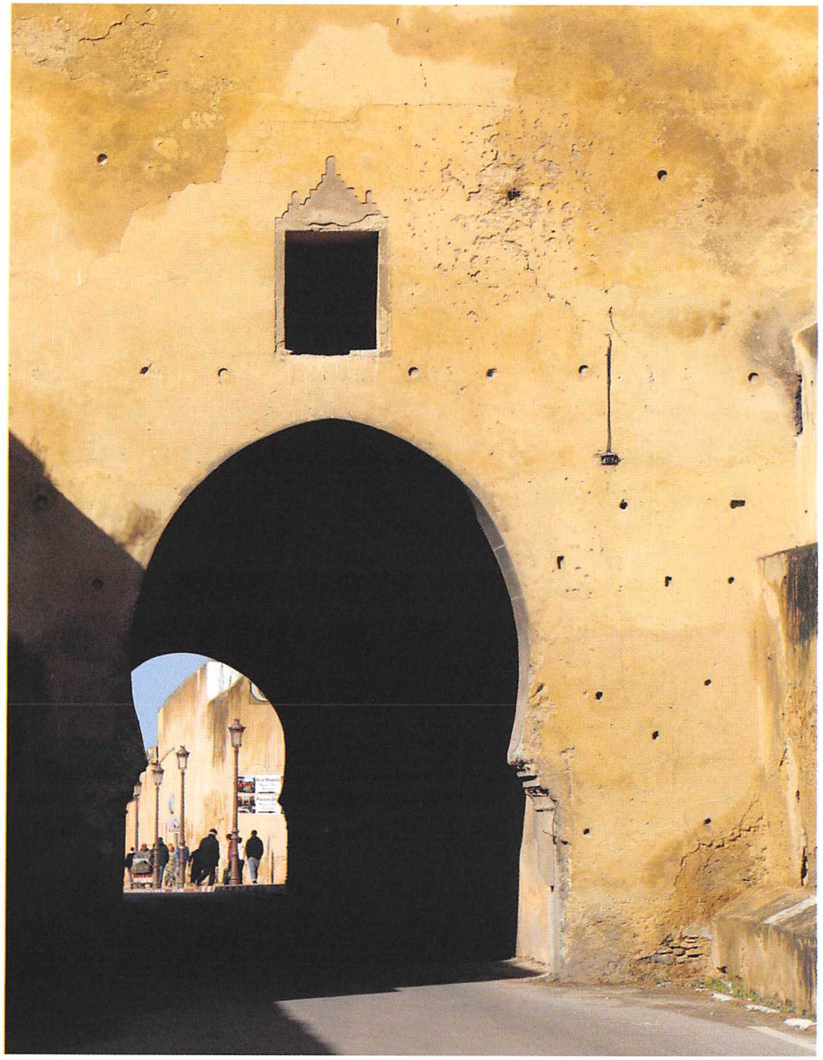

القيمة الكونية لمكناس كموقع للتراث العالمي

سجلت مكناس في قائمة التراث العالمي بناء على المعيار (IV)[1] الرابع الذي يشترط فيه أن يكون المتلك الثقافي المراد تصنيفه مثالا بارزا المعيار.

أن تكون مثالاً بارزاً على نوعية من البناء، أوالمعمار أو مثال تقني أو مخطط يوضح مرحلة هامة في تاريخ البشرية.

تتميز مدينة مكناس بضخامة أسوارها التي يبلغ علوها 15 مترا، وتعد نموذجا للمدن المغاربية المحصنة. كما تمثل بنية عمرانية ومعمارية متفردة لإحدى أهم عواصم شمال إفريقيا خلال القرن السابع عشر؛ تمزج في تناسق تام عناصر مختلفة للتخطيط العمراني الإسلامي والأوروبي.

وتبرز من خلال هذا العمران السلطاني خصائص العمارة المبنية بالتراب المميزة للمدن شبه الصحراوية.

1. المعيار (IV)، المعايير الثقافية لاتفاقية حماية التراث الثقافي المشترك للإنسانية.

ضريح المولى إسماعيل، الباحة.
(الصفحة المزدوجة السابقة).

قصر المنصور.
(الصفحة المقابلة).

المعالم

مخازن المولى إسماعيل (هري السّواني)

على بعد 500 م جنوب القصر الملكي وساحة المشور، بنى المولى إسماعيل مخازن «هري السّواني» التي تعد إحدى أهم المعالم التاريخية بمدينة مكناس، حيث تنفرد بضخامتها وجدرانها السميكة التي تمكن من تأمين درجة حرارة ملائمة لتخزين مواد التموين لأطول مدة. تبلغ مساحة القاعدة المركزية أزيد من 26 مترا على أزيد من 10 أمتار عرضا، ويوجد السقف على علو 9 أمتار. يتضمن هذا المخزن 10 قاعات صغيرة لها جدران بسمك 4 م، ولكل قاعة بئر مزودة بدواليب كانت تديرها الدواب لإخراج الماء الذي كان يزود صهريج السواني المحاذي لها. وكانت هذه المعلمة تسع أزيد من 12000 فرسا مما مكن مكناس من أن تتبوأ المكانة الأولى لأكبر حريسة للخيول بإفريقيا الشمالية مساحتها 80 هكتارا وبها 450 حصانا.

باب منصور

يعتبر هذا الباب المدخل الرئيسي للقصبة الإسماعيلية من جهة الشمال الغربي قبالة الساحة التاريخية الشهيرة «لهديم». هذا الباب الذي يرمز إلى السلطة والقوة والخضوع والثروة يصنف من بين أروع الأبواب، تم الانتهاء من بنائه في عهد المولى عبد الله ابن السلطان المولى إسماعيل، في عام 1144هـ (1731-1732 م). وهو ما تؤكده النقيشة المثبتة على واجهة الباب. وإلى جانب قيمته التاريخية التاريخية، يعتبر سكان المدينة باب منصور بوابة تصل الحاضر بالماضي.

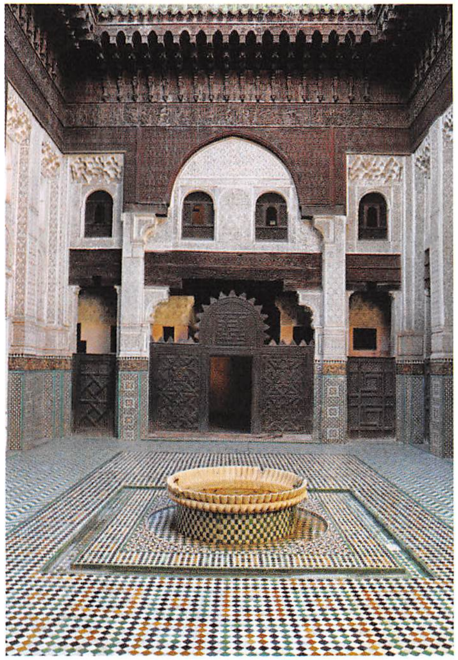

المدرسة البوعنانية.

المدرسة البوعنانية

بنيت المدرسة الجديدة خلال القرن 14م على عهد السلطان أبو الحسن المريني، ثم صارت تعرف «خطأ» بالمدرسة البوعنانية. يبرز الشكل المعماري للمدرسة التي كانت حاضنة لعلوم القرآن والفقه الإسلاميين، مدى اهتمام المرينيين بجمالية مبانيهم وبذلهم كل الإمكانيات لظهور منشآتهم في غاية الرونق وحسن الصنعة. يتوسط ساحتها المركزية بركة ماء من رخام أبيض ويكسو جدرانها الزليج المقدد، وحيطانها توجت من أعلى بنقوش جبصية ذات أشكال هندسية متنوعة. وفي اتجاه الداخل مدارج تصعد إلى الطابق العلوي الذي يضم بيوتا لسكنى الطلبة.

سلامة وأصالة الممتلك ومتطلبات تدبيره

على الرغم من تقلبات الزمن، فإن المدينة العتيقة لمكناس استطاعت أن تصمد وتقدّم نموذجا للمدينة العربية الإسلامية في شكلها العمراني وتنظيمها

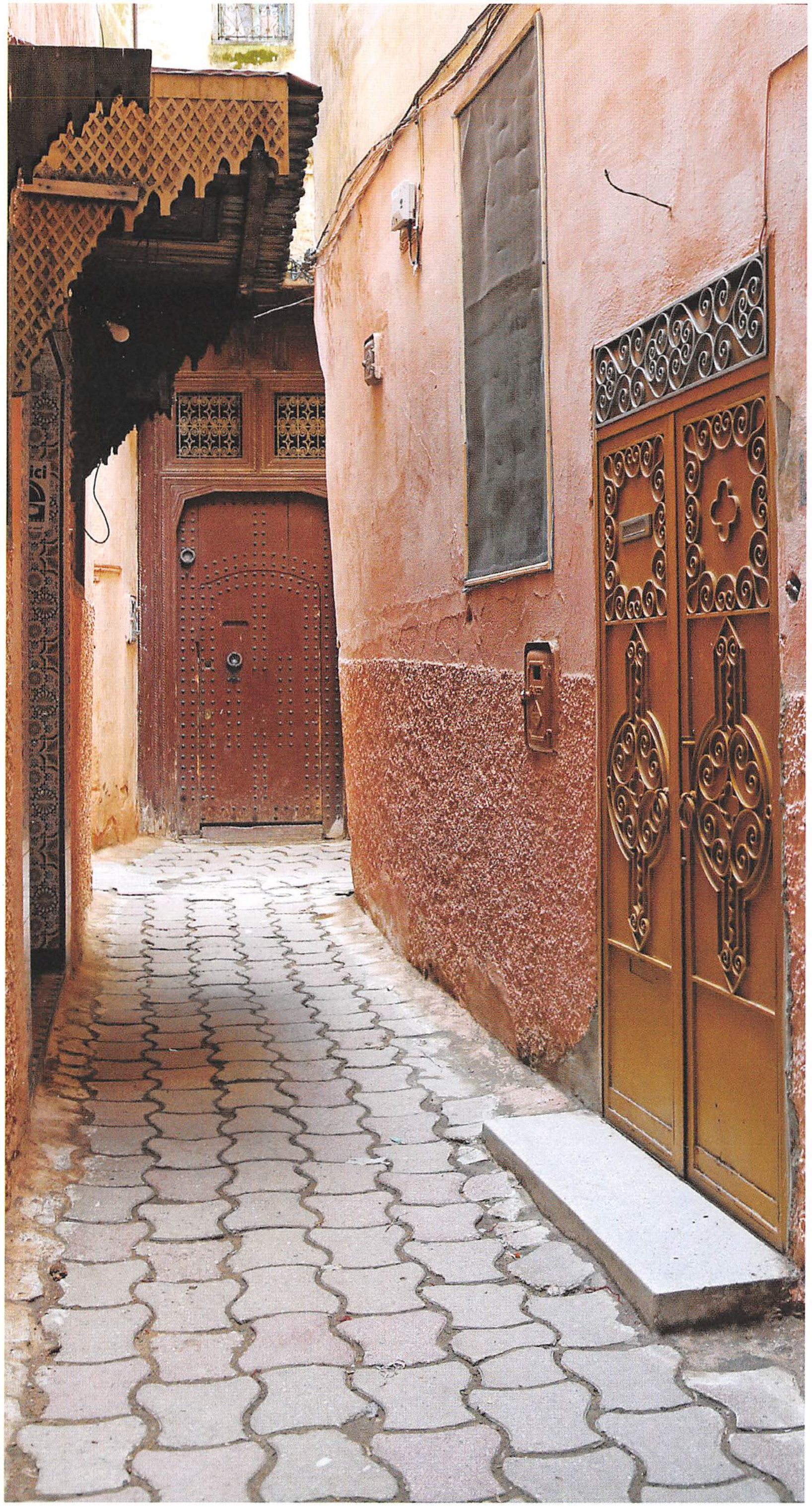

مناظر للمدينة العتيقة.

الاجتماعي والاقتصادي، وتبز كإبداع حي يجسد الفن الإسلامي باحتوائه على أنشطة الحرف التقليدية والمعمار المغربي الأصيل. غيرأنها الآن تئن تحت وطأة الأنشطة المكثفة التي يمارسها مختلف الفاعلين (ساكنة، تجار، حرفيون، منعشون صغار...) مما يؤثر سلبا على مستوى تماسك نسيجها العتيق (بنايات عشوائية داخل الأسوار وفي أطراف المدينة، عدم احترام ارتفاقات العلو...) فضلا عن كون أن آفاق عمليات التهيئة ضعيفة ومحدودة المفعول. من أجل الحد من هذه الاختلالات، شرع المسؤولون المحليون والفاعلون الجمعويون في التفكير في مشروع مندمج لإعادة تهيئة المدينة العتيقة لمكناس.

إندماجية الموقع

على مستوى اندماجية الموقع في محيطه الحضري، تبرز المدينة العتيقة والقصبة الإسماعيلية كوحدتين عمرانيتين مختلفتين ومتكاملتين بأسوار عالية وضخمة كانت تؤمن حمايتهما وتتضمنان كل العناصر التي تشهد على القيمة الكونية الاستثنائية كتراث عالمي بعناصرمركبة (تحصينات، نسيج حضري، معمار بالتراب المدكوك، بنايات مدنية، وعسكرية ودينية، وحدائق ...)

رغم أن بعض المزايا الجوهرية للمدينة والقصبة تعكس القيمة الكونية الاستثنائية التي مازال محافظا عليها، ماجعلها تحظى بثقة منظمة اليونسكو وتصنفها ضمن لائحة التراث العالمي، إلا أنها في حاجة ماسة وملحة لعمليات الترميم والصيانة. وبصفة عامة، فالبنية الحضرية للنسيج العتيق لمكناس صارت هشة بفعل آثار التحولات المتسارعة وللتطور غير المتحكم فيه جزئيا، كما هو الشأن بالنسبة لمنطقة الارتفاق المحيطة بالمدينة العتيقة والقصبة والتي تعرف مجموعة من الخروقات والتجاوزات .

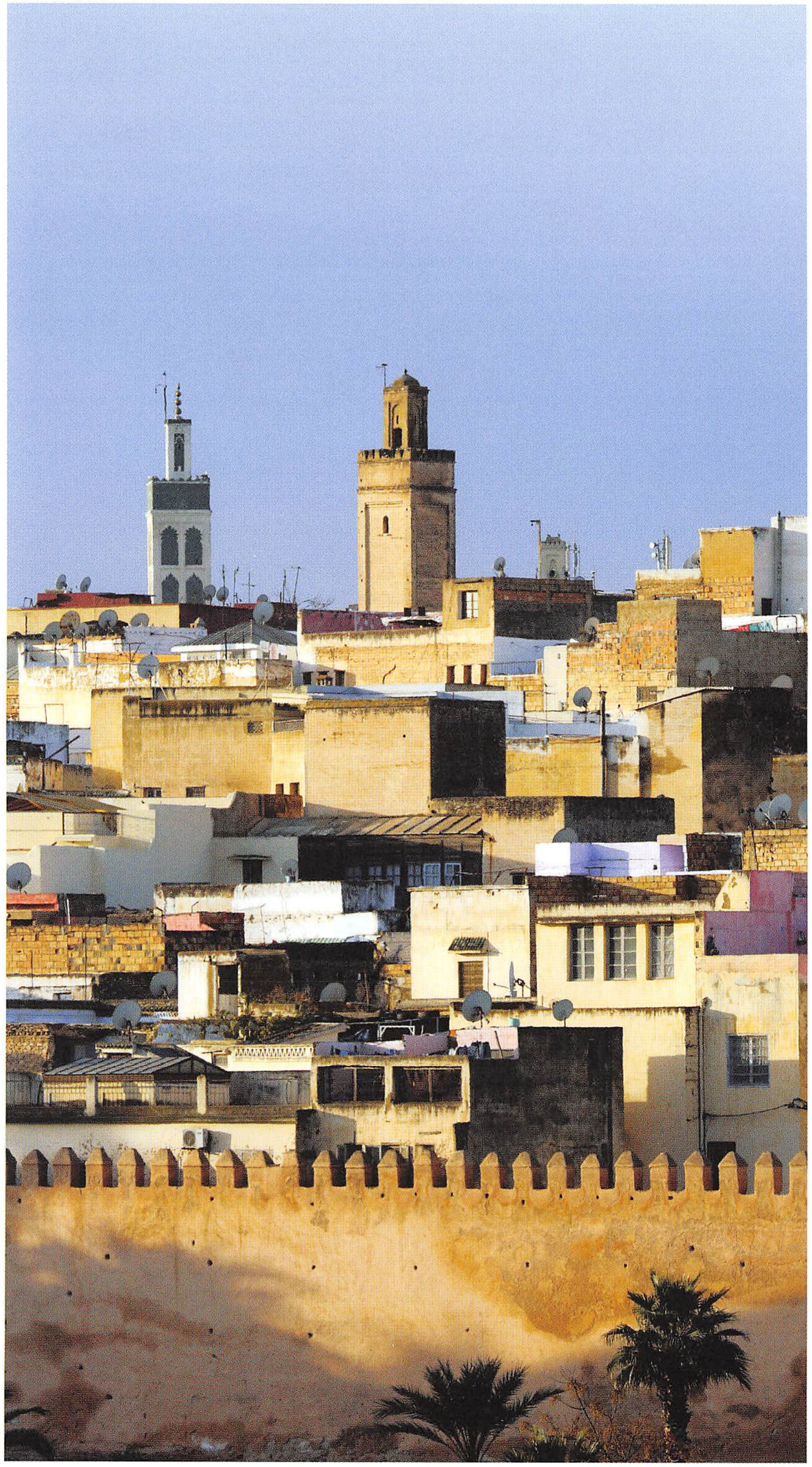

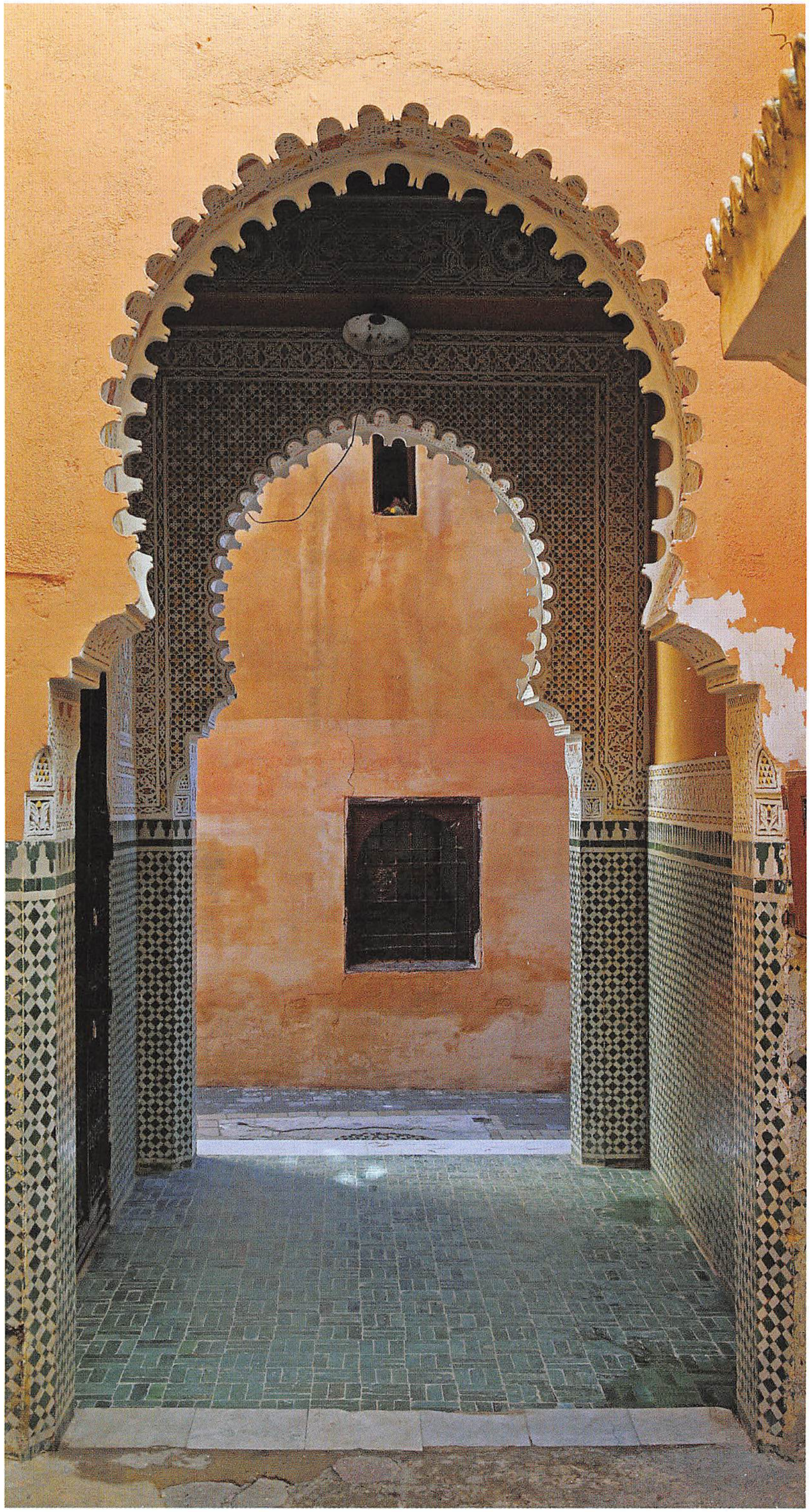

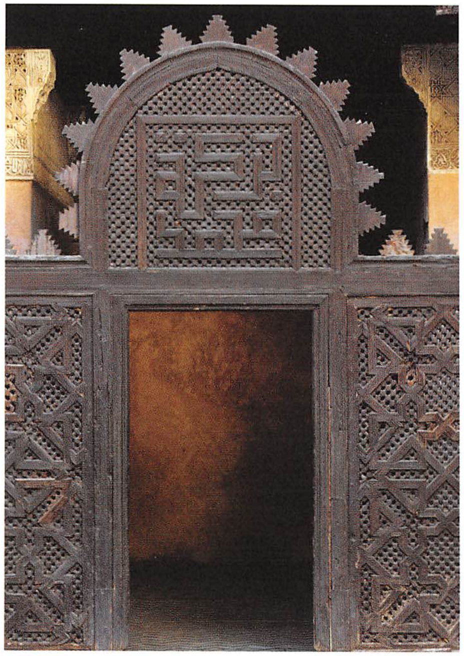

المدرسة البوعنانية ،
مشربية فتحة المدخل.

أصالة الموقع

تشكل المباني المعمارية الفريدة لمدينة مكناس من جهة والنسيج الأصيل الذي يجسد شكلها كحاضرة لمغرب القرن 17 من جهة أخرى، إحدى المزايا التي تعكس قيمتها التراثية والتاريخية، والتي استحقت معها أن تسجل تراثا كونيا. ومع ذلك، يمكن أن نشير إلى أن بعض بناياتها تعاني الهشاشة من فرط تأثير الإصلاحات غير الملائمة أو إعادة البناء. كما أن النسيج الحضري قد أضعف بتآكل عناصره المعمارية والزخرفية. وبصفة عامة، إن قدرة الموقع على التعبير عن قيمته الكونية المتميزة ينبغي أن تعزز أكثر لأن بعض المزايا العمرانية صارت فعلا مهددة.

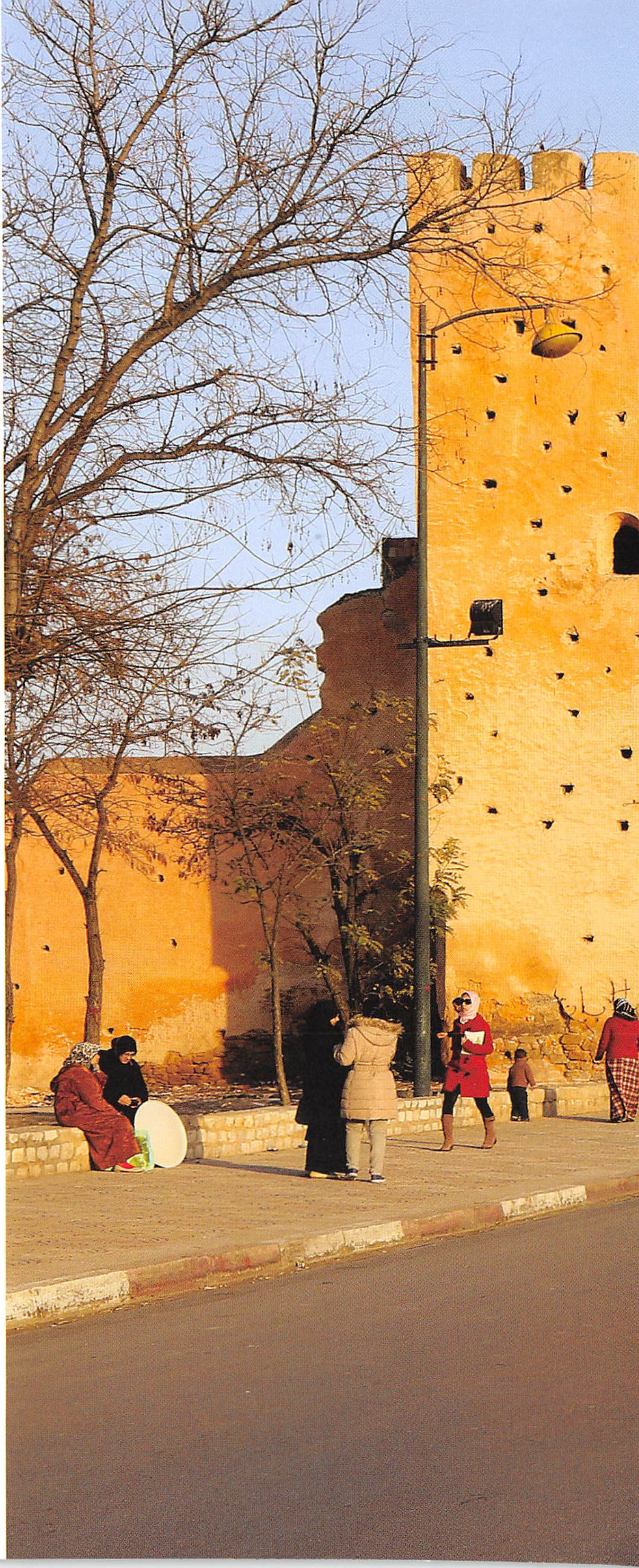

باب الخميس

صهريج أكدال.
(الصفحة المزدوجة الموالية).

تطوان

تراث ثقافي مغربي

سجل للفنون والتقاليد

تطوان

سجل للفنون والتقاليد

العربي المصباحي
باحث آثار ومحافظ تراث بطنجة

تطوان مدينة عريقة بأصالتها التاريخية والحضارية والمعمارية التي تميزها عن باقي المدن المتوسطية بالمغرب، لذلك كله فقد تم تصنيفها كتراث عالمي سنة 1997، وفقا للمعايير 2 - 4 - 5[1] لليونسكو.
مدينة أسطورية ومتفردة بموقعها الجغرافي الاستراتيجي المطل على الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط، ومتميزة أيضا بعمرانها ومعمارها؛ فقد كانت على مر العصور نقطة ربط وتواصل بين القارتين الأوروبية والإفريقية والديانتين الإسلامية والمسيحية وبشكل خاص بين البلدين، المغرب وإسبانيا. انطلاقا من هذه الخصوصية فإن المدينة ما فتئت تشد انتباه واهتمام الباحثين والمتخصصين في مجالات التاريخ والثقافة والسياحة وقد أضحت بعد تسجيلها في قائمة التراث العالمي الإنساني محطة إعجاب لزوارها من داخل المغرب وخارجه.

تطوان،
منظر بانورامي للمدينة انطلاقا من الغرب.
(الصفحة المزدوجة السابقة).

شارع محمد الخامس،
واجهة مركبة،
(الحي الكولونيالي).

1- معيار II : مدينة تطوان تشهد على تأثير مهم للحضارة الأندلسية في نهاية الفترة الوسيطية للشرق الإسلامي. هذا التأثير يتجلي على مستوى تطور معمار الفنون المعمارية وتخطيط المدن.
معيار IV : مدينة تطوان تشكل مثالا بارزا للمدن المحصنة على الساحل المتوسطي المرتكزة على مجال جبلي لشمال المغرب. كما تشهد على استيطان جد قديم وأثناء الفترة الإسلامية يكتسي أهمية بارزة حيث يمثل الممر الوحيد بين الجزيرة الإيبيرية وداخل المغرب. مجد المدينة تواصل من بداية القرن الخامس عشر إلى نهاية القرن السابع عشر ويتجلى في تحصينات المدينة ومعمارها الذي يعكس الثقافة المغربية والأندلسية ونسيجها الحضري.
معيار V : الموقع الاستراتيجي للمدينة القديمة في مقابل مضيق جبل طارق لعب دورا مهما كنقطة اتصال وانتقال بين حضارتين، الإسبانية والعربية، وبين قارتين، أوروبا وشمال إفريقيا.

تطوان،
زليج نموذجي.

حديقة مولاي رشيد،
رياض العشاق.
(صفحة اليسار).

جزء من
زخرفة بالزليج

لقبت ب «بنت غرناطة» نتيجة التشابه الذي يجمعها مع هذه العاصمة الأندلسية، كما أطلق عليها اسم «بنت سبتة»[2] نظرا لارتباط تاريخها وتطورها بهذه المدينة، ومن جهة أخرى فقد تم وصفها بكونها بهو الحضارة الأندلسية بالمغرب[3] من أجل استحضار طابعها وأصولها الأندلسية، هكذا فإن مدينة تطوان التاريخية تشكل اليوم متحفا مفتوحا للثقافة والفن والمعمار.

إنها نتيجة تفاعل وتداخل عدة عناصر، منها : التطور التاريخي الطويل والمتشعب الذي ميز المدينة، الموقع الجغرافي والجيوستراتيجي المتميز وكذا التعايش الإنساني والثقافي بين الأمازيغ والعرب وبين الديانات السماوية على أرض المدينة من مسلمين ويهود ومسيحيين، ما منح المدينة عمقا تاريخيا وثقافيا استثنائيا.

تتكون مدينة تطوان التاريخية من المدينة القديمة المسجلة تراثا عالميا والحي الكولونيالي الإسباني (L'Ensanché) المنتسب للقرن العشرين والذي يزيد، بفضل أهميته العمرانية والمعمارية، في القيمة الكونية المتفردة التي تميز المدينة وأهلها لتكون تراثا عالميا.

2- محمد بن تاويت، تطوان «بنت سبتة»، مجلة كلية الآداب بتطوان، 1991 رقم 5 ص. 217

3- Mohamed Ben Aboud, «Tétouan le patio d'une civilisation», in, *le Maroc andalou, Musées sans frontières*, EDDIF EDISUD Casablanca 2000.

البحر الأبيض المتوسط،
الساحلان المغربي والإسباني.

الأهمية الجيو-استراتيجية والجغرافية

يتميز موقع تطوان بثلاثة مميزات : قربها وإشرافها على مضيق جبل طارق والمجال المتوسطي إضافة إلى المميزات الجغرافية والطبيعية للموقع، زد على ذلك مجموع العلاقات السابقة للمدينة بمحيطها الاجتماعي والسياسي والإداري.

تحتل تطوان موقعا استراتيجيا على الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط، على بعد حوالي 40 كلم من مضيق جبل طارق الذي يعتبر معبرا تاريخيا بين أوروبا وإفريقيا من جهة، وبين الشرق والغرب من جهة ثانية، كما تقع المدينة على بعد 60 كلم شرق رأس سبارطل بطنجة الذي يحتل نقطة التمفصل بين المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط وعلى نفس المسافة تقريبا من حجرة جبل طارق، كما تبعد المدينة بحوالي 40 كلم جنوب مدينة سبتة السليبة الإسبانية، من جهة ثانية، تتموقع مدينة تطوان على الطريق التاريخية التي كانت تربط منذ العصور القديمة وحتى العصور الوسطى مدينة سبتة بداخل المغرب عبر الريف وبلاد الهبط.

مستفيدة من موقعها المحصن بين الجبال بشكل متراجع عن الساحل، تظل تطوان مدينة بارزة على الضفة المتوسطية إذ استطاعت من خلال مينائها التاريخي الذي يحتل مصب وادي مارتيل، على بعد حوالي 10 كلم من المدينة، مراقبة الحركة البحرية بالمدخل الشرقي لمضيق جبل طارق والشريط الساحلي الممتد من مدينة سبتة إلى غاية بلدة أزلا الموجودة على الطريق الساحلي الذي يربط تطوان بتارغة وواد لاو.

تمتد المدينة القديمة لتطوان أو «تطاوين»، التي يعني اسمها عيون الماء الجارية كما يشير إلى ذلك العديد من الدارسين، على السفح الشمالي الغربي لجبل

درسة الذي يقع على الضفة اليسرى لنهر مرتيل، هذا النهر الذي ينبع من الجبال المجاورة لبني يدر والزينات وملوسة والذي يصب في البحر الأبيض المتوسط على مستوى بلدة مارتيل التي شكلت منفذ المدينة على البحر وكذا مينائها التاريخي.

بموقعها الجغرافي في أعلى سهل مارتيل وعلى بعد حوالي 10 كلم تقريبا من مصب النهر، كانت المدينة تشرف على مجال زراعي حيوي يتكون من عدة سهول صغيرة خصبة ومسطحات مثل سامسا وبوعنان وكيتان والتي كانت تزود المدينة وسكانها باحتياجاتهم من الزراعات والخضروات والفواكه الموسمية التي عرفت بها المنطقة.

لقد بنيت مدينة تطوان على أرضية صخرية كلسية حيث تنبع مجموعة من عيون الماء التي كانت تزود المدينة باحتياجاتها من هذه المادة الحيوية كما أشار إلى ذلك عدد من المؤرخين والجغرافيين قد أشاروا إلى هذه الميزة مثل أبا عبيد البكري الذي خلف وصفا في كتابه «المسالك والممالك» يتحدث فيه عن وفرة مياه المدينة.

إن مدينة تطوان لها وظيفة مركز الإقليم الذي يحمل اسمها والعاصمة الثقافية لجهة طنجة-تطوان-الحسيمة (التي تضم عمالات الحسيمة، شفشاون، وزان، العرائش والفحص-أنجرة وطنجة-أصيلة والمضيق والفنيدق)، فهي تنتمي إذن إلى بلاد جبالة التي تحتل الحيز الغربي لبلاد الريف وحسب أبو عبيد البكري فإن تأسيس المدينة يرجع إلى القرن الخامس الهجري على يد قبائل بني سكين التي كانت تستوطن المنطقة، كما لعبت انطلاقا من القرن الخامس عشر دور نقطة الاتصال والتلاقي بين جميع قبائل وشعوب المنطقة التي كانت تجمعهم بالمدينة علاقات خضوع ومنافسة وتكامل سياسي واقتصادي واجتماعي.

توسعات مرحلة
ما بعد الاستعمار.

الأهمية التاريخية

عرفت تطوان وسهل مارتيل منذ الفترات البونيقية والموريطانية والرومانية إنشاء وتطور بعض المراكز الحضرية والعسكرية الشاهدة على أهمية هذه المنطقة. فقد ذكر المؤرخ الروماني بلين «القديم» (ت. 79 م) شعب تمودة أو تامدة الذي يحيل على ما يبدو على ساكنة المدينة البونيقية الموريطانية لتمودة أو معسكر تمودة الروماني الذي لازالت بقاياه الأثرية ظاهرة على الضفة اليمنى لواد مارتيل على بعد 5 كلم غرب المدينة. كما يوجد عند مصب وادي مارتيل موقع أثري آخر ينتمي لنفس الفترة وهو عبارة عن قرية للصيادين تحمل اسم (سيدي عبد السلام د لبحر)، نسبة إلى أحد الأولياء؛ ولعل هذه القرية تعود إلى نفس الفترة التاريخية التي ازدهرت فيها مدينة تمودة مما يدل على أهمية وحيوية هذه المنطقة خلال الفترات القديمة.

بدأ التاريخ الإسلامي لتطوان مع فتح المغرب على يد طارق بن زياد خلال حملته على سبتة في القرن السابع الميلادي حيث يبدو، حسب رأي الكاتب محمد بن تاويت، أن تاريخ تطوان قد ارتبط ارتباطا وثيقا بتاريخ مدينة سبتة سواء في فترات السلم أو فترات الحرب.

إذا كانت المعطيات التاريخية لا تسعفنا في معرفة تفاصيل تاريخ مدينة تطوان في الحقبة الوسيطية، فإن بعض النصوص تشير إلى أنها كانت ضمن مناطق نفوذ وحكم الأمير القاسم بن إدريس الثاني، حيث عادت إليه بعد عملية تقسيم مناطق نفوذ الأمراء الأدارسة التي قام بها الأمير محمد بن إدريس الثاني بين سنتي 836 و837 م، بعد وفاة والدهم المولى إدريس الثاني.

وتشير بعض النصوص أن مدينة تطوان قد تعرضت للهدم والتدمير على يد أحفاد الأمير القاسم بن إدريس في منتصف القرن العاشر بإيعاز من الأمويين الذين كانوا قد بسطوا نفوذهم على سبتة وبعض المناطق الشمالية من

برج سكني ذو شكل مثمن الزوايا، تعلوه قبة. (المرحلة الاستعمارية).

المغرب. ووعيا بأهمية الموقع الاستراتيجية، قام السلطان المريني أبو يوسف يعقوب بتشييد قصبة محصنة سنة 1286 بغية إقامة قاعدة عسكرية ذات هدف مزدوج: مواجهة تغلغل بني نصر الغرناطيين بمدينة سبتة ومواجهة التوسع المسيحي الإسباني البرتغالي بالشواطئ المغربية. وقد قام السلطان المريني أبو ثابت عامر، سنة 1308، ببناء مدينة أو بلدة حول هذه القصبة والتي يبدو أنها قد تعرضت للتدمير لاحقا في بداية القرن الخامس عشر على يد القوات المسيحية القشتالية.[4]

ويبدو أنه أمام عجز السلطات المرينية عن حماية السواحل المتوسطية للمغرب من الغارات المسيحية الإسبانية البرتغالية، وخاصة سبتة التي وقعت بيد البرتغال سنة 1415، تحولت مدينة تطوان إلى مركز للقرصنة البحرية وللجهاد ضد الغزو المسيحي الإيبيري.

وقد بدأت المدينة تسبب بذلك خسائر مادية وبشرية للقوات الإسبانية البرتغالية مما جعل العاهل القشتالي إنريكي الثالث يرسل، سنة 1400، حملة عقابية دمرت سفن القراصنة وكبدت المدينة خسائر جسيمة. تبعت هذه الحملة هجمة برتغالية محت مدينة تطوان من الخرائط حتى إعادة بنائها من طرف الأندلسيين في أواخر القرن الخامس عشر. لم تحظ تطوان، التي ظلت تفاصيل تاريخها الوسيط غير معروفة بدقة، بأهمية تاريخية إلا بعد إعادة بنائها في نهاية القرن الخامس عشر (ما بين 1484 و1485م)، من طرف مجموعة من اللاجئين الأندلسيين على رأسهم القائد العسكري الغرناطي أبي الحسن علي المنظري[5].

4- تداول هذه المعلومة عدد من المصادر والدراسات كما أشار إليها محمد بن تاويت في الدراسة المذكورة أعلاه وكذا في كتاب «التحصينات العسكرية بشمال المغرب» لأصحابه: منصور عكراش، خوصي أنطونيو مارتينيث لوبيث والعربي المصباحي.

5- ابن عزوز حكيم، «التطور الطبوغرافي لمدينة تطوان»، مجلة «تطوان» عدد 4، 1994.

القصر الملكي،
زخرفة تقليدية من الحديد المشكل.

ويجدر بالذكر أن إعادة بناء تطوان تمت في ظل فترة استثنائية من تاريخ المغرب والمغرب الشمالي على الخصوص حيث كانت جل الموانئ والمدن الساحلية، كسبتة وطنجة والقصر الصغير وأصيلة وترغة، قد سقطت تحت السيطرة الاستعمارية للبرتغال.

من جهة أخرى، لم تكن إعادة بناء المدينة مجرد مشروع حضاري معزول، بل نعتقد أن إعادة إحياء المدينة كان يندرج ضمن سياق سياسة دفاعية جديدة للسلطات الوطاسية بالتعاون مع بعض العناصر المحلية من المجاهدين والوافدين الجدد من الأندلس.

إذا كانت إعادة بناء تطوان قد تمت لتوفير شروط الاستيطان والحماية للجالية التي استقرت بهذه الربوع، فإن المدينة لم تتأخر في تبوء مكانة متميزة كمركز حضري ونقطة قوة على الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط، منافسة بذلك مدينة سبتة في أدوارها ووظائفها التاريخية كأهم المراكز والموانئ على مضيق جبل طارق.

ووتجدر الإشارة كذلك أنه خلال هذه الفترة الأندلسية التي تمتد من نهاية القرن الخامس عشر إلى غاية القرن السابع عشر، عرفت المدينة، خاصة بعد وصول الموريسكيين المطرودين من إسبانيا إثر اعتماد الملك فيليبي الثالث مرسوم طرد مسلمي إسبانيا، تطورا عمرانيا كبيرا تجسد في التوسع الطبوغرافي الذي شهدته المدينة في هذه الفترات.

و ابتداء من سنة 1913 وعلى إثر فرض الحماية الإسبانية على شمال المغرب وبعدما تم اختيار تطوان كعاصمة إدارية وثقافية لمنطقة الحماية، عرفت المدينة تطورا عمرانيا جديدا تجسد في بناء حي ومركز حضري جديد للمدينة وهو الحي الكولونيالي الذي بني غرب المدينة القديمة.

محطة السكك الحديدية القديمة، (متحف الفن المعاصر)، حاليا.

شارع محمد الخامس،
واجهات مركبة (مرحلة الحماية) يمينا.

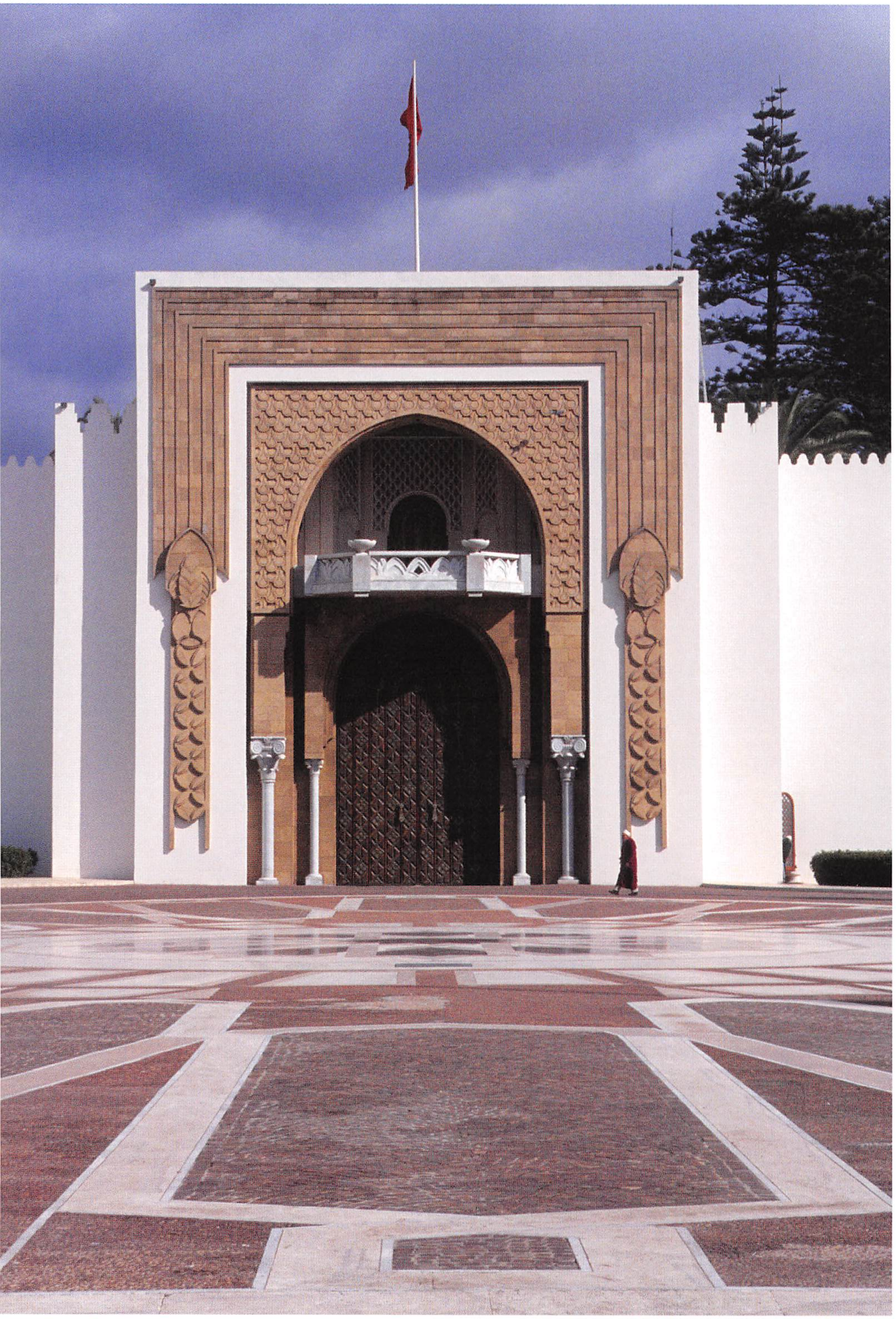

القصر الملكي،
الساحة وبوابة الدخول الفخمة (إعادة تهيئة النصف الثاني من القرن العشرين) يسارا.

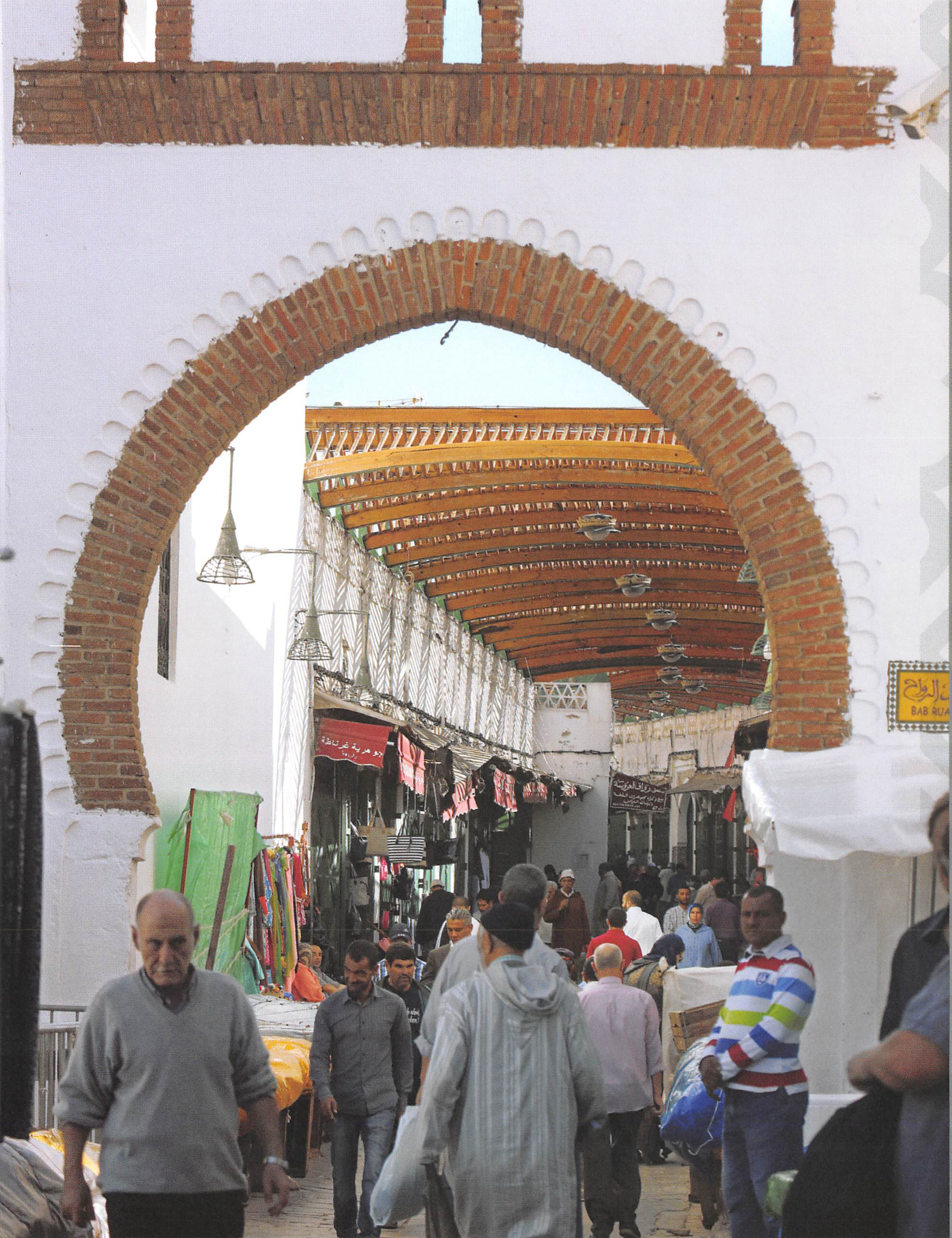

الأهمية العمرانية

إن مدينة تطوان االقديمة هي نتاج مسار تطور تاريخي جد طويل ونتيجة عمليات هدم وإعادة بناء متتالية، كما أنها نتيجة عملية تأقلم مع المعطيات الطبوغرافية والتطور السياسي الذي عرفته المدينة.

إن المدينة التاريخية لتطوان كما هي محددة في وثائق التعمير وكما هي معاشة من طرف ساكنتها وأيضا كما يتمثلها زوارها، تتكون من وحدتين عمرانيتين مختلفتين : المدينة القديمة والحي الكولونيالي اللذان يشكلان معا فضاء عمرانيا متناسقا يعكس التبادل الثقافي والحضاري المستمر منذ القرن الخامس عشر.

المدينة القديمة

تتجسد في المدينة المسورة التي استمر تشكلها وتطورها العمراني بشكل متتال منذ تأسيس المدينة في العصر الوسيط إلى فترة الحماية الإسبانية في بداية القرن العشرين، وتتشكل من مربعين يشكلان معا شكلا هندسيا مثمنا، تغطي المدينة القديمة مساحة 50 هكتارا وتحيط بها أسوار تاريخية تمتد على مسافة خمس كيلومترات والتي يرجع تاريخ بنائها في المجمل إلى القرن الثامن عشر.

رغم ذكر المدينة في المصادر التاريخية منذ الفترة الوسيطية وأمام غياب الأدلة الأثرية المادية حول هذه المرحلة، يمكن القول إن المدينة في شكلها وهيئتها العمرانية الحالية تعود في مجملها إلى فترة القائد سيدي علي المنظري والأسر الأندلسية التي توالت على حكم المدينة من ما بين القرن الخامس عشر والثامن عشر الميلاديين.

باب الرواح،
صلة وصل بين المدينة العتيقة وبين الملاح والحي الإسباني.

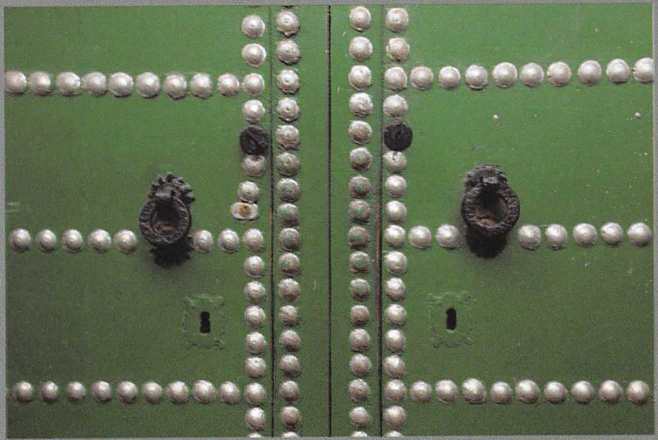

نموذج لباب وللترصيع التقليدي.

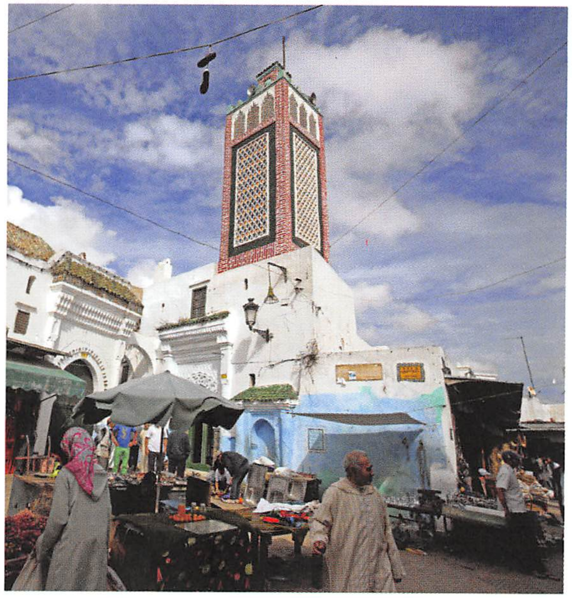

مدينة تطوان،
منارة وجامع سيدي علي
بركة (السوق الفوقي).

مولاي محمد الترنكات،
الزاوية.

حسب ما استخلصه الأستاذ المؤرخ ابن عزوز حكيم[6] فقد مرت المدينة بأربع عشرة مرحلة في تطورها العمراني، كما تتشكل من ستة أحياء رئيسية مرتبطة بعضها ببعض والتي امتد تاريخ تكونها كما أشرنا منذ نهاية القرن الخامس عشر إلى نهاية القرن التاسع عشر.

حي حارة البلد يقع في وسط المدينة ويضم أحياء المطامر، فندق النجار، حي المسجد الأعظم، حي الملاح القديم، حي النجارين، حي الدباغين، الوسعة وحصن سيدي المنظري بسوق الحوت القديم بالإضافة إلى مسجد القصبة ويتعلق الأمر بحي تم بناؤه في نهاية القرن الخامس عشر بعد وفود أولى العائلات الغرناطية التي استوطنت المدينة في الفترة الوطاسية.

حي الرباط السفلي وهو يضم حي المنجرة، السويقة، السويقة وباب الرموز. ويبدو أن بناء هذا الحي قد تم في بداية القرن السادس عشر من أجل توطين العائلات الأندلسية الجديدة.

6- ابن عزوز حكيم، مرجع مذكور.

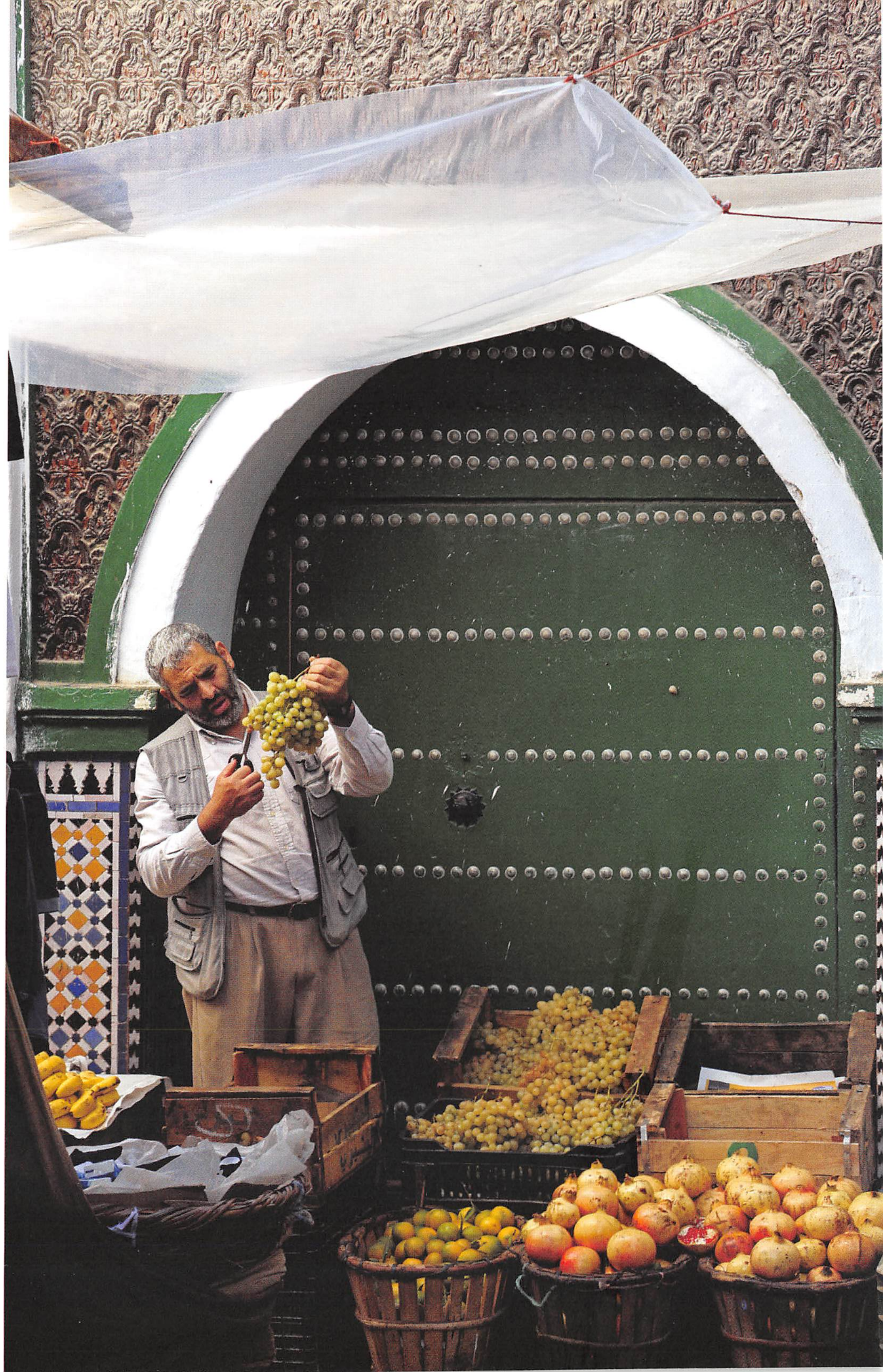

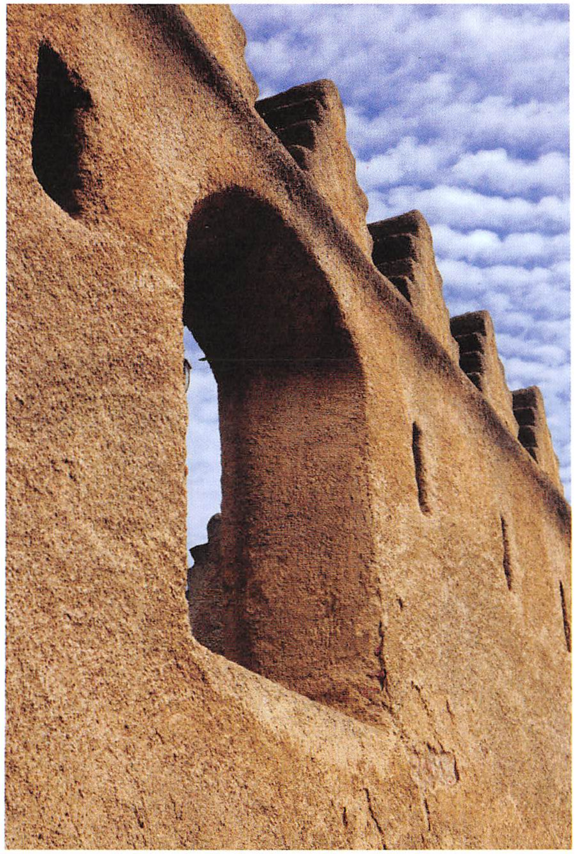

باب عقلة،
مدافع.

الخياطين،
منظر من ساحة الوسعة.

حي الرباط الأعلى : ويضم حي الطالعة، الصياغين والخرازين. وقد تم بناء هذا الحي في منتصف القرن السادس عشر من أجل مواجهة الهجرة الأندلسية الكثيفة التي عرفتها المدينة.

حي رباط الأندلس : والذي يضم حي العيون، الطرانكات وباب النوادر وقد تم بناؤه في بداية القرن السابع عشر لاحتضان المهاجرين الموركسيين الذين طردوا من الأندلس.

حي سيدي الصعيدي: وقد تم بناؤه في منتصف القرن السابع عشر لتوطين العائلات الموركسية الجديدة.

حي الملاح الجديد : والذي تم بناؤه بأمر من السلطان المولى سليمان سنة 1808 على أرض سلطانية في الناحية الغربية من المدينة بعيدا عن الأحياء التاريخية.

ان مختلف هذه التوسعات العمرانية كان يرافقها إحداث وبناء المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والعسكرية الضرورية لأمن المدينة ومن أجل تأمين حاجيات السكان الدينية والتجارية والخدماتية وغيرها.

Resta
Riad

باب المقابر،
منظر من الخارج (في العمق،
باب الزاوية الحراقية).

جزء من باب نموذجي لبيت بورجوازي.

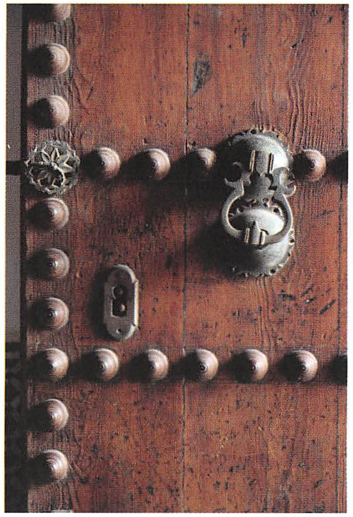

ونشير إلى أن المدينة كانت محاطة بنظام من الأسوار والأبراج المزودة بعدد من المدافع من أجل ضمان حمايتها من الإخطار التي كانت تتهددها.

الحي الكولونيالي أو المدينة الحديثة

تضم الحي الذي تم بناؤه خلال فترة الحماية الإسبانية ما بين 1913 و1956 بغرب المدينة القديمة، بناءا على رؤية عمرانية غربية ترتكز على تصميم متقاطع مكون من شوارع رئيسية تتقاطع مع أخرى أقل أهمية، حيث تتشكل عبر هذه التقاطعات مناطق عمرانية خصصت للسكن وبناء المرافق الإدارية والتجارية والثقافية التي تحتاج إليها المدينة الحديثة. وبملاحظة التصميم العام لهذا الحي نلاحظ أن التناسق العمراني للحي يتمحور حول ساحتين أساسيتين : ساحة مولاي المهدي التي تشكل مركز المدينة الحديثة حيث تلتقي وتتقاطع أهم شوارع المدينة والتي أحيطت بمجموعة من المباني ذات هندسة معمارية بالغة الأهمية والرمزية مثل بناية البريد، الكنيسة وبناية القنصلية الإسبانية وعدد من العمارات السكنية التي تتميز بتناسقها المعماري وزخرفتها المتنوعة، ومن جهة أخرى توجد ساحة إسبانيا (أو ساحة الفدان كما يسميها أهل تطوان) نقطة ربط واتصال مع المدينة القديمة.

مدرسة الفنون والحرف التقليدية،
البناية الرئيسية ودرج يؤدي إلى الحديقة الداخلية.

إن الحي الكولونيالي تم بناؤه تبعا لتصميم عمراني يراعي استمرار العلاقة مع المدينة القديمة من خلال ساحة حديقة تم إحداثها بمكان السوق القديم بمدخل باب الرواح، ومن جهة أخرى من خلال الشارع الذي يمر بمحاذاة الأسوار التاريخية انطلاقا من ساحة الفدان إلى باب النوادر، مبرزا بذلك فضاء انتقاليا يضمن المحافظة على خصوصية المدينة القديمة ويعمل على تثمين الحي الكولونيالي.

التراث الأركيولوجي والمعماري

يتجلى هذا التراث أولا في التخطيط العمراني التقليدي للمدينة الذي يشكل عنصرا ثقافيا بامتياز يرتكز على شبكة تراتبية من الطرقات والأزقة تميز بين طرق رئيسية تربط الأبواب فيما بينها وطرق ثانوية التي تسمح بولوج الأحياء السكنية والحرفية، كما تنفرد المدينة بنمط استعمال الأراضي بناء على معايير وظيفية تميز بين فضاءات السكن، فضاءات التجارة، الفضاءات الحرفية ثم فضاءات العبادة والخدمات.

بالإضافة إلى هذا التنظيم المجالي فإن المدينة تتميز بمجموعة من العناصر المعمارية والهندسية العمودية كالقباب والصوامع والسقايات، التي تكون علامات بصرية داخل المجال الحضري فضلا عن كونها تعكس، من خلال زخرفتها، الذوق الفني للساكنة.

من ناحية أخرى فإن المدينة القديمة لتطوان تضم عددا من المواقع الأثرية والمعالم الهندسية التي تتميز بأهميتها الثقافية والهندسية والفنية والتي تساهم أيضا في تقوية جاذبية المدينة من الناحية السياحية. ومن هذه المواقع ما يلي:

الساحات العامة : الغرسة الكبيرة ، الوسعة، تربيعة الكُوزة، السوق الفوقي

المتحف الإثنوغرافي،
منظر من الداخل.

بالمدينة القديمة وساحة مولاي المهدي بالحي الكولونيالي والتي بالإضافة إلى كونها تشكل نقطة ارتكاز داخل المجال الحضري فإن هذه الساحات والمجالات تلعب دورا مهما في الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية للمدينة.

المواقع والمعالم ذات الطابع الأركيولوجي

حصن سيدي المنظري الذي لا زالت بقاياه ظاهرة بزقاق سوق الحوت القديم وسط المدينة بحارة البلد. ويعتبر هذا الحصن الذي تم بناؤه من طرف القائد سيدي علي المنظري معيد بناء المدينة في نهاية القرن الخامس عشر، والذي يعتقد أنه بني فوق أنقاض وبقايا القصبة المرينية التي بناها أبو يوسف يعقوب في سنة 1286. يتخذ هذا الحصن شكل مربع يبلغ طول ضلعه المحافظ عليه حوالي 65 م وقد كان هذا الحصن بمثابة مدينة محصنة هي في نفس الوقت حي إداري ومكان إقامة للقائد المشرف على المدينة بالإضافة إلى دورها كموقع عسكري هام. يمتد هذا الحصن على مساحة تقدر بحوالي 4000 م^2 ويبلغ ارتفاع أسواره أكثر من عشرة أمتار وسمكها متران، وكانت تتخلل هذه الأسوار أربعة أبراج مربعة في كل ركن من أركانه وأكثر من ذلك على طول الأسوار الأربعة. وقد كانت هذه الأسوار مجهزة، بممشى للجنود يحيط بالقصبة من جهاتها الأربع.

قصبة جبل درسة: وهو موقع يقع على المسطح الذي يعلو المدينة من الناحية الشمالية في أعلى نقطة بجبل درسة حيث يشرف على كامل المدينة. لقد تم بناء هذه القصبة خارج المدينة القديمة التي تنفصل عنها بواسطة سور من الناحية الشمالية. يتخذ هذا الموقع شكل مستطيل ويظهر به عدد من البقايا الأثرية التي لا نعرف أصلها وهو محاط بسور تتخلله عدة أبراج دائرية.

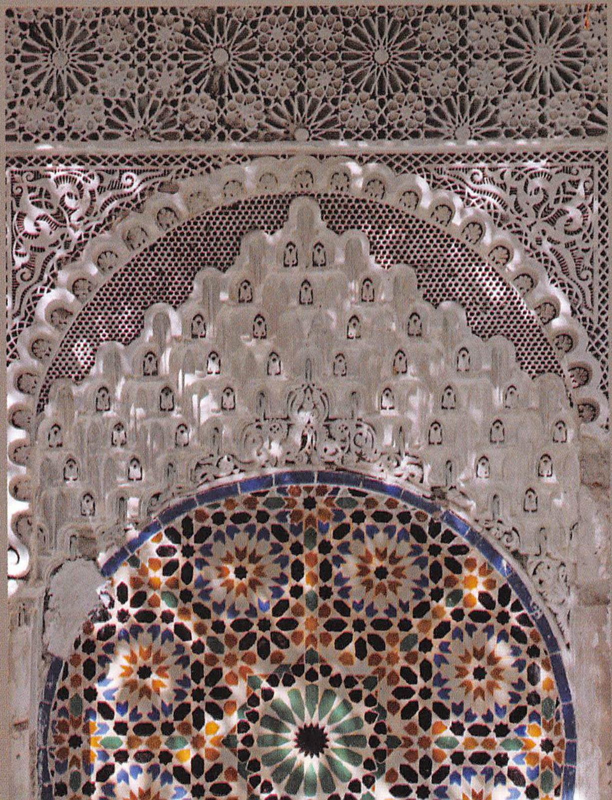

تنسيق تزييني
لنافورة جدارية.

باعتبارها ذات أصول غير معروفة، فإن قصبة جبل درسة قد تكون بنيت على بقايا القصبة المرينية وقد تكون أيضا هي نفسها قصبة الديب الشهيرة التي وصفها بعض المؤرخين. وفي كل الحالات، فإن قصبة درسة، التي تحولت خلال فترة الحماية الإسبانية إلى ثكنة عسكرية، تحظى بأهمية أثرية وتاريخية وسياحية بالنسبة للمدينة.

حي سيدي عبد القادر التبين : استنادا إلى بعض النصوص التاريخية فإن سيدي عبد القادر التبين قد استقر بمدينة تطوان خلال القرن الثاني عشر بحي المنجرة حيث بنى له ولأتباعه بعض الدور ومسجدا وسوقا. ويعتقد أن البقايا الأثرية لهذا الحي لا زالت قابعة في عمق الأرض تحت البنايات الجديدة التي عوضت القديمة.

المنظومة الدفاعية التاريخية : وتظم بقايا الأسوار التاريخية التي كانت تحيط بالمدينة من كل الجوانب والأبواب التي كانت تنظم عملية الدخول والخروج من وإلى المدينة ومجموع التحصينات التي بنيت عبر مختلف المراحل التاريخية منذ القرن الخامس عشر إلى غاية القرن الثامن عشر. وتكتسي هذه التحصينات، كنظام دفاعي، أهمية أثرية وتاريخية من أجل دراسة التطور الطبوغرافي للمدينة وأدوارها العسكرية.

المطامر التاريخية : يتعلق الأمر بفضاء تحت-أرضي يمتد تحت حي المطامر، وهو يتكون من عدة تجويفات طبيعية تشكلت بفعل عوامل طبيعية، كما يبدو أنها استفادت من عملية للتهيئة خلال بعض الفترات التاريخية، حيث تم تحويلها إلى فضاء سجني لحبس المعتقلين الذين كان يتم القبض

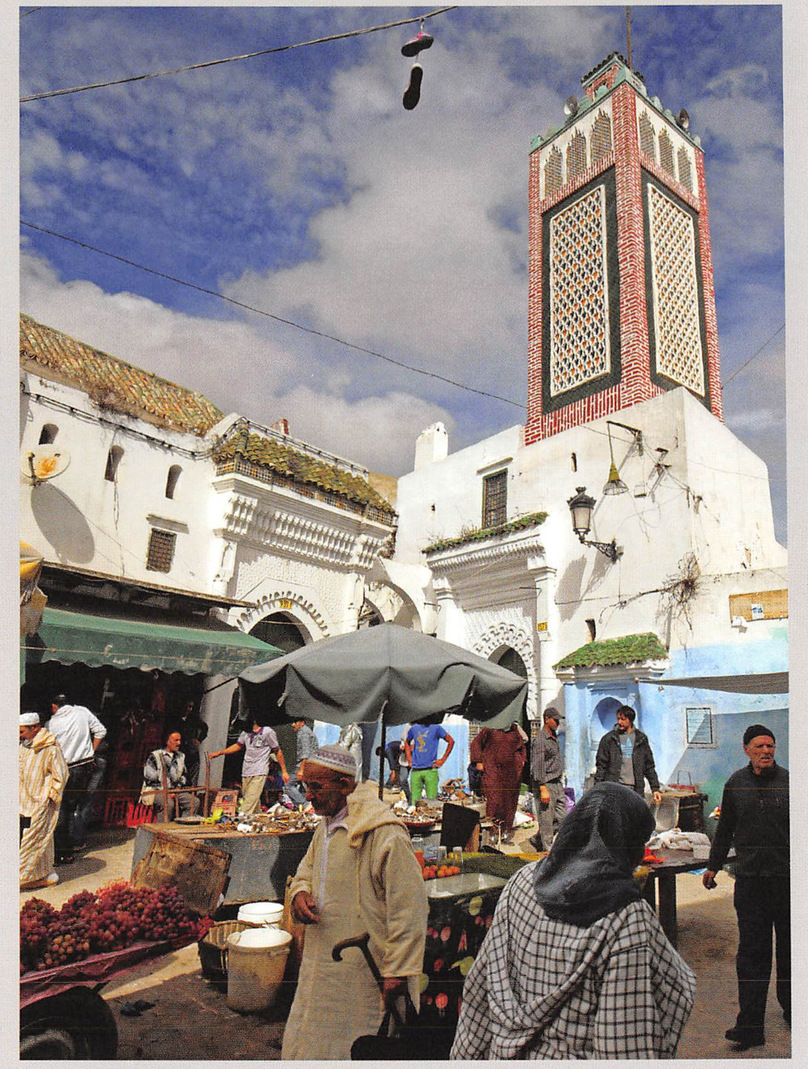

المدينة العتيقة،
السوق الفوقي.

السبات،
زقاق مغطى.

المدينة العتيقة،
الحياة الاجتماعية والتجارية.
(صفحة اليمين).

تطوان،
جامع الباشا.

عليهم خلال الهجمات والعمليات الفدائية التي كان ينفذها قادة الجهاد بالمدينة. وبالاعتماد على الوصف الذي تركه مارمول كربخال في كتابه «الوصف العام لإفريقيا»، يبدو أن هذه المطامر كانت موجودة ومستعملة منذ عهد القائد أبي الحسن علي المنظري أي منذ نهاية القرن الخامس عشر، إذ كان يحبس فيها السجناء المسيحيين الذين كان يأسرهم أثناء الحروب التي كان يشنها ضد برتغاليي سبتة.

المعالم والمباني ذات الطابع الديني والثقافي

المساجد التاريخية : إن مدينة تطوان العتيقة تضم حوالي عشرين مسجدا تاريخيا تم بناؤها خلال مختلف المراحل التاريخية للمدينة، نذكر منها : جامع القصبة الذي يقع داخل قصبة سيدي المنظري والذي يعود تاريخ بنائه إلى القرن الخامس عشر، جامع الرزيني بالسويقة والذي تم بناؤه من طرف عائلة الرزيني الأندلسية في نهاية القرن السادس عشر، الجامع الأعظم الذي يقع بحي البلد بالقرب من الملاح القديم، والذي يعود تاريخ بنائه إلى فترة السلطان مولاي سليمان في سنة 1808.
باستثناء مسجدي الباشا ومسجد سيدي علي بن ريسون اللذين يتميزان بصومعتهما المثمنة الشكل والتي تتميز أيضا بزخرفتها الخارجية ذات الأشكال الهندسية والزليج التقليدي الملون، فإن مساجد تطوان تتميز بصوامعها ذات الشكل المربع طبقا للتقليد المغربي الأندلسي وبزخرفتها البسيطة المكونة أساسا من أشكال هندسية مشكلة من مادة البناء نفسها بغض النظر عن التدخلات اللاحقة التي غيرت طبيعة هذه الصوامع.

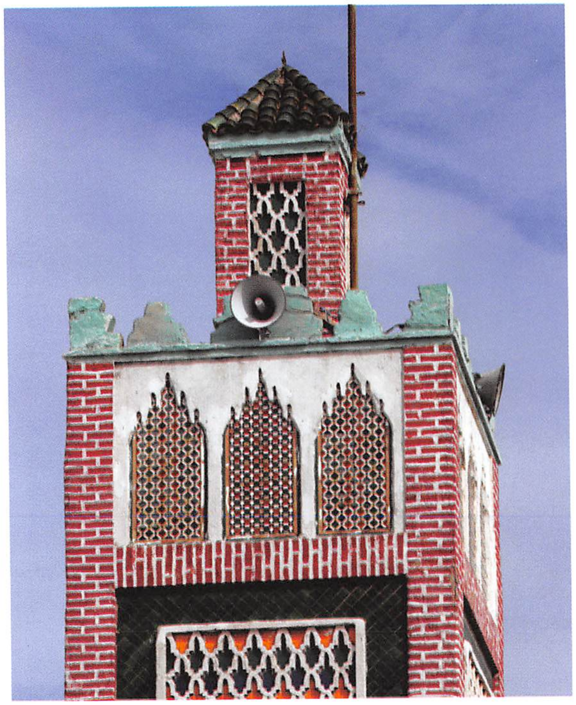

زاوية سيدي علي بركة،
جزء من الصومعة.

وتتكون هذه المساجد من قاعة للصلاة تتكون هي الأخرى من ثلاثة إلى خمسة أروقة، في غالبيتها متعامدة مع جدار القبلة، والتي تعلوها أسقف مائلة ذات بنية خشبية تكون في بعض الأحيان مزخرفة بأشكال هندسية وزهرية بألوان مختلفة. تشكل هذه المساجد جزءا مهما من التراث المعماري للمدينة القديمة كما تشكل شاهدا ماديا على الحياة الثقافية والدينية بالمدينة.

البيع اليهودية والكنائس المسيحية : تضم مدينة تطوان كنيستين كاثوليكيتين، نوتردام دو لا فيكتوار (Notre Dame de la Victoire)، بساحة مولاي المهدي وكنيسة ونوتردام دو بيربيتوو (Notre Dame de Perpetuo)، بحي الباريو، كما يحتضن حي الملاح الجديد أكثر من خمس بيع للديانة اليهودية. وفضلا عن الخاصيات الهندسية والفنية التي تميز هذه المرافق، فإن استمرار وجودها يدل على فضيلة التعايش الديني والثقافي الذي ميز مدينة تطوان عبر تاريخها الطويل.

البنايات السكنية : إن مدينة تطوان القديمة تحتضن عشرات الرياضات والمنازل الكبيرة والقصور التي تعطي فكرة عن المستوى المعيشي والاقتصادي والثقافي لأهل المدينة، نذكر من بينها : قصر بريشة، قصر البادي، دار الرزيني، دار الطريس، هذه الدور التي تتميز بكبرها وبزخرفتها الداخلية التي تمزج بين مختلف المكونات الزخرفية المغربية الأندلسية الإسلامية والتي ترتكز على الاستعمال الدقيق والمتوازن لعدد من المواد : الخشب المزخرف، الخشب المنحوت، الزليج الملون، الجبص المنحوت ، المرايا الثريات إلخ.، والتي تضفي على هذه المنازل رونقا.

شارع محمد الخامس،
النشاط الاجتماعي والمحيط الحضري بالحي الإسباني حيث يبرز تنوع الأساليب المعمارية والتزيينية.

تطوان،
منظر طبيعي وفلاحي في محيط المدينة.
(الصفحة المزدوجة الموالية).

وليلي

تراث ثقافي مغربي

تراث مادي للإنسانية

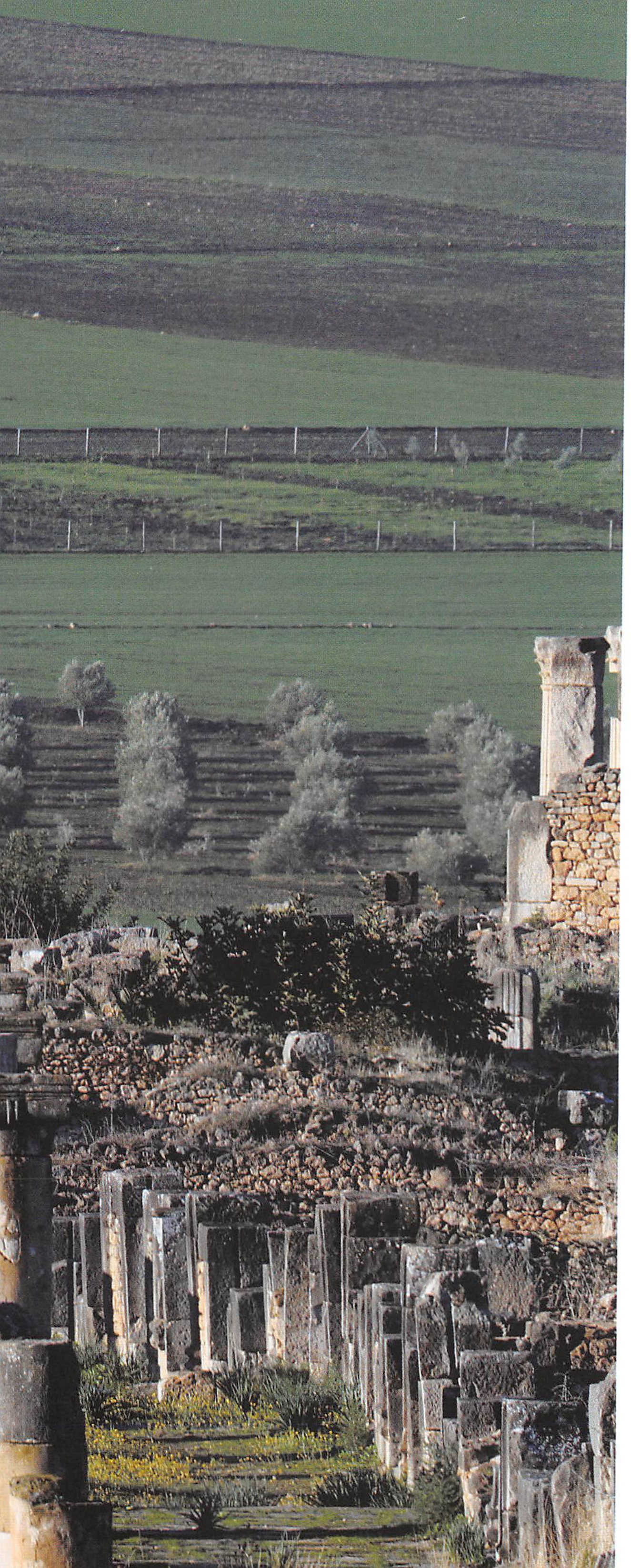

الديكومانوس ماكسيموس،
منظر للموقع وقوس النصر المهدى إلى الإمبراطور كاراكلا ووالدته، في العمق.

وليلي

تراث مادي للإنسانية

محمد اكبيري علوي

المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث ، الرباط.

يوجد موقع وليلي على بعد 3 كلم من مدينة مولاي إدريس زرهون، وثلاثين كلم من مدينة مكناس وحوالي ستين كلم من مدينة فاس.

لقد استقر الإنسان بهذا الموقع منذ العصر الحجري الحديث لوجوده في منطقة خصبة وافرة المياه وذات طقس ملائم، إضافة لوجوده بمحاذاة السهل غير البعيد عن منحدرات جبل زرهون، وهو موضع تسهل عملية الدفاع عنه. وتقع المدينة القديمة لوليلي على هضبة بعلو 400 متر في المتوسط، يعبرها نهر فرطاسة من الشرق، ويحيط بها واد خومان من الجنوب والغرب.

وإذا كان هناك إجماع على أن اسم وليلي هو اسم محلي تسرب إلى اللاتينية كما تشهد على ذلك العديد من المصادر[1] ومجموعة من النقائش التي عثر عليها في الموقع، فمن المرجح أن هذا الإسم الذي لم يفصل بعد في أصله، اشتق من « أليلي»، أي نبتة الدفلى باللغة الأمازيغية، وهي شجيرة

1- نذكر من بين هذه المصادر : بومبونيوس ميلا (Pomponius Mela)، «وصف العالم». III. X.V., III, X. V. بالنسبة لهذا المؤرخ الذي عاش في عهد الإمبراطور كلاوديوس، هي واحدة من بين ثلاثة مواقع داخلية متواضعة إلى جانب جلدة (Gilda) وبرسكيانا (Prisciana)؛ في وصفه لموريطانيا حوالي 77 م، يذكر بلينيوس الشيخ (Pline l'Ancien) HN, V, 2, 3, 5، وليلي بصيغة *Volubile oppidum*، ويوطنها على بعد متساو من البحرين : البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي ؛

يذكر المؤرخ بطليموس [Ptolémée, *Tingitane*، 7 نقلا عن R. Roget, *Le Maroc chez les auteurs anciens*, 1924, p. 38]، (حوالي 140 م) وليلي بصيغة Ouoloubilis ويوطنها في 8° 15' بالنسبة لخط الطول و 33° 40' بالنسبة لخط العرض ؛

Itinéraire d'Antonin, voir R. Roget, d'après Lapie, *Recueil des itinéraires anciens*, Paris, 1844,

يعود المسلك الأنطونيني إلى القرن الثالث للميلاد وهو يذكر الطرق الرومانية لولاية موريطانيا الطنجية انطلاقا من طنجس، وقد وطن وليلي على بعد 149 ميلا من طنجة و 3 أميال من المعسكر الروماني طوكولوسيدا.

l'Anonyme de Ravenne III, 11 ، جغرافي من القرن الثامن الميلادي، ذكرها بصيغة بوبابيلي (Bobabili) كواحدة من بلدات موريطانيا المعروفة في عصره.

موجودة بوفرة على حافتي واد خومان. وظهر هذا الاسم، في وقت متأخر، بصيغة أخرى هي : «وليلى» في المصادر العربية، من جهة، والمسكوكات من جهة أخرى، سواء منها التي ضربت في الفترة ما قبل الإدريسية أوالفترة الإدريسية[2]. ومع مرور الزمن، أصبح هذا الاسم غير متداول تاركا مكانه لاسم أسطوري هو «قصر» «فرعون»، نُسب إلى الموقع منذ مدة طويلة ومازال يذكره البعض حتى اليوم.

وبناء على الأبحاث التي أجريت بالموقع، يمكن استحضار محطتين تاريخيتين هامتين. أولاهما تعود إلى سنة 1721 حينما قام الإنجليزي هينري بويد (Henry Boyde) والذي كان أسيرا في مكناس، بزيارة وليلي وأنجز رسومات لقوس النصر، ولقصر العدالة، وباب طنجة، وهي المعالم الأثرية التي لم تكن آنذاك تحت الأنقاض. وقد قام جون ويندوس (John Windus) سنة 1725 بنشر تلك الرسومات التي من المحتمل أن تكون أقدم رسم مصور لوليلي[3]. وثانيهما، وهي الأقرب إلينا، ترجع بالضبط إلى 6 دجنبر 1997 حين سجلت وليلي بمدينة نابولي الإيطالية ضمن لائحة التراث العالمي. بين هاتين المحطتين، يمكن حصر كل الأبحاث التي أنجزت في الموقع وما أسفرت عنه من اكتشافات لمباني ولقى أركيولوجية مختلفة. هكذا، انطلقت أولى الاكتشافات بالموقع في بدايات

2– بالنسبة للمسكوكات، أنظر: Eustache, D. : «Monnaies musulmanes trouvées dans la maison au compas», *BAM* 6, 1966, p. 349-364 ; Id., Corpus des dirhams idrissides et contemporains, Collection de la banque du Maroc, Rabat, 1971, p. 258-266.
Ichkhakh, A., «Le quartier de l'arc de triomphe, la rive nord du decumanus maximus», thèse pour l'obtention du diplôme de IIIe cycle des sciences de l'archéologie et du patrimoine, Touri, Akerraz, dir., 2001, p. 229, n.5 (=Ichkhakh 2001).
بالنسبة لبعض المصادر العربية، أنظر:
Panetier, J.-L., *Volubilis. Une cité du Maroc antique*, Maisonneuve et Larose, 2002, p. 18-20.

3- J. Windus, *A journey to Mequinez*, 1re éd., Londres, 1725 ; 2e éd., Dublin, 1726.
تعتبر رسومات جون ويندوس من أحسن الرسومات القديمة المتوفرة حول موقع وليلي، مقارنة بتلك التي أنجزها هنري بويد في سنة 1721؛ وتبقى حسب الباحث ريموند لوكي أقل دقة. وبالرغم من ذلك إنها تشهد على الحالة المتردية للمعلمة.
Voir : Luquet, « La basilique judiciaire de Volubilis », *BAM* 7, 1967, p. 410 =Luquet 1967.

المدينة الرومانية،
منظر للحي الكبير (معبد البازليك يمينا والكابيتول يسارا).

القرن التاسع عشر، قادها دبلوماسيون فرنسيون لعل أبرزهم شارل تيسو (Charles Tissot) الذي عمل قنصلا في مدينة طنجة، وتابع أبحاثه هنري دولامرتينيير Henry de Lamartinière حيت كللت بنتائج مبهرة منها اكتشافه للمقبرة الشمالية-الغربية والسور المتأخر الذي تم التعرف عليه حينئذ واعتبر « سورا بيزنطيا »[4]. بعد ذلك، ومنذ بدايات القرن العشرين، فتحت أوراش كبرى للتنقيب تزامنت وإحداث مصلحة للآثار اتخذت من وليلي مقرا لها منذ ماي 1915. هكذا، ومع تزايد وتيرة الأشغال، تم الكشف تباعا عن الشارع الرئيسي للمدينة (*decumanus maximus*)، وقوس النصر والفوروم أي الساحة العمومية للمدينة، التي تم العثورفيها على أولى النقائش اللاتينية قبل أن يتأكد الباحثون فيما بعد من أن الموقع يزخر بعدد هائل من هذه الوثائق القيمة.

فسيفساء الدلافين،
تفاصيل تزين إحدى قاعات الاستقبال في منزل أورفيوس.

4- Akerraz A., «Note sur l'enceinte tardive de Volubilis», 108[e] congrès national des sociétés savantes, II[e] colloque international sur l'histoire et l'archéologie de l'Afrique du Nord, *BCTH*, 19 B, 1985, p. 429-436 =Akerraz 1985.

بعد التنقيبات التي أجريت في مجالات مختلفة من الموقع وبشكل متفرق، أنجزت دراسات وأبحاث منتظمة وممنهجة في مجموعة من الأحياء والمباني الكبرى. وقد مكنت التنقيبات الاستراتيغرافية، علاوة على تدقيق كرونولوجية المعالم المكتشفة، من الوقوف، بشكل عام، على التطور العمراني للمدينة. ثم انصب الاهتمام بعد ذلك على فحص فترات الاستيطان البشري التي لم تنل حظها من الدراسة، وهي الفترة المورية والفترة المتأخرة التي جرت العادة نعتها بـ « القرون الغابرة ». هكذا، ففي الوقت الذي تم فيه إبراز طابع الفخامة الذي ميز الاستيطان الروماني للموقع بشكل واضح، أكدت أبحاث أخرى على الأهمية القصوى من الناحية التاريخية والأركيولوجية لمراحل التعمير الأخيرة التي عرفها الموقع، وخاصة منها المرحلة الإسلامية.

المعلمة ووقيمتها العالمية الاستثنائية

إن تسجيل موقع وليلي ضمن لائحة التراث العالمي هو اعتراف من المنتظم الدولي بما يحمله هذا التراث المادي من قيمة فريدة. ونلمس ذلك من خلال تجليات عديدة. في المقام الأول، يمكن القول بأن وليلي من المواقع النادرة التي يمكن اعتبارها، في الآن نفسه، نتاجا للإنسان ونتاجا مشتركا بين الإنسان والطبيعة. بمعنى أنه من الصعب تصور الموقع بمعزل عن المجال الطبيعي الذي يوجد به. ويمكن تلمس ذلك من خلال قوس النصر، وهو مبنى ضخم شيد سنة 217 م، إهداءا للإمبراطور كاراكالاّ وأمه يوليا دومنة، شكرا وامتنانا على إعفاء المدينة من الضرائب كما تشهد على ذلك نقيشة القوس. وكان يعلوه تمثالا الإمبراطور كاراكالاّ وأمه، وهو يقود عربة نصر تجرها ستة خيول، لم تصلنا منها سوى ثلاث قطع . يوجد المبنى وسط المدينة، عند انتهاء إحدى طرق الحي الغربي حيث يوجد مدخل ساحة يؤدي إليها الشارع الطولي - العرضي أوالديكومانوس (*decumanus*). ويشكل هذا الموقع الذي ينفتح

الديكومانوس ماكسيموس،
منظر من خلال إحدى فتحات باب طنجة.

البازيليك القضائية،
منظر من المنزل ذي الأعمدة.

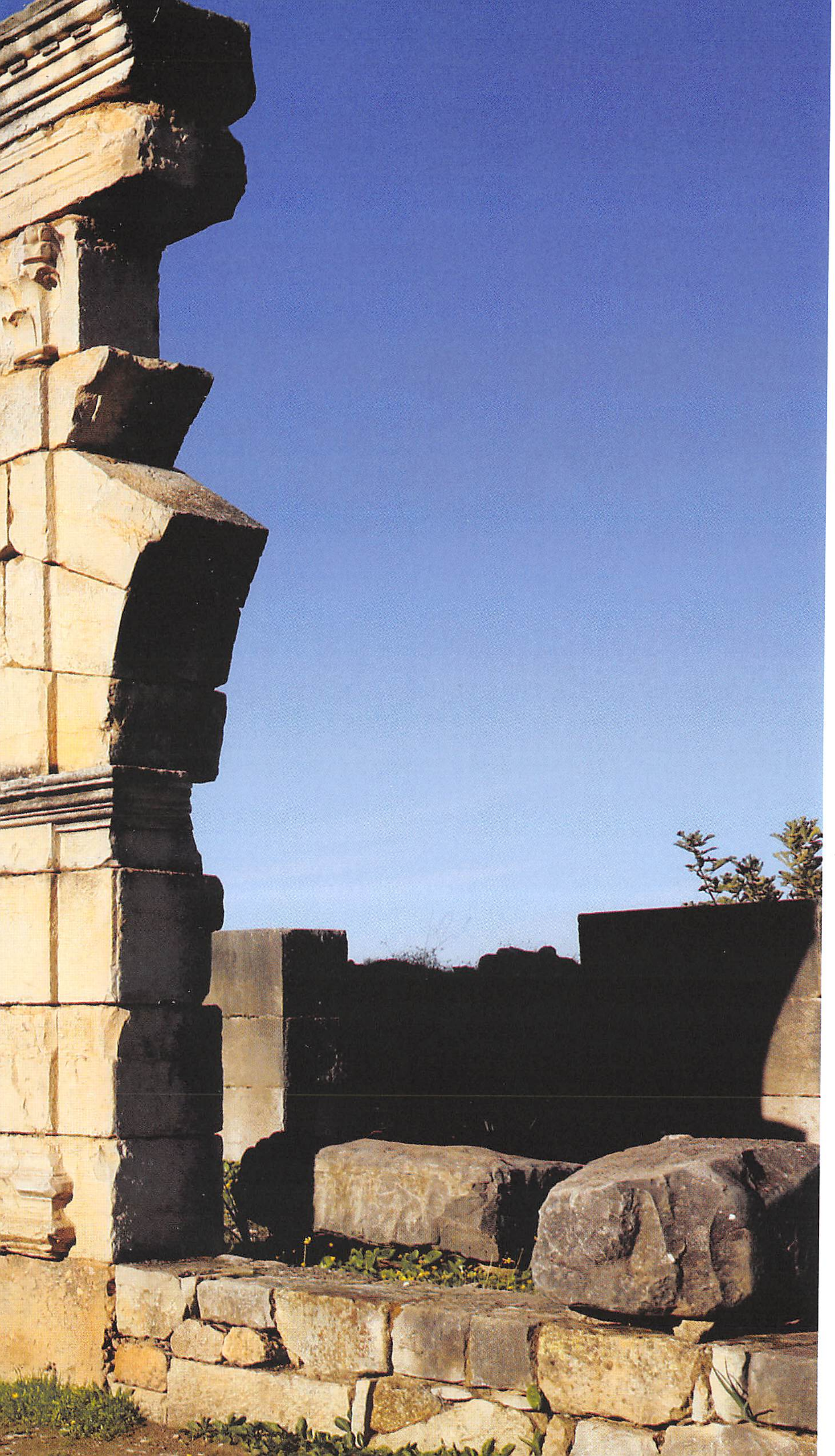

الديكومانوس ماكسيموس،
منظر لواجهة المدخل وفي العمق
قوس النصر.

بشكل واسع على سهل بلاد الكَعدة في الاتجاه الجنوبي والجنوبي-الغربي، يشكل موقعا متميزا جعل من هذا المبنى معلمة للدعاية لسلالة سيويروس الحاكمة، ورمزا من رموز النفوذ الروماني الموجه لساكنة المدينة وضواحيها على حد سواء، معلمة تذكرهم بالسلطة المطلقة لروما التي لا تقهر. هذا، ومن المعلوم بأن علاقات هذه الأخيرة مع ضواحي المدينة لم تكن دوما باليسيرة كما تدل على ذلك العديد من مذابح السلام (*ara pacis*) التي تخلد معاهدات، قد تكون معاهدات صلح، بين روما وأمراء قبائل البكواط[5]. وفي كل الأحوال، من المرجح أننا لسنا أمام معاهدات لـ « إرساء أو إعادة إرساء السلم، ولكن لتثبيته »[6]، بحيث إنه كان يتم تجديدها كلما تولى حاكم جديد السلطة على رأس قبائل البكواط، ما يعني أن هذه المعاهدات يمكن اعتبارها كذلك اعترافا من لدن السلطة الرومانية بالحاكم الجديد.

وليلي : تجمع سكني موري

تستند القيمة العالمية الاستثنائية لمدينة وليلي في المقام الثاني على ما تحويه من آثار تعود إلى مراحل حاسمة من تاريخ المغرب. فقد كانت وليلي في الأصل من بين التجمعات السكنية البالغة الأهمية داخل مملكة موريطانيا الغربية التي تتمتع باستقلالها الذاتي. هكذا تشهد نقيشة الشوفيط البونية[7]، والتي تشير إلى عائلة توارث أعضاؤها مهمة القضاء كمنصب إداري، على قدم

5- Frezouls, Ed., «Les Baquates et la province romaine de Tingitane», *BAM*, 2, 1957, p. 65-116 ; Rebuffat, R., *Pour une histoire événementielle du Maroc antique*, 1[res] Journées nationales d'archéologie et du patrimoine, 2, Rabat, 1-4 juillet 1998, Rabat, 2001, p. 36= Rebuffat 2001.

6- Rebuffat 2001, p. 36.

7-يطلق هذا الإسم على نقيشة ماركوس سيلبيكيوس فيليكس التي سيأتي الحديث عنها لاحقا. والشوفيط (suffète)، سبط بالعربية أي قاض عند الفينيقيين والقرطاجيين، يقابله praetor باللاتينية أو préteur بالفرنسية. أنظر: محمد مقدون، "ثورة أيدمون (40-44 م)"، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ القديم، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، 1984، (= مقدون 1984).

منزل فينوس،
فسيفساء ديانا وحوريات الحمّام.

هذه المؤسسة البونية من جهة، وتسمح لنا بإرجاع تأسيس المدينة إلى القرن الثالث ق.م من جهة أخرى[8]. في العهد الملكي، لم تتجاوز مساحة المدينة 12 هكتارا بحيث إن امتداد بقاياها ظل محدودا بالمقارنة مع الامتداد الذي عرفته آثار الفترة الرومانية التي تلته. هكذا بينت الأبحاث الاستراتيغرافية أن السكن الموري يمتد من الجهة الشمالية تحت أنقاض الحي العمومي الذي تمت تهيئته خلال العهد الروماني. أما من الجهة الغربية، فالمرجح أن البقايا المورية تمتد بعيدا عن المعبدين G وH. هذا، وإذا كانت معلوماتنا حول مخلفات هذه المرحلة من مراحل تعمير الموقع يشوبها الكثير من الغموض، فمرد ذلك بالأساس لما لحق بالعديد من المباني المورية من دمار أو شهدته من إصلاح وترميم، علما أنه في حالات أخرى، تغطي هذه البنايات بشكل كامل أساسات مباني الفترة اللاحقة.

لعل أبرز ما وصل إلينا من آثار هذه الحقبة، يرتبط بمبان عمومية إما دينية أو جنائزية. يتعلق الأمر بمعبد «بوني» يعود إلى أقدم مرحلة تاريخية بالنسبة للحي الجنوبي إن لم نقل بالنسبة للمدينة برمتها[9]، وسور «هلنستي» يحد المجال الحضري في الجهة الشمالية[10]، وكذلك بنايات اكتشفت جنوب هذا السور يرجح أنها لمنازل تعود للفترة الممتدة بين 120 و50 ق.م[11]. بالإضافة إلى ذلك، هناك مجموعة معابد توجد في مجال شمال-غرب الفوروم،

8- Camps, G., «Les suffètes de Volubilis aux III^{e} et II^{e} s. av. J.-C.», *BAM*, 4, 1960, p. 423-426.
لا يستند هذا المعطى على أي إثبات بحيث إن اللقى الخزفية لا تسمح لنا لحد الآن بتأريخ العهود الأولى للمدينة المورية قبل القرن الأخير قبل الميلاد.

9- Behel M., *Le versant est de la ville ancienne de Volubilis*, Thèse de doctorat, Paris-Sorbonne, 1993, p.117-144, Id., «Un temple punique à Volubilis», *BCTH*, n.s, fasc. 24, Paris, 1997, p. 25-51.
يؤرخ هذا الباحث المعبد البوني لوليلي ما قبل القرن الثاني قبل الميلاد.

10- Jodin A., «L'enceinte hellénistique de Volubilis (Maroc)», *BCTH*, n. s. 2, 1965-1966, p. 199 -221.

11- Euzennat M., *Le Limes de Tingitane. La frontière méridionale*, Paris, 1989, p. 206 et 208.

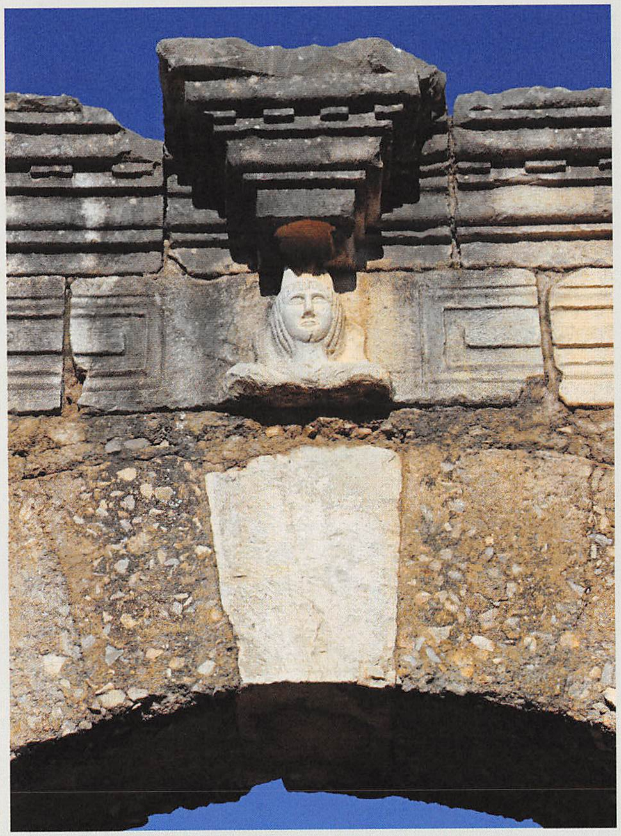

ديكومانوس ماكسيموس،
مدخل الجهة الشمالية مع منحوتة
للإلهة أفريقيا معتمرة بقايا فيل
(proboscis).

الحي الجنوبي،
ممر وأبواب دخول.
(الصفحة المزدوجة الموالية).

ومذبح لازال قائما شرق الكابتول، ومجال مقدس في القسم الشرقي من الموقع يعرف بالمعبد B، وتل جنائزي يقع وسط المدينة لازال يحتفظ بالكثير من الأسرار، وضريح يحاذي مقبرة تم التعرف عليها استنادا إلى مجموعة من شواهد القبور المكتشفة.

وليلي : حاضرة الولاية الرومانية

تعد مرحلة التعمير الثانية بوليلي أهم مرحلة على المستوى الحضري حيث إن المدينة ستعرف أقصى امتدادها العمراني ليصل 42 هكتارا. إلا أنه لا ينبغي اعتبارها كمدينة نشأت بشكل طبيعي بفعل الوجود الروماني، بل تلك المدينة التي ما لبثت أن تحولت إلى حاضرة لولاية موريطانيا الطنجية برمتها وشكلت بالنسبة للإمبراطورية، بالمقارنة مع مدن رومانية أخرى، وحدة سياسية وإدارية أساسية[12] تحتضن «ساكنة بإمكانها إدارة شؤونها بشكل مستقل»[13].

بدأت عملية الرومنة كما هو معلوم مدة طويلة قبل الغزو الروماني للمغرب سنة 40 م. بالنسبة للإمبراطورية، استطاعت وليلي بموقعها على مشارف السهل أن تقوم، إلى جانب مراكز حضرية أخرى بالمغرب القديم، بدور أداة لمراقبة المجالات الترابية التي كانت تحت النفوذ الروماني. أما بالنسبة للموريين الخاضعين، فعلى العكس من ذلك، كانت المدينة بمثابة ذلك الإطار الجديد الذي يتملكه المجتمع المحلي، إطار هوية حقيقي، بقدر ما تتبنى فيه الساكنة نمط العيش الجديد، بقدر ما يتنامى فيه شعورها بالمواطنة الرومانية بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، سواء تعلق الأمر بمواطنين حقيقيين، أو أناس لم يحصلوا بعد على هذه المواطنة وما يخوله ذلك من امتيازات لصالحهم.

هكذا، وعلى إثر إحداث ولاية موريطانيا الطنجية، تم تصميم مدينة وليلي وتخطيطها على هذا المنحى وبشكل يعكس عظمة الإمبراطورية الرومانية.

وعلى الرغم من كون مجمل الأبحاث الأركيولوجية قد انكبت على دراسة الفترة الرومانية وتمكنت من الإحاطة بالتطور العمراني للمدينة[14]، من الواضح أن مجموعة من ملامح هذا الاستيطان ما زالت لحد الآن مجهولة، حيث إن قسما كبيرا من المدينة يناهز 25 هكتارا لم يكشف عنه بعد. ويمتد هذا القسم بعيدا عن السور المتأخر. أما الأجزاء المكتشفة من المدينة فهناك مجموعة من المباني الضخمة التي ما زالت تحتفظ بالكثير من ملامحها. في الفترة الرومانية بالذات، ستعرف المدينة أوجها حيث كانت محصنة بسور له ثمانية أبواب بني بتمويل من المجلس البلدي كما توثق لذلك إحدى النقائش المكتشفة[15]. هذه المنشأة التي بنيت بغية تحصين المدينة و / أو إضفاء المزيد من الجمالية والاعتبارية لها[16]، فتعود إلى الفترة الأنطونينية وبالضبط إبان حكم ماركوس أوريليوس وأرخت بسنة 168 - 169 م. أما المنازل ذات الباحة الداخلية المعمدة التي توجد بالحي الشمالي-الشرقي، وخططت في أرض عارية من البناء، فلا يرجع جلها كما ساد الاعتقاد إلى القرن الثالث الميلادي[17]، بل إن بعضها أسس قبل بناء السور المذكور، أي قبل

12- Lemachand F., «Droits de cité», *les cahiers sciences et vie*, 127, février 2012, p. 40.

13- المرجع نفسه، ص. 40

14- Rebuffat, R., «Le développement urbain de Volubilis au second siècle de notre ère», *BCTH*, n. s. 1-2, 1965 1966, p. 231-240 ; Akerraz 1987.

15- IAM2, 382

16 - يربط روبيفا هذا السور كمنشأة دفاعية بالانتصارات التي أحرزها الإمبراطور أنطونينوس على الموريين وانتفاضة هؤلاء في 170-171م بإسبانيا، أنظر:
Rebuffat, 1989, p. 28, n. 41 et p. 38 : « *il n'est pas impossible que la ville ait considéré qu'un problème d'insécurité endémique ait été créé* ».

17- Etienne R., *Le quartier nord-est de Volubilis*, Paris, 1960 ; Akerraz A., «Nouvelles observations sur l'urbanisme du quartier nord-est de Volubilis», *L'Africa romana*, Atti del IV convegno di studio, Sassari, 12-14 dicembre 1986 Sassari, 1987, p. 447-457.

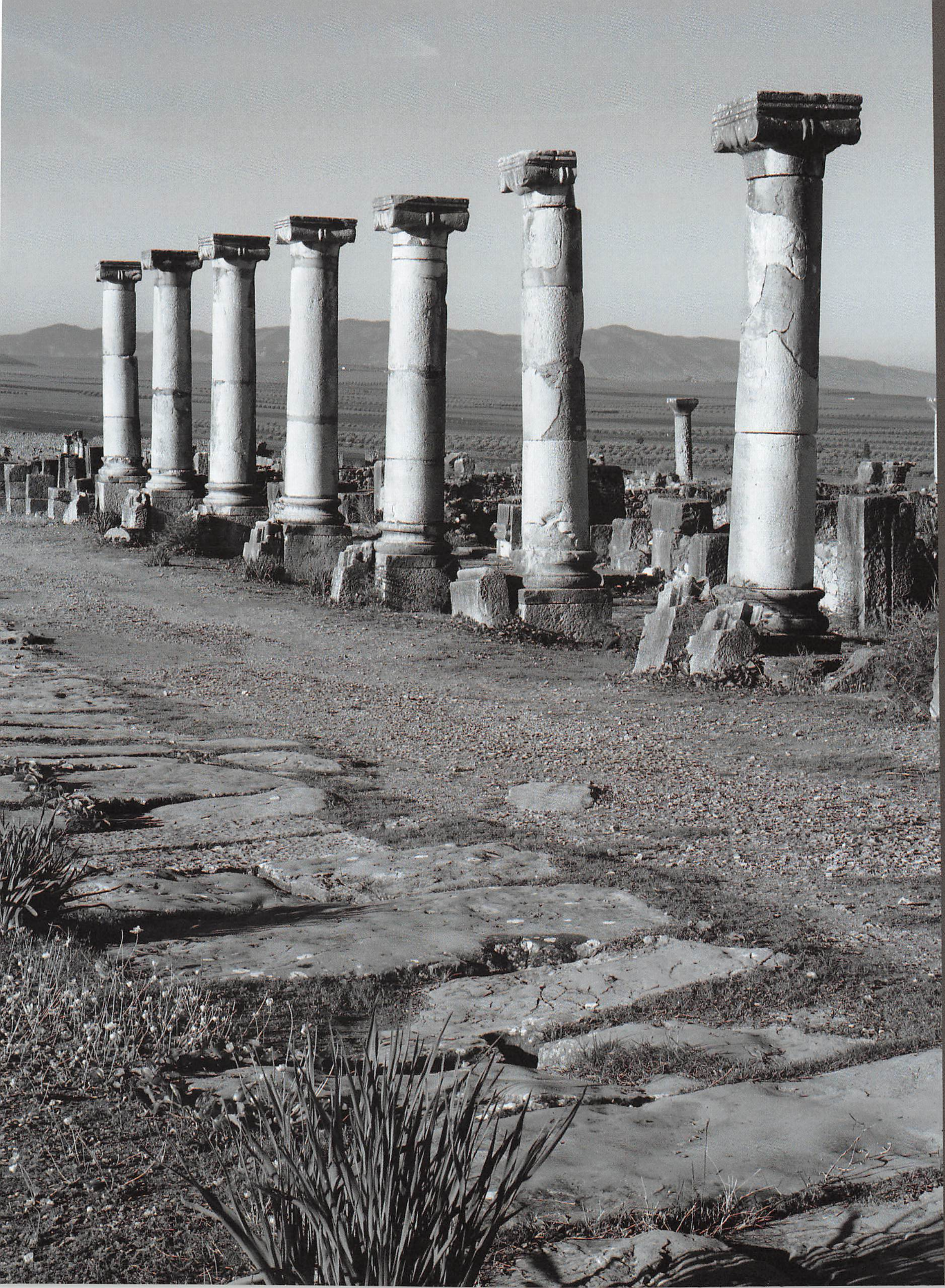

ديكومانوس ماكسيموس،
ترصيف الممر الرئيسي وأعمدة المدخل
(الجهة الشمالية).

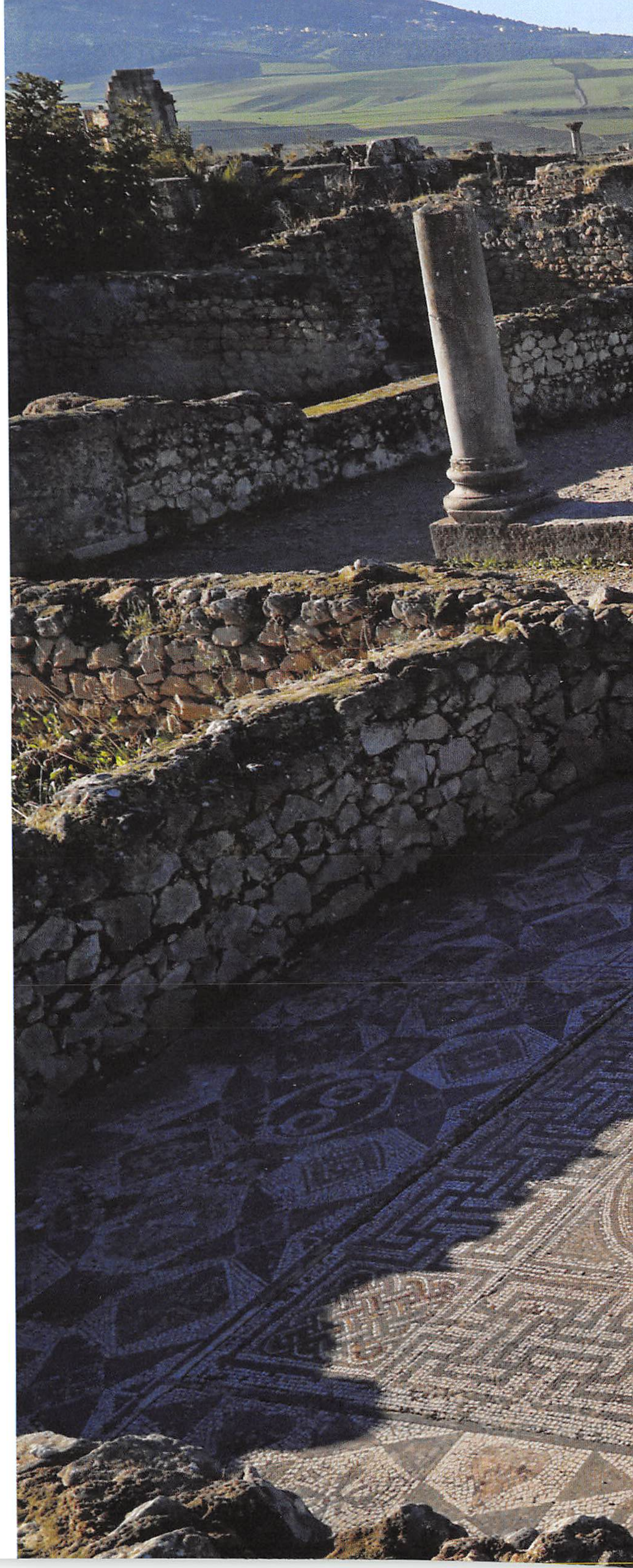

منزل أشغال هرقل،
فسيفساء تمثل أشغال هرقل
واختطاف الگانيميد والفصول.

القرن الثاني الميلادي. وإلى الفترة الفلاڤية الممتدة بين سنوات 60 و80 م[18]، يرجع تشييد القناة المائية وهي معاصرة لحمامات الشمال العمومية. ويضم النسيج الحضري للحي الشمالي-الشرقي منازل فخمة تتوفر على المخابز والدكاكين ومعاصر للزيتون. وتتجلى عظمة العمارة الخصوصية بوليلي كذلك في طابعها الفني المجسد في اللوحات الفسيفسائية التي تزين قاعات الأكل، وقاعات الاستقبال، وجوانب السقايات، وأحواض الاستجمام[19]. ويعتبر منزل موكب فينوس أبرز مثال على هذه المنازل ؛ ففضاءاته المكشوفة وغير المكشوفة، مكسوة كاملة بلوحات فسيفسائية. ويكمن غنى هذه الوثائق في الجوانب الإيكونوغرافية وتلك المرتبطة بالميثولوجيا الإغريقية-الرومانية. ويمثل ذلك شهادة قوية حول درجة رومنة ساكنة هذه المدينة الواقعة في تخوم الإمبراطورية وما تشير إليه بخصوص الحياة الفنية، ورغد العيش الذي عرفته بعض شرائح ساكنة وليلي، إلى جانب صور عن معتقداتها وحياتها اليومية.

هكذا سيعرف التطور العمراني للمدينة قفزة نوعية خلال القرن الثالث للميلاد في العهد السيويري حيث تمت إعادة تهيئة الساحة العمومية[20] وبناء منشآت مثل قصر العدالة[21] وكابتول الإمبراطور ماكران[22] وقوس النصر[23].

18- Makdoun M., «Nouvelles recherches stratigraphiques sur l'aqueduc de Volubilis», *L'Africa Romana*, Atti del XI convegno di studio (Cartagine, 15-18 dicembre 1994), 1996, p. 763-770.

19- Limane H. et alii, *Volubilis de mosaïque à mosaïque*, Casablanca, 1998, p. 23

20- Lenoir M., Akerraz A., Lenoir E., «Le forum de Volubilis». *Eléments du dossier archéologique*, Los foros romanos de las provincias occidentales, Valencia, 27-31 janvier 1986, Madrid, 1987, p. 203-219.

21- Luquet 1967, p. 407-445.

22- Cagnat R., «L'inscription du Capitole de Volubilis», *BCTH*, 1925, p. CCXXVIII-CCXXIX. ; Cagnat R. «L'inscription du Capitole de Volubilis», *Hespéris*, 7, 1927, p. 367.

23- Domergue C., *L'arc de triomphe de Caracalla à Volubilis*, Ecole Pratique des Hautes Etudes IV° section Annuaire, 1963-1964, p. 283-293.

قوس النصر،
رصيعة مستديرة الشكل ورأس عمود بزخرفة مركبة من الحجر الكلسي الرمادي.

ديكومانوس ماكسيموس،
بقايا بيوت الحي الشمالي الشرقي. (الجهة الجنوبية من الموقع)، الصفحة المقابلة.

المعايير المعتمدة في تسجيل المعلمة في التراث العالمي

إن المعايير التي اعتمدت في تسجيل هذا الإرث الثقافي في لائحة التراث الثقافي هي أربعة. اعتمادا على المعيار الأول، تم الاعتراف من قبل منظمة اليونسكو بأن «الموقع يشهد بشكل استثنائي على تبادل تأثيرات مختلفة، مرتبطة بثقافات متعددة، منذ العصور القديمة إلى الفترة الاسلامية»[24]. ونجد هذه التأثيرات مترجمة في شتى الجوانب، من بينها التطور العمراني، ونعني بذلك التحولات التي عرفها المشهد العمراني للمدينة وباديتها.

هكذا يمكن أن نلمس جانبا من التفاعل بين الحقبتين المورية والرومانية من حيث وجود مخطط تعمير يوحي بتصميم عمراني موري منتظم خاصة حول الحي العمومي. في هذه الجهة، تم التعرف على شوارع تمتد على طول البنايات احتفظ بها في الفترة الرومانية لأن المباني الجديدة لها نفس اتجاه البنايات المورية. في هذا الوسط الحضري الروماني، نجد سورا يحد امتداد المدينة وأحياء تم تخطيطها وفق مستويين طبوغرافيين متباينين. اعتمد المهندسون في المستوى الأول، المتمثل في الحي الشمالي-الشرقي والحي العمومي وقسم كبير من حي قوس النصر، تصميما ذا محاور متعامدة. أما في المستوى الثاني، المتمثل في الحيين الجنوبي والغربي، فالطبوغرافية تبقى وعرة شيئا ما ولذلك شيدت المباني على مدرجات.

من جانب آخر، مكن المسح الأثري من الاطلاع على جوانب من المبادلات تهم المجال الترابي لبادية المدينة الممتد من جبال زرهون بمقدمة الريف إلى المناطق المنبسطة من سهل الغرب. وبالفعل مكنت التحريات الأثرية التي أجريت في ضواحي وليلي - التي تضم ضفاف وادي خومان والجهة التي

24- المعيار «II».

دار أشغال هرقل،
منظر للبهو المعمد.

يحدها شرقا جبل زرهون – من الكشف عن وجود أكثر من ثلاثمائة موقع أثري يشكل بادية المدينة، ومن ربط التطور الذي عرفه هذا المركز الحضري بضاحيته[25].

كما أسفرت هذه الأبحاث عن دلائل مادية حول طبيعة التعمير بهذا المجال وتجلياته خلال الفترة المورية وأكدت طابع الاستمرارية الذي اتسم به حيث إن الاستيطان في الفترة الرومانية ازداد بنفس المجال، وتضاعف عدد المواقع بنسبة 40 %، كما بقي منحصرا داخل المدار العسكري الذي تم إرساؤه منذ بدايات الاحتلال الروماني. ويتكون المجال العسكري لوليلي من مجموعة من المعسكرات (توكولوسيدا وسيدي موسى بوفري وعين الشكور) بالإضافة إلى أبراج المراقبة. وزيادة على وليلي، بين المسح الأثري تمركز الاستيطان القروي حول هذه المعسكرات بالذات.

ويتمثل المعيار الثاني[26] الذي اعتمد في تسجيل المعلمة ضمن لائحة التراث العالمي في إبراز كون وليلي، باعتبارها موقعا له قيمة استثنائية عالمية، تضم مجموعة من العناصر تجمع بين الأثري والمعماري وتمثل، في ذات الآن، مشهدا فريدا يحمل شهادات حول العديد من الحضارات الغابرة. وإذا كنا قد توقفنا فيما قبل عند الحقبتين المورية والرومانية، فإننا نتوفر بخصوص الفترة الرومانية المتأخرة على مجموعة من الآثار البارزة حول حضارات مختلفة، على الرغم من أنه لم يتم لحد الآن سبر أغوار إلا جوانب قليلة من هذه الفترة المتأخرة. فما نعرفه حول ما يسمى بالفترة المسيحية الأولى لوليلي، والعهود الأولى للدولة الإدريسية يبقى من الأهمية بمكان بالنسبة لتاريخ المغرب. فوليلي تعد، على مستوى غرب البحر الأبيض المتوسط، من بين الحالات الفريدة حول استمرارية ظاهرة التمدن بعد أزمة القرن الثالث

.Akerraz, Lenoir 1990, p. 213-229 -25

26- المعيار (III).

للميلاد[27]. فمن المعلوم أن آخر الشواهد حول نشاط مدني روماني يتمثل في مذبحي سلام مع قبيلة البكواط ونقيشة مهداة للإمبراطور «بروبوس» (Probos) الذي ينتهي حكمه سنة 282 م. ومن المعلوم أيضا أن جلاء الجيش والإدارة الرومانيين عن وليلي يؤرخ بسنة 285 م. بيد أن الحياة استمرت بهذه المدينة إلى غاية مجيء الإسلام، وهو ما تم الوقوف عليه كذلك في كل من ليكسوس وموگادور وربما أيضا في مدينة سلا (شالة). هذا مع العلم أنه من الصعب جدا التعرف على ملامح هذا التعمير، باستثناء ما تم الاعتماد فيه على الأبحاث الإستراتيغرافية التي أجريت مؤخرا والمعطيات التي توفرها نصوص عربية من القرون الوسطى رغم ما يعتريها من ثغرات.

هكذا، نجد أن معالم التعمير قد اتخذت منحى آخر خلال الفترة الممتدة من نهاية القرن الثالث وحتى بداية الخامس الميلادي حيث طالت تحولات بارزة النسيج العمراني الذي تم التخلي عنه، من خلال تغيير مسار بعض الأزقة والشوارع، وإغلاق بعض الأبواب، وتضييق مساحة بعض القاعات والدكاكين وتغيير وظائف قاعات أخرى، والتعديلات التي طالت بعض المنازل باللجوء لمواد بناء سبق استعمالها، إلخ. كل ذلك يشير بقوة إلى بداية تنظيم اجتماعي مغاير، إلا أنه لا يمكن لحد الآن ضبط ملامحه.

وسيشهد الموقع، في القرن السادس الميلادي، تطورا جديدا حيث سيستقر السكان في الجهة الغربية ناحية وادي خومان، في الوقت الذي تم فيه مغادرة جل الدور في الأحياء الرومانية بعد أن توقف عمل القناة المائية فترة طويلة.

هكذا كانت نشأة بلدة صغيرة لا تتجاوز مساحتها 16 هكتارا، محصنة بسور يبلغ طوله 660 مترا وعرضه 1.70 مترا إلى مترين، يربط رافد نهر

27- Ichkhakh A., «Le quartier de l'arc de triomphe de Volubilis, la rive nord du decumanus maximus», Thèse de troisième cycle de l'INSAP, Rabat, 2001.

فرطاسة والسور الشمالي الذي يرجع للقرن الثاني للميلاد[28]، والذي تم إصلاحه جزئيا وإغلاق بعض أبوابه.

وتبقى أسباب تقليص رقعة المدينة والتخلي الشامل عن الجهة العليا منها غير معروفة حسب بعض الباحثين الذين أكدوا أن ذلك لا يعني بالضرورة بأن الساكنة كانت غير قادرة على التكفل بالمجال الحضري الروماني ككل. ومرد ذلك في رأي عبد الفتاح إشخاخ إلى أن «حدثا ما جعل السلطة المحلية تقلص من محيط المدينة لضمان حمايتها بشكل أفضل»[29]. هذا ما جعل بعض الأحياء القديمة تصبح مقالع للأحجار، وتحول حي قوس النصر إلى مقبرة دفن فيها الأموات على الظهر، ورؤوسهم موجهة نحو الغرب، وأيديهم ممدودة على طول الجسم، وفقا للتقاليد والشعائر المسيحية المتعارف عليها.

جماعة مسيحية مبكرة بوليلي

إن وجود جماعة مسيحية مبكرة بوليلي يجعلنا نعطي بعض الأمثلة التي توضح المعيار الثاني الذي تستجيب إليه وليلي[30] ألا وهو أن هذا الموقع شكل مثالا فريدا «لموطن استقبل مهاجرين من مختلف الثقافات والحضارات الغابرة منذ العصور القديمة إلى مجيء الإسلام». وبالفعل، بالنسبة للبقايا الأركيولوجية المرتبطة بالفترة المسيحية المبكرة، هناك علاقة أكيدة بين المقبرة المذكورة والسور المتأخر ومجموعة من شواهد القبور[31] تعود إجمالا إلى

28- Akerraz 1985; Id., « Les fortifications de la Maurétanie tingitane », *CRAI*, janvier-mars, Paris, 2010, p. 557-559.

29- Ichkhakh A. « Nouvelles données sur l'évolution urbaine de Volubilis », *L'Africa romana*, Atti del XVI convegno di studio, Rabat, 10-13 dicembre 2004, Rome, 2201-2218

30 - المعيار IV)).

31- Akerraz 1985, pp.. 434-436 ; Id., *Le Maroc du sud, de Dioclétien aux Idrissides*, Thèse de troisième cycle, Paris-Sorbonne, 1985, p. 190.

فسيفساء أورفيوس،
تفاصيل ويظهر أورفيوس وسط
حيوانات متوحشة وعجيبة، يمينا.

الفترة ما بين نهاية القرن الخامس وحوالي منتصف القرن السابع الميلادي، وتشهد على وجود ساكنة مسيحية تحمل أسماء لاتينية وكانت تتقن هذه اللغة أو على الأقل تكتبها[32]. وتطرح هذه النقائش المتأخرة والمحدودة زمنيا[33]، بغض النظر عن سؤال ظهور نصوص إيبيغرافية (نقائش) جديدة بعد كل هذه المدة من اختفائها، سؤالا أكثر تعقيدا يرتبط بأوجه تشابهها من ناحية الشكل والزخرف والخط المعتمد (الباليوغرافيا) مع نقائش ألتافا قرب وهران. بخصوص هذا الموضوع، وجوابا عن سؤال العلاقة التي تربط بين مدينة وليلي وألتافا رغم البعد الجغرافي الكبير بينهما، يرى عمار أكراز بأن نقائش المدينة الأخيرة تتوقف في السنة نفسها التي تبدأ فيها شواهد قبور وليلي[34]. انطلاقا من هذه الملاحظة، يخلص إلى وجود تكامل كرونولوجي يسجل حدثا تاريخيا هاما، وقع حوالي نهاية القرن الخامس الميلادي كما تدل على ذلك، على ما يبدو، نقيشة يوليا روگّاتيفا[35] وهي في الأصل من أسرى ألتافا[36]. هذا الاستنتاج يعني وجود سلطة مركزية في محيط جبل مولاي إدريس زرهون، وصلت درجة من التنظيم ما سمح لها بتأسيس سور ببلدة وليلي المتأخرة، ودرجة من القوة ما أتاح لها القيام بحملات ما وراء نهر ملوية، واقتياد أسرى من ألتافا[37].

32- Gozalbes E., «El cristianismo en Mauretania Tingitana», *Cuadernos de Tetuán*, t. 23-24, 1981, p. 305-306.
33- *IAM*. 2. 506, 603, 608, 619
34- Akerraz A., « Les rapports entre la Tingitane et la Césarienne à l'époque post-romaine» , *L'Africa romana*, Atti del XII convegno di studio, Olbia, 12-15 dicembre 1996, Sassari, 1998, p. 1437 = Akerraz 1998; Id., «Volubilis et les royaumes berbères indépendants», BAM, 18, 1998, p. 330.
35- *IAM*. 2, 608
36– نقتصر هنا على إعطاء آخر التأويلات التي ذكرها الباحثون ولا نقدم الفرضيات التي خصصت للسطر الثالث من هذه النقيشة التي استأثرت باهتمام العديد من الباحثين منذ اكتشافها من طرف لويس شاتلان.
37- Akerraz, 1998, p. 1439.

الحي الشمالي– الشرقي،
حوض دار النيرييديات،
وكابيتول ماكران، أسفل.

وليلي مهد السلالة الإدريسية وعاصمة إدريس الأول

يحيلنا المعيار الرابع والأخير الذي اعتمده التسجيل[38] على وليلي كمهد للسلالة الإدريسية. ولحسن الحظ، نتوفر حاليا على دراسة شاملة تهم الانتقال من المدينة القديمة إلى المدينة الوسيطية[39]. وإذا كان الاستيطان الإسلامي في وليلي يمتد طيلة أربعة قرون، إلا أن طبيعة وأشكال هذا الاستيطان لا زال يشوبها الكثير من الغموض، علما أن هناك أحداثا بارزة تحدث عنها مختلف المؤرخين. من ذلك حصار عقبة بن نافع لوليلي سنة 681 / 682 م، ثم استقرار قبيلة أوربة بهذه المدينة سنوات بعد ذلك وبالضبط عام 686 / 687 م، عقب نكستها في معركة ممس (Mems) أمام العرب[40]، أما وصول إدريس الأول مع رفيقه إلى وليلي واستقبالهما من طرف زعيم أوربة، فيعود إلى سنة 788 م أي قرنا من الزمن بعد استقرار هذه القبيلة بالمدينة. بعد هذه الأحداث، استقبلت وليلي سنة 818 م وافدين جددا هم ربد قرطبة الذين طردهم الحكم الأول[41]. وفي سنة 828 م، بعد وفاة إدريس الثاني وانقسام المغرب في عهد الأدارسة، أصبحت وليلي عاصمة إمارة إسمها الأودية[42]. وفي الأخير، ولأسباب مجهولة، أخليت هذه المدينة نهائيا في القرن الثاني عشر حسب أحد المؤرخين الأندلسيين[43].

38- المعيار (VI) : يزخر الموقع بحمولة تاريخية كبيرة بحيث إنه شهد العديد من الأحداث، وارتبطت به الكثير من الأفكار والمعتقدات، كما يضم الكثير من الأعمال الفنية ذات البعد العالمي. هكذا، شكل ولمدة وجيزة، عاصمة سلالة الأدارسة الإسلامية. وفي مدينة زرهون القريبة من الموقع، يوجد ضريح مؤسسها الذي كان يؤمه الحجاج كل سنة.

39- Akerraz 1985; Lenoir, E., «Volubilis des Baquates aux Rabedis», *BAM*, 15, 1983-1984, p. 299 309; et Id., «Volubilis du Bas-Empire à l'époque islamique», *BCTH*, 19, 1985, p. 425-428.

40- Ibn Khaldoun, *Histoire des Berbères et des dynasties musulmanes de l'Afrique septentrionale*, trad. De Slane, Paris, 1978, p. 287.

41- El Bekri, *Description de l'Afrique septentrionale*, trad. De Slane, Paris, 1965, p. 295.

42- Ibid., p. 241-242.

43- نعت الغرناطي المدينة بالمخربة دون إعطاء المزيد من المعلومات. وسيكون من الاعتباطي الاعتقاد بأن المدينة لم تبق كمدينة قائمة الذات بعد القرن التاسع للميلاد.

قوس النصر،
نقيشة إهداء.

هكذا نتوفر على تصور عام حول الاستيطان الإسلامي بالمدينة اعتمادا على مصادر العصور الوسطى والمسكوكات. على المستوى الميداني، تبقى معلوماتنا مقتصرة على بعض المستويات التي تم التعرف عليها في المجال الشمالي لمنزل البيكار ومحيطه[44]، وفي الحمامات المتواجدة خارج الأسوار والمؤرخة بالفترة الإدريسية[45]. ولم يكشف بشكل واضح المعالم عن البنيات الأركيولوجية التي تعود إلى الفترات السابقة لوصول الأدارسة وتلك التي تلت الفترة الإدريسية[46]. إلا أن الدراسات التي انكبت على هذا الموضوع تسمح لنا، في الوقت الراهن، بتحديد امتداد المدينة الإسلامية داخل السور المتأخر وخارج حدوده. وفي هذا الصدد، يعزو عمار أكراز التطور الذي عرفته المدينة إلى «اكتساح موجات من المهاجرين الذين وفدوا إليها، ولأسباب مختلفة، بغية الاستقرار بها كواحدة من المدن القليلة التابعة لموريطانيا الطنجية، التي حافظت على قوتها ومتانة نظامها»[47]. وترتبط بقايا استيطان وليلي / وليلى بمقبرة كبيرة كشف التنقيب عن قسم هام منها في نقاط مختلفة من بينها المنزل دون اسم.

44- Akerraz A., *Recherches sur les niveaux islamiques de Volubilis, Genèse de la ville islamique en al-Andalus et au Maghreb occidental*, Casa de Velazquez-CSIC, Madrid, 1998, p. 299-304.

تؤرخ هذه المستويات اعتمادا على المسكوكات بين نهاية القرن الثامن وبداية التاسع الميلادي. أنظر:
Eustache, D. : «Monnaies musulmanes trouvées dans la maison au compas», *BAM* 6, 1966, p. 349-364 ; Id., *Corpus des dirhams idrissides et contemporains*, Collection de la Banque du Maroc, Rabat, 1971, p. 258-266 ; Ichkhakh 2001, p. 229, n. 5.

45- El Khayari A., «Les thermes extra-muros à Volubilis», «Africa Romana», Atti del X convegno di studio, (Oristano, 11-13 dicembre, 1992), Sassari, 1994, p. 301-312.

46- نظرة شاملة حول هذا الموضوع في مقال : العيوض س.، «وليلي خلال الفترة الإ سلامية: المعطيات الأثرية»، المؤتمر الوطني الأول للأركيولوجيا والتراث حول موضوع «الأركيولوجيا الوسيطية في المغرب بين المصدر التاريخي والعمل الميداني»، الرباط، 17-16 نونبر 2011، قيد الطبع.

47- Akerraz 1998, p. 304.

دار أشغال هرقل،
هرقل يصيب بسهام طيور بحيرة ستيمفال ذات الريش الفضي.

دار ديونيزوس والفصول الأربعة،
فسيفساء تمثل رأس ميدوزا.

هرقل مروضا ثور جزيرة كريت.

ميدانيا، لم تطل التنقيبات الأثرية سوى حوالي نصف المساحة الإجمالية للموقع التي تقدر ب42 هكتارا. ويتضمن الحي الغربي لوحده صفحات كثيرة من تاريخ وليلي، وبإمكان الأبحاث الميدانية أن تميط اللثام عنها.

إن هذه الجولة تبين لنا بما لا يدع مجالا للشك بأن موقع وليلي يلازم ويتفاعل مع مجاله الترابي. وعليه، نعتقد بأن الأمر يستدعي دراسة إمكانية تسجيل وليلي كتراث عالمي بتبني مفهوم «المشهد الثقافي» عوض مفهوم «الموقع الأركيولوجي» الذي اعتمدته في الأصل لجنة التراث العالمي. بذلك سيحتضن الممتلك الثقافي كل المواقع الأركيولوجية المكتشفة في ضواحي وليلي، وسيضم النطاق المسجل كمشاهد طبيعية سهل بلاد الكُعدة وجبل زرهون، وبطبيعة الحال، المدينة الروحية لمولاي إدريس، حيث مرقد جثمان مؤسس أول دولة إسلامية في المغرب، المولى إدريس بن عبد الله الذي ينتسب للرسول عليه السلام من جهة ابنته فاطمة وصهره وابن عمه علي، رابع الخلفاء الراشدين.

فسيفساء أور فيوس،

طائران معلقان بشجرة.

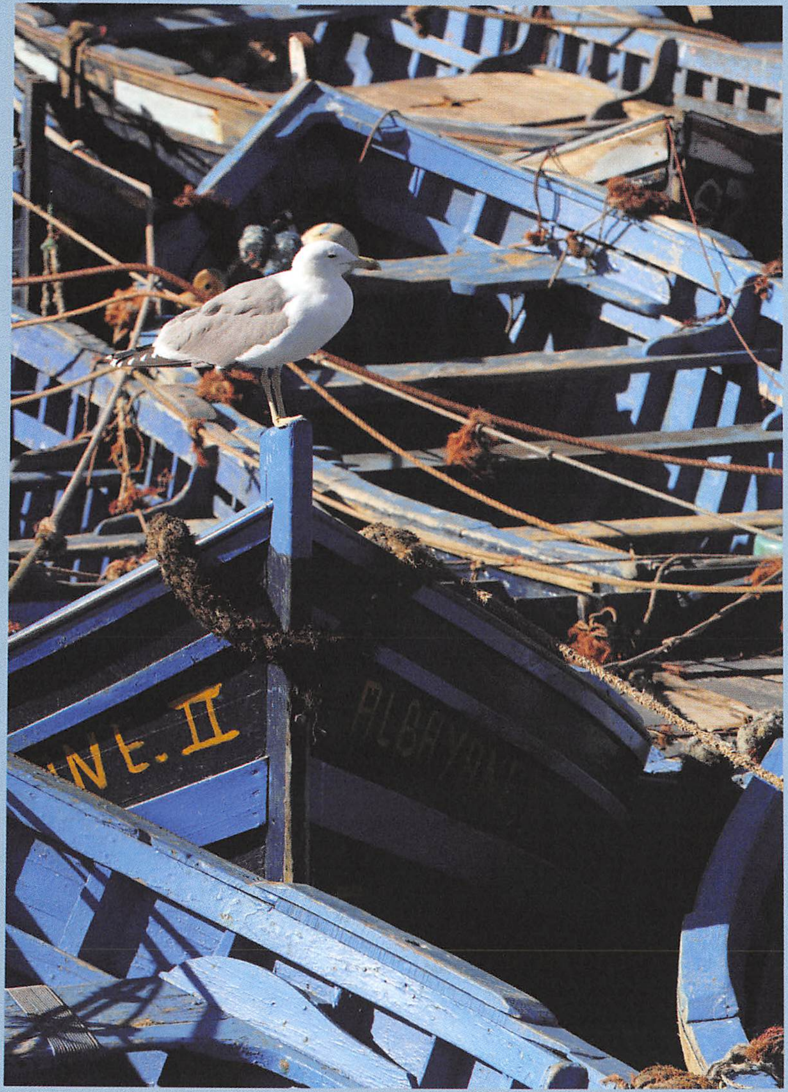

الصويرة

تراث ثقافي مغربي

موكادور، مدينة ساحلية بروافد حضارية

terrasse
panoramique
CASA VERA
RESTAURANT
A VENDRE
VILA MAROC
مصرف المغرب
CRÉDIT DU MAROC

الصويرة

موݣادور، مدينة ساحلية بروافد حضارية *

عبد الفتاح إشخاخ

محافظ رئيسي، مفتش المباني التاريخية والمواقع الأثرية.

ماهية التاريخ الحضري لمدينة الصويرة لا تقتصر فقط على مجموع بنايات فردية ذات أهمية كبيرة، بل تشمل أيضا بصمات عصور ذهبية منصرمة، تظهر تجلياتها من خلال بقايا أثرية، وتصاميم معمارية لأزقة وأحياء عتيقة تحكي فصولا من حكايات الإرث الحضاري لمدينة مشبعة بعبق التاريخ والتراث.

شُيدت اللبنات الأولى لمدينة الصويرة موكادور منذ قرنين ونصف، وهي حديثة نسبيا مقارنة مع معظم المدن التاريخية المغربية، ولعل هذا المعطى يفسر الحالة الجيدة التي ما زالت عليها مختلف معالمها التاريخية. وقبالة المدينة العتيقة توجد جزيرة موكادور التي تكتسي أهمية بالغة برصيدها التاريخي، الحضاري، الإيكولوجي والمشهدي[1]. وهذه الجزيرة التي تتموقع في أرخبيل بحري على مشارف مدينة الصويرة (800 متر) لا يمكن فصلها عن هذه الحاضرة، وتختزن تراثا غنيا استثنائيا، يشغل حيزا مهما من تاريخ المغرب. ومن ثمة فالإحاطة بتاريخ موقع موكادور-الصويرة لا يمكن أن تتم بمعزل عن هذا الترابط التكاملي الذي يشكل حلقة وصل بينهما.

نعرض في مساهمتنا هاته للبدايات الأولى لتعمير هذا الموقع من التراث العالمي موكادور-الصويرة الذي لم يتم اختطاطه بشكل عشوائي في أرض مجهولة (*terra incognita*) بل على العكس من ذلك، فاختيار الموقع كان

1 - تعد واحدة من المناطق القليلة بالمغرب التي تتميز بمناخ الجزر الرطب وبرياح شبه دائمة قادمة من الشمال الشرقي وبتيارات بحرية باردة آتية من جزر الكناري.

ساحة مولاي الحسن،
منظر عام.

باب شايلة،
بعض تفاصيل الحجر المنقوش
أو ما يسمى بـ «المنجور».

سقالة القصبة،
الباب الرئيسي.

مدروسا ودقيقا؛ بصفة عامة تشكل الجزيرة والميناء والقصر الملكي البرتغالي ركائز هذه المدينة التي هي نتاج انصهار وتكامل عدة حضارات.

تنفرد مدينة الصويرة بخصوصية معمارية متفردة مستوحاة من بنية المعمار الأوروبي الذي وضع لبناته الأولى المهندس الفرنسي ثيودور كورنو. وتتميز بشساعة أزقتها الرئيسية وجمالية مرافقها ورونق ساحاتها العمومية... كما تنهل بنيتها المعمارية من خصائص العمارة العربية-الاسلامية بأزقتها الصغيرة المتداخلة ودروبها المسدودة، وواجهات بناياتها بدون نوافذ. إنها تشكل نموذج مدينة شاطئية تمزج بين الأسس المعمارية للحضارتين الأوروبية والعربية-الإسلامية، ولعل بوتقة هذا الانصهار والتمازج تتضح من خلال البنية المعمارية للأسوار العتيقة. وتحيل التحصينات العسكرية التي تم تشييدها في بداية نشأة المدينة على طراز البنايات العسكرية الأوربية، كما تتضح تجليات ذلك بالاستعمال المكثف للحجر المنجور، أبراج السقالات الشبيهة ببرج بيليم بالبرتغال، الأبواب التاريخية، والأعمدة ذات الأخاديد الطولية.

طوبونيمية المجال : من موكَادور إلى الصويرة

ماذا تخبرنا النصوص التاريخية ؟

تردد ذكر موقع الصويرة في العديد من المصادر والكتب التاريخية القديمة لدى عدد من المؤرخين والجغرافيين والرحالة، وتسمح الجغرافية المقارنة

المشور،
باب جانبي.

القصبة والسور،
منظر عام، من جهة البحر.
(الصفحة المزدوجة الموالية).

بإجراء نوع من التطابق بين الأوصاف التي وردت في متن النصوص القديمة وجزيرة **موكادور**، لاسيما جزيرة كيرني المذكورة في رحلة سكيلاكس البحرية، التي تم تغيير اسمها فيما بعد لتصبح موسومة بجزر الأرجوان (*Purpurariae insulae*)، المتواجدة ب «ex adverso Aututolum» (منطقة نفوذ قبائل الأوطولول) التي أنشأ بها الملك يوبا مصابغ للأرجوان. وقد أشار إليها بلينيوس الشيخ وهو عالم طبيعيات لاتيني عاش في القرن الأول الميلادي، وتحدث عنها بطليموس في القرن الثاني الميلادي باسم تاموسيغا (Thamusiga أو Tamousiga).

ارتباطا بالتسمية، يمكن القول أن **موݣادور** مشتقة من أصول فينيقية تعني «البرج». وهي شبيهة إلى حد ما باسم «**ميݣدول**» بالعبرية. من جهة أخرى فُسّرت دوما تسمية مدينة السويرة أو الصويرة بالإحالة على التصميم المعماري لكورنو والتي تعني متقنة الرسم. كما عُرفت لمدة طويلة ب «ميناء تومبوكتو»، وذلك لأنها كانت صلة وصل بين الطرق التجارية الصحراوية ومراكز التجارة المغربية المتصلة بالعالم الخارجي.

توارت تسمية **موكادور** القديمة التي استعملت لفترة طويلة من طرف الرحالة والبحارة الأوروبيين، لتحل محلها تسمية جديدة موسومة ب «السويرة» أو «الصويرة» وأيضا «تصورت»، وهذه التسميات الثلاث لها اشتقاقات موحدة تحيل على معنى واحد مشترك وهو المكان المحصن. هي إذن أسماء متعددة لمدينة واحدة.

casa vera

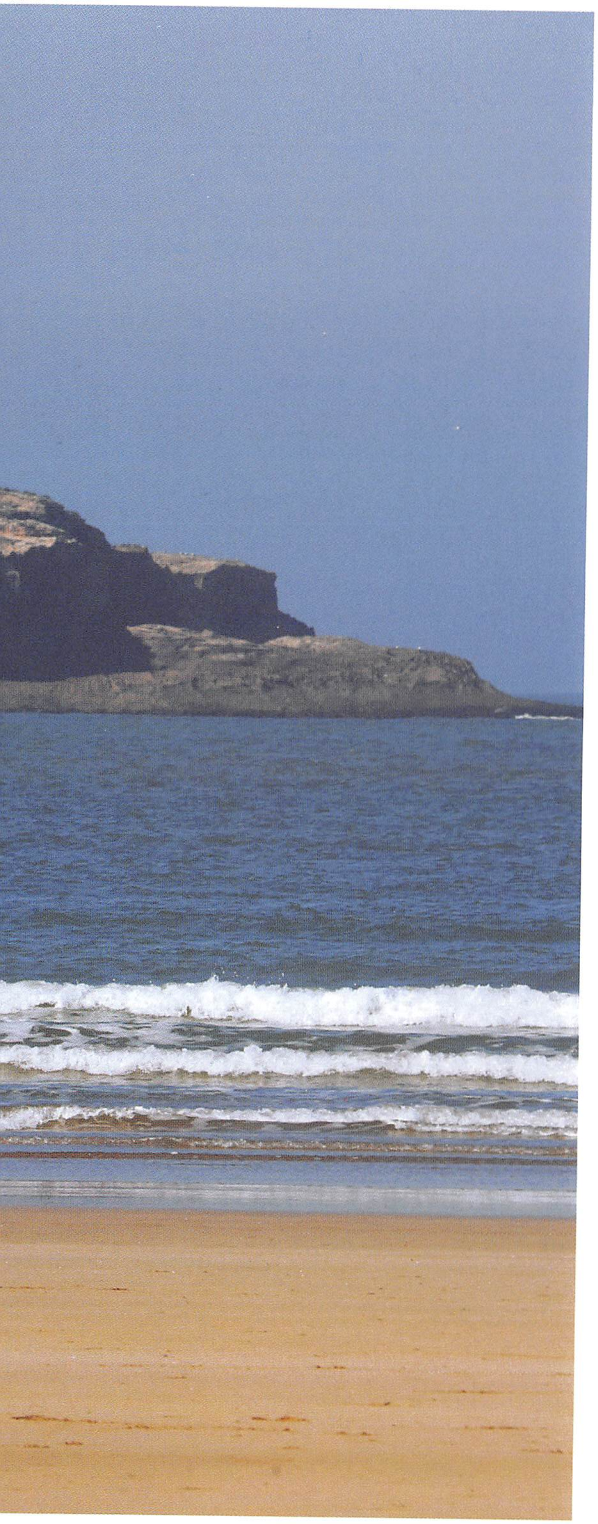

موگادور،
الجزيرة الصغيرة المسماة
جزيرة فرعون.

مدينة ضاربة في عمق التاريخ

من فترة ما قبل التاريخ إلى روما

تمتد الجذور التأسيسية الأولى لموكادور إلى فترات زمنية سحيقة تعكس الامتداد الحضاري لهذا الموقع التاريخي، غير أن التنقيبات الأثرية القليلة التي تم إجراؤها بالمنطقة لا تسمح بتكوين فكرة دقيقة عن هذه الحقبة الموغلة في القدم. إلا أنه يمكن الإقرار اليوم على ضوء النتائج المحصل عليها بالتواجد الإنساني بالمنطقة بدءا من العصر الحجري القديم وعصر المعادن مرورا بالحقبة النيوليتيكية. وقد سمحت التنقيبات الأخيرة باكتشاف عدة مواقع تنتمي لمختلف الحضارات الممتدة من عصر الباليوليتيك الأدنى إلى عصر الباليوليتيك الأعلى. كما كشفت على أن الاستقرار الإنساني صار أكثر كثافة في عصر النيوليتيك وعصر المعادن، وتدل على ذلك اللقى الأثرية التي اكتشفت في مواقع متفرقة من الشاطئ الأطلسي وبأرخبيل موكادور، حيث تم الوقوف على استقرار بشري يعود إلى 6000 سنة قبل الميلاد وهي مرحلة تميزت بتحكم نسبي في التقنيات الفلاحية.

يشكل الموقع الجغرافي لجزيرة موكادور، أو «جزيرة الحمام»، موقعا فريدا من نوعه لعدة اعتبارات، فهذه الجزيرة التي تمتد على مساحة تقدر ب 30 هكتارا تشكلت نواتها من شريط صخري انفصل عن الشريط الساحلي الأطلسي. وكما تشير إلى ذلك العديد من النصوص التاريخية، ففي أقصى جنوب العالم القديم، وعلى بعد 500 كيلومتر من سلا (مدينة الرباط الحالية) تتموقع هذه الجزيرة التي كان يرتادها التجار الفنيقيون منذ غابر العصور (القرن الثامن قبل الميلاد)[2].

2- A. Jodin, « Note préliminaire sur l'établissement pré-romain de Mogador », dans *BAM*, II, 1957 ; A. Jodin., Mogador. *Comptoir phénicien du Maroc atlantique*, Tanger, 1966.

أماطت التنقيبات الأركيولوجية، المنجزة بالموقع سنوات الخمسينات من القرن الماضي، اللثام عن لقى أثرية متنوعة من بينها أمفورات، جرار، قطع خزفية، فوهات منافخ طينية، ومعدات الزينة وكتابات على الخزف (كرافيتيي). هاته الأخيرة اعتبرها الخبراء الأركيولوجيون كما وكيفا من أفضل المؤشرات الدالة على الملكية بمنطقة غرب البحر الأبيض المتوسط. كما كشفت التنقيبات الأثرية الأخيرة عن متن نص فنيقي منقوش يُحيل على الإلهة عشتار (إلهة الحب والجمال عند الفنيقيين).

إجمالا، فاللقى الأركيولوجية المستخرجة تبين بجلاء أن هذا الموقع المغربي الأطلسي كان منفتحا على الحركات التجارية بحوض البحر الأبيض المتوسط[3]، ولم يعرف نوعا من التراجع والفتور إلا في القرون اللاحقة[4]. وحوالي أواخر القرن الأول قبل الميلاد استقر بحارة ملك موريطانيا يوبا الثاني (25 قبل الميلاد / 23 م) في الجزيرة وشيدوا مساكنهم ومصانع لاستخراج الأرجوان[5].

حافظت جزيرة موكادور ما بين القرنين الأول والثالث الميلاديين، على حركيتها النشيطة، وظلت مأهولة نظرا لغناها وتنوع ثرواتها البحرية والمعدنية، وحتى بعد انسحاب الإدارة والجيش الرومانيين من جنوب موريطانيا الطنجية (المغرب القديم) بعد سنة 285 ميلادية، لم تُهجر جزيرة موكادور، مثلها في ذلك مثل مدينة سلا. وتُرجّح أسباب هذه الاستمرارية لعوامل اقتصادية وأخرى جيواستراتيجية مرتبطة بالدور المحوري الذي كانت تلعبه موڭادور في تلك الحقبة.

3- هذا ما يؤشر عليه وجود أمفورات أيونية وأمفورات من نوع SOS والخزف الفينيقي ذي البرنيق الأحمر.
F. Villard, «Céramique grecque au Maroc», dans *BAM*, IV, 1960, p. 1-10 et, en particulier, A. Jodin, *Mogador. Comptoir phénicien*, p. 63-166.

4- مكنت إعادة دراسة أمفورات موڭادور من طرح إشكالية الاستقرار ما بعد الفترة الفينيقية.
A .El Khayari, H. Hassini et M. Kbiri Alaoui, *Les amphores phéniciennes et puniques de Mogador*, dans Actes des Ires journées nationales d'archéologie et du patrimoine (Rabat, 1-4 juillet 1998), Vol. 2, Rabat, p. 68.

5 - A. Jodin, *Les établissements du roi Juba II aux îles purpuraires (Mogador)*, Tanger, 1967.

القصبة،
منظر من سقالة الميناء.

برج السقالة،
نوارس موڭادور،
الصفحة المقابلة.

بعض السمات التاريخية

ابتداء من القرن السادس عشر، أصبحت أوروبا تهتم بالشاطئ الأطلسي الإفريقي لعدة أسباب مرتبطة بالقرب من محور مازاڭان ـ أڭادير الذي جذب اهتمام البرتغاليين في وقت مبكر، إذ أمر الملك البرتغالي إمانويل الأكبر (1495 - 1521)، في الوقت الذي أصبحت فيه البرتغال أقوى وأغنى إمبراطورية استعمارية في العالم، بإنشاء حصن سنة 1506 في موقع موڭادور قبالة الجزيرة الكبيرة سمي ب «القصر الملكي» (Castelo Real) في أفق السيطرة على آسفي ومازاڭان[6]. قاد أشغال البناء دييغو دو أزامبوخا، وهو ضابط في الجيش البرتغالي، ساهم في الحركات الاستكشافية والاستعمارية لإفريقيا وعين بفضل النتائج الإيجابية التي حققها حاكما على المنطقة. فكانت هذه القلعة ذات الأبعاد الصغيرة تشرف على جزء من المنطقة (قبائل حاحا والشياظمة) على امتداد يناهز 17 كلم، أي ما يعادل 3 فراسخ إيبيرية[7]. في هذا الإطار تخبرنا الوثائق البرتغالية بأن التواجد البرتغالي كان قصير الأمد، حيث جُوبه بمقاومة شديدة من طرف السكان المحليين، تحت قيادة الزوايا، وخصوصا مُريدي صلحاء رڭراڭة.

قرنا بعد ذلك، صارت عدة دول (بريطانيا، فرنسا وإسبانيا) تتطلع للاستيلاء على جزيرة موڭادور، كما تثبت ذلك لوحة إسبانية مؤرخة بسنة 1621 (Bibliotheca Nacional, Madrid) والتي تتحدث على ضرورة احتلال الجزيرة. ثم جاء الدور على الكردينال-دوق أرمون دو ريشيلو، وهو أسقف ورجل دولة فرنسي، حيث جهّز حملة لاحتلال الجزيرة سنة 1629،

السقالة،
مرقب يعلو البرج.

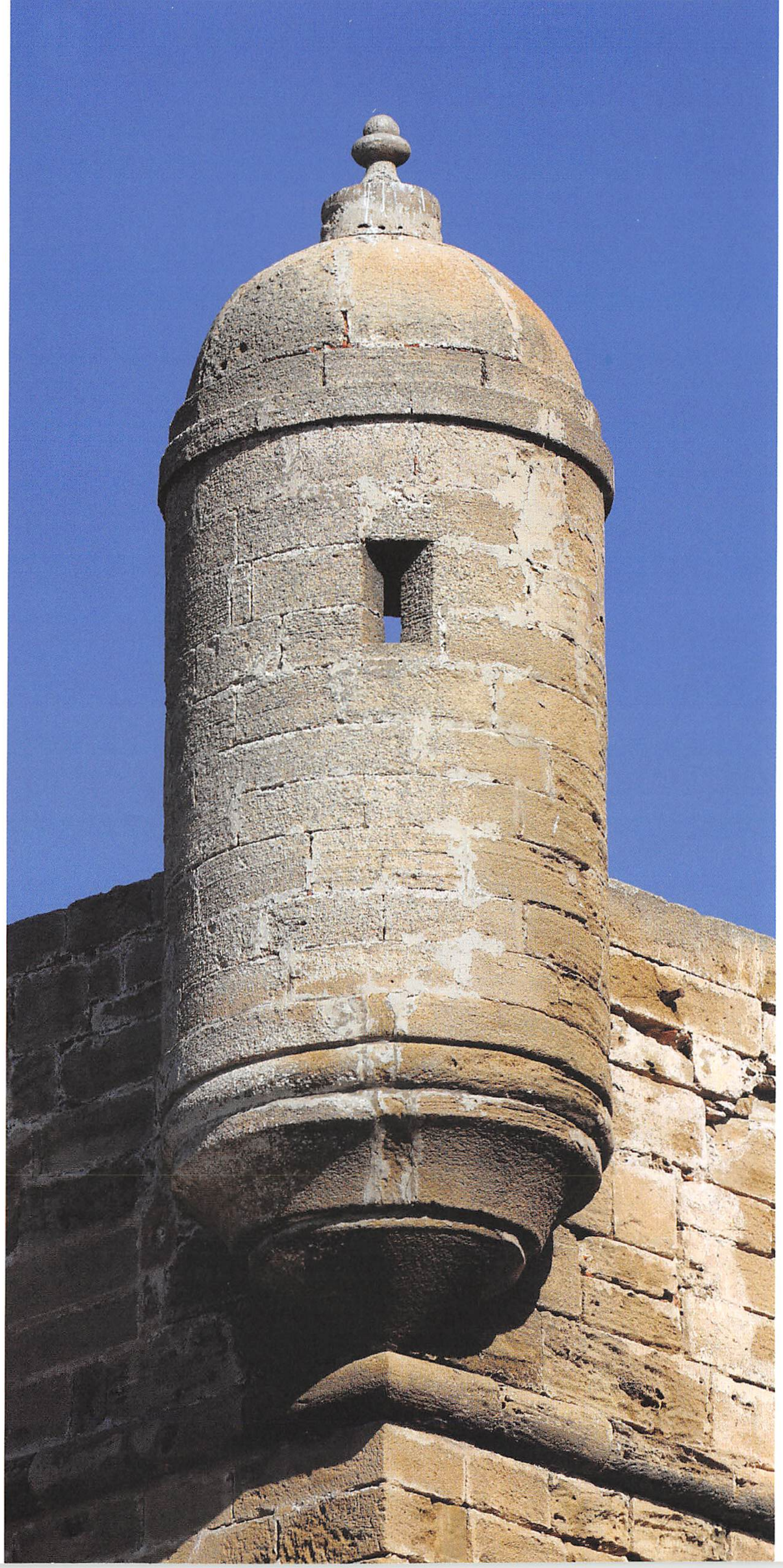

6 – إن الاستقرار البشري بالمكان لا يسمح بتوطين القصر الملكي البرتغالي بشكل دقيق رغم أن المعطيات المتوفرة، بما في ذلك التصميم المنجز من قبل كورنو، تشير إلى المنطقة الفاصلة بين المرسى والسقالة. P. De Cenival, «Mogador», dans *Sources inédites de l'Histoire du Maroc*, T.I, I[re] série, 1934, p. 126-125. يعتقد دوسينيفال أن الأسوار المحاذية للمرسى والبرج الكبير تشكل بقايا القصر. من جهتنا وجب التوضيح أن لا وجود لأي أدلة هندسية أو أركيولوجية تؤكد هذا الطرح.

7- H. Ben Driss Ottmani, *Une cité sous les alizés*, p. 70.

7-4281
RACHID

رجاء أخي
الفاضل
ضع حذائك
في الكيس

مسجد القصبة،
منظر محوري لقاعة الصلاة،
الصفحة المقابلة.

المدينة العتيقة،
زقاق، ويظهر في العمق
ما يسمى بالـ«صابا».

لتيسير الملاحة في المنطقة ولوضع حد لتحركات « القراصنة » الذين كانوا ينشطون بالقرب من الشواطئ الأطلسية للمغرب. كان لهذه الحملة، التي قادها الفارس إسحاق دو رازلي هدف آخر هو إنشاء محطة تجارية بالجزيرة. غير أنه لاحظ أن الجزيرة غير ملائمة ويتعذر استعمالها للغرض المطلوب وكنقطة مراقبة للشاطئ الأطلسي الشمالي[8].

نشأة وتطور مدينة كوسموبوليتية على الساحل الأطلسي

ميلاد وتطور مدينة

إن إنشاء المدينة وميناءها لم يكتمل إلا ابتداء من سنة 1764 بأمر من السلطان العلوي سيدي محمد بن عبد الله (1757 - 1790). وإذا كانت المنطقة مأهولة منذ فجر التاريخ، فمدينة الصويرة لم تر النور بشكل فعلي إلا في قرون متأخرة، وتشير المصادر التاريخية أن السلطان كان يتوخى من وراء اختطاطها أن يجعل منها ميناءه الملكي وعاصمة للتجارة المغربية مع الخارج[9]. لم يكن اختيار خليج وجزر أمڭدول اختيارا عشوائيا، فالسلطان سيدي محمد بن عبد الله كان يسعى إلى وضع حد لسطوة قوى صاعدة لحكام صغار محليين كانوا يستفيدون من العائدات المادية للميناء من أجل تقوية نفوذهم[10].

8 - أفرد جون أرموند، أحد أعضاء البعثة العسكرية المذكورة، حيزا هاما لوصف منطقة موڭادور وأشار إلى وجود حصن منيع يرجح أن يكون القصر الملكي، وهذا ما ذهب إليه جون أوجيلبي في فترة لاحقة. أنظر مينة المغاري، «مدينة موڭادور-السويرة : دراسة تاريخية وأثرية»، الرباط، 2006 ص. 112-113.

9 - خلافا لما جاء عند بعض المؤرخين المعاصرين حول تاريخ تأسيس المدينة، فإن الدلائل تشير إلى سنة 1764 وهذا ما أشار إليه هوست. G. Høst, *Histoire de l'Empereur du Maroc Mohamed Ben Abdallah*, (traduction F. Damgaard et P. Gailhanou), Rabat, 1998, p. 33.
و ما تبينه دراسة نقائش الصويرة والتي تعود أقدمها إلى سنة 1764، أنظر مينة المغاري، «مدينة موڭادور-السويرة... »، ص. 144.

10 - محمد بن سعيد الصديقي، «إيقاظ السريرة لتاريخ الصويرة»، الدار البيضاء، 1961، ص. 15. يشير الباحث إلى ثورة قائد سوس المسمى طالب صلاح بن بيهي الذي كان سببا في إغلاق ميناء أڭادر قبل أن تضع له حدا القوات التي بعث بها السلطان.

السقالة،
مدفع من البرونز موجه نحو المحيط
وبرج مراقبة يلعب دور بستيون،
الصفحة المقابلة.

من المسلم به، ووفق ما تخبرنا به المصادر التاريخية، فإن السلطان سيدي محمد بن عبد الله استعان بخدمات المهندس المعماري نيكولا تيودور كورنو[11] لكي يقدم له مقترح تصميم للمدينة المزمع إنشاؤها[12]. وحسب ما ورد لدى المؤرخ دومورفيل فأشغال كورنو في الميدان، وخصوصا فيما يتعلق بإنجاز المنشآت المقابلة للبحر، لم تنل استحسان السلطان[13]، لذلك أعفاه من مهامه سنة 1767، ليواصل الأشغال أحمد العلج، يُرجح أن أصله أوروبي، ورد اسمه بمدخل البوابة البحرية ويعود له الفضل في إحداث بعض التحصينات بالميناء التي لم تكن موجودة في تصميم كورنو وفي اختطاط العديد من المرافق الأساسية للمدينة.

تميزت وتيرة أشغال بناء المدينة، الميناء، والتحصينات العسكرية بالسرعة المطلوبة على امتداد مساحة تصل إلى سبعة هكتارات، فبنيت التحصينات، وخصوصا السقالات حسب طراز مدرسة سباستيان فوبان، وهو طراز كلاسيكي جديد، يحاكي نمط القلاع الأوروبية، ينسجم وأسلحة تلك المرحلة؛ ورأت النور كذلك بنايات دينية وأخرى مدنية، ومنشآت عمومية وفق تصميم معماري أشرف عليه مولاي إدريس أحد أبناء عمومة السلطان[14].

---

11 - وهو فرنسي الجنسية ينحدر من مدينة «أفينيون»، تدرّج في خدمة ملك فرنسا لويس الخامس عشر.

12 - تكلف تيودور كورني كذلك بتخطيط حصون روسيون وقصبة الصويرة، كما أشار إلى ذلك هوست ولويس دوشيني وبيد دومورفيل، في حين لم يشر إليه أي مؤرخ مغربي عاصر الأحداث، الشيء الذي يتوافق وعدم ورود اسمه على أي نقيشة دينية أو مدنية أو عسكرية.

13 - كما ذكر عند م. المغاري، «مدينة موكَادور—السويرة»، ص. 531.

.B. De Maurville, *Relation de l'affaire de Larache*, Amsterdam, 1777, p. 224.

14- H. de Castries, « Le Danemark et le Maroc (1750-1767) », dans *Hespéris*, T. 4, 1926, p. 341.

يشير الباحث أن الملك الدنماركي فريدريك الخامس بعث بمهندس وبصناع كثر للمشاركة في عملية البناء بطلب من السلطان.

بعد وضع اللمسات الأخيرة على اختطاط المدينة، فكر السلطان بتعميرها، فشجع استقرار المصالح الأوروبية بها (قناصل، أبناك، مانيفاكتورات، وتجار) واستقدم بعض أفراد الطائفة اليهودية، خصوصا من منطقة سوس، واستدعى رعاياه المسلمين من مختلف الآفاق (أهل أگادير ، بني عنتر، بواخر، شبانات، مسغينة، منابهة، رحالة، جبالة...)[15]. وخلال مدة وجيزة استطاع هذا التعدد العرقي أن يخلق دينامية اقتصادية في المدينة الشاطئية الجديدة، وبذلك تشكلت نخبة محمية من التجار اليهود والمسلمين تبناها المخزن سميت ب «تجار السلطان»، ثم تزايدت دينامية المدينة بشكل مضطرد سنة 1767 بإحداث دار لسك العملة بحي القصبة، حيث شهدت المدينة ضرب قطع نقدية فضية ونحاسية[16].

تتكون نواة «تجار السلطان» في مجملها من تجار يهود، وهذه الحظوة تعكس مكانة الطائفة اليهودية بالمدينة، إذ كانوا يمثلون ما بين 30 إلى 50% من مجموع السكان المحليين، وهي نسبة تجعل منها واحدة من أكبر الطوائف الحضرية اليهودية في العالم الإسلامي. كان الجزء الأكبر من هذه الطائفة يقطن بحي الملاح، رغم أن اليهود لم يكونوا في الأصل يستوطنون في حي خاص بهم. وقد مر هذا الحي بمرحلتين مهمتين : المرحلة الأولى معاصرة لإنشاء المدينة، شهدت بناء حي الملاح القديم، الذي يوجد غير بعيد عن القصبة بمحاذاة حي بني عنتر. وهو في الآن نفسه حي سكني وتجاري تهيمن عليه المحلات التجارية المتناثرة على مشارف الطرقات (دكاكين، مستودعات...) وبنيات الاستقبال (فنادق). أما من الناحية المعمارية فبنية هذا الحي لا تختلف عن باقي الأحياء الأخرى، باستثناء القصبة القديمة. أما المرحلة الثانية التي بني فيها الملاح الجديد، الذي يقع في الركن الشمالي على طول السور المطل على البحر، فتعود إلى عهد السلطان المولى سليمان سنة 1807، وتتميز بمباني مكونة من عدة طوابق، ويرجح أن يكون ذلك بمثابة حل معماري لمواجهة مشكل كثافة ساكنة الملاح القديم. تخترق الحي طريق تجارية (زنقة الملاح) موازية للأسوار، وتتفرع منها أزقة صغيرة ملتوية مفتوحة، وأحيانا مسدودة. وتوجد بأغلب الدور ذات المساحة الصغيرة أفنية صغيرة في الوسط محاطة بغرف سكنية عمودية البناء.

وإبان اندلاع الصراع المغربي الفرنسي سنة 1844، لم تصمد تحصينات المدينة أمام قصف الأسطول الفرنسي الذي كان يقوده الأمير جوانفيل[17]، ولم ينه الجنود الفرنسيون حصارهم إلا بعد توقيع معاهدة طنجة بين الدولتين المغربية والفرنسية.

حافظت الصويرة طيلة القرن التاسع عشر على إشعاعها في مجموع بلاد سوس، إذ عرفت حينها التجارة مع أوروبا وأمريكا تطورا مهما، كما تشهد على ذلك الخطوط التجارية المنتظمة مع الحواضر الكبرى (ليفربول، لندن، أمستردام، مارسيليا...). وفي أواسط هذا القرن، عرفت المدينة توسعا إثر تشييد القصبة الجديدة التي رأت النور سنة 1863، ويمكن اعتبارها امتدادا للقصبة العتيقة، فباستثناء تصميمها المربع فهي تختلف بوضوح عن باقي أحياء المدينة. بنيت القصبة الجديدة ذات التصميم المستطيل في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان (1859 - 1873)، وهي عبارة عن حي سكني مكون من 32 وحدة سكنية نتيجة للتزايد الديموغرافي الذي عرفته المدينة في القرن التاسع عشر.

15 - تتكون الساكنة من تجار، حرفيين، عساكر وعلماء دين. فيما يخص المسلمين، فلكل قبيلة مهام خاصة بها وحيز مكاني معلوم منذ بداية استقرارها.

16 - لم تتوقف دار السكة عن العمل إلا سنة 1822 إبان حكم السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام.

17 - خلد الفنان دوران براجر هذا العدوان في لوحته «احتلال موگادور من قبل السرب العسكري للأمير دوجوانفيل» والمحفوظة حاليا في متحف البحرية بباريس.

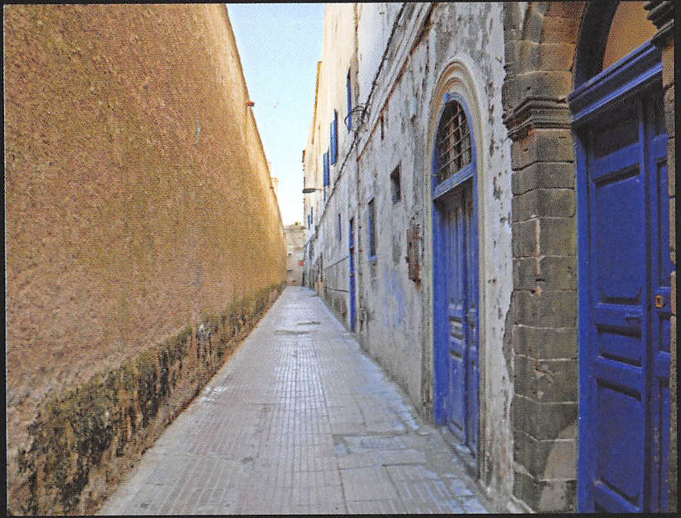

المدينة العتيقة،
زقاق على طول السور.

ساحة الشفشاوني،
ساحة عمومية صغيرة بالقصبة.

شكل هندسي،
يمثل نجمة سداسية،
يعلو باب منزل.

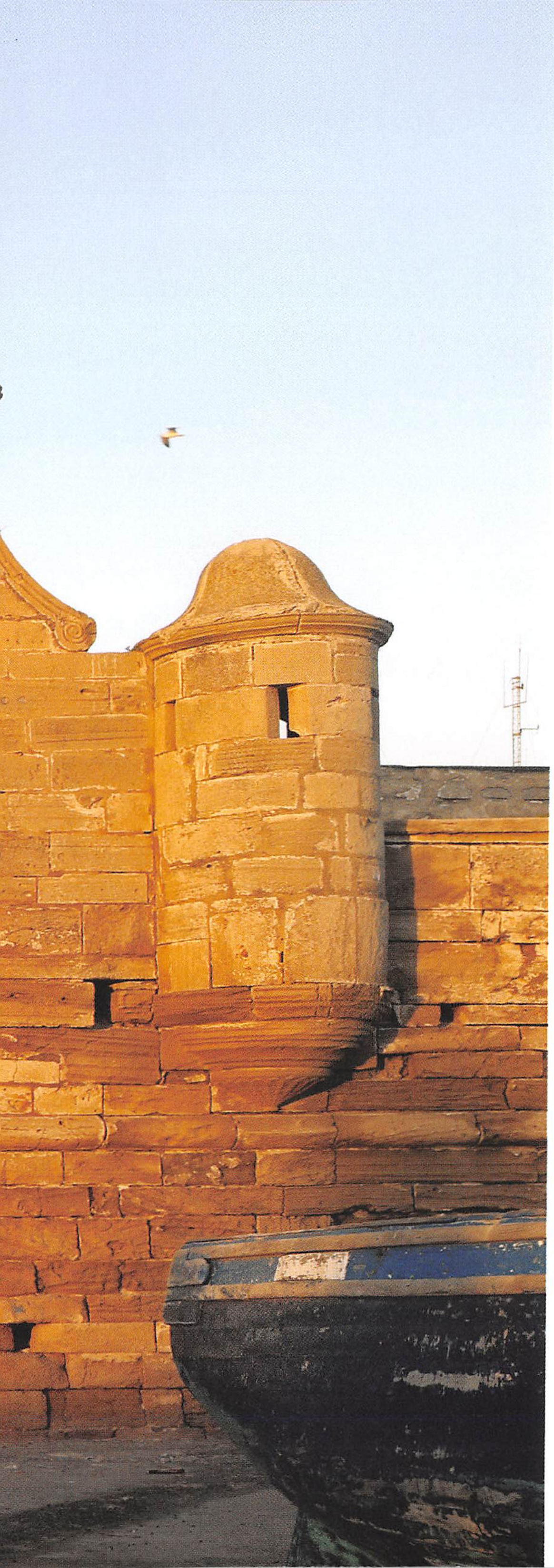

باب المرسى،
معلمة تحكي أكثر من حكاية و تاريخ.

تراجعت الأهمية الاستراتيجية للمدينة وميناءها نهاية القرن التاسع عشر[18]، وتعود أسباب هذا الانحطاط إلى ظهور موانئ جديدة بمدن (الدار البيضاء، آسفي، مازڭان، العرائش)، سقوط السياسة الحمائية التي كانت تنهجها الدولة، تراجع التجارة مع إفريقيا، إفلاس الدور التجارية الكبرى، ويضاف إلى هذه الأسباب عوامل أخرى مرتبطة بارتفاع نسبة الطمي بواد القصب الذي يصب مباشرة في جنبات المدينة، ونتيجة لذلك لم تعد السفن الكبيرة قادرة على التوغل أكثر في الميناء[19].

تفرد وتميز المعمار المغربي: باب المرسى أو باب البحر نموذجا

يشكل باب المرسى أو باب البحر نموذجا متميزا دالا على خصوصية المعمار المغربي، ويحتل حيزا استراتيجيا يربط الميناء بالقصبة وبباقي المنشآت والتجهيزات الحضرية بالمدينة. شُيد هذا الصرح بالحجر المنجور، مؤطرا بأنصاف أعمدة منحوتة بخطوط طولية (مخددة)، تعلوها تيجان مزخرفة مستطيلة الشكل إغريقية – رومانية الطراز تفضي إلى رواق مسقوف، تعلوه قبة هرمية مزينة بغلاف خشبي. وهي كلها عناصر تشكل معالم تميز المعمار المغربي، فهذا الباب الفخم من إنجاز المهندس الثاني للمدينة ومخططها أحمد العلج، وهو إنجليزي اعتنق الإسلام، أشرف على بناء المدينة بأمر من السلطان

18 - H. Ben Driss Ottmani, *Une cité sous les alizés*, p. 238.
يشير الباحث إلى أن سنة 1890 عرفت بداية تراجع مرسى موڭادور حيث لم تعد المبادلات التجارية تستقطب إلا 15 % من تعاملات المغرب الخارجية في حين وصلت هذه النسبة إلى 60 % سنة 1834.

19- J.-L. Miège, *Le Maroc et l'Europe*, Paris, 1961, p. 63 ; H. Ben Driss Ottmani, Une cité sous les alizés, p. 239.

قصر السلطان،
أو دار السلطان المسماة المهدومة،
بين الأمس واليوم.

سيدي محمد بن عبد الله سنة 1184 هـ (1770 م) كما تشهد على ذلك النقيشة التي تُزين قوصرة البوابة. وتتجلى سمات تميز معمار هذا الباب في طبيعة زخرفته الجمالية المُزينة بنقوش ناتئة بارزة، وبالإضافة إلى المدافع الصغيرة الموضوعة بعناية فوق تيجان الأعمدة فهناك ثلاثة أهلة موجهة نحو الشرق، مؤطرة من جهة، ومزينة من جهة أخرى بزخرف زهري يسمى "وريدة موݣادور"، و"خاتم سليمان" مشكل من مثلثين مقلوبين متباعدين. وهناك أيضا "محارة سان - جاك" منحوتة مباشرة تحت إطار النقيشة. ففسيفساء هذا التشكيل المعماري تفصح عن منحى توفيقي استثنائي بين الأديان يميز المغرب، وتحيل على شعارات الدولة الشريفة والتعدد الثقافي الذي ساهم في تشكيل الهوية الوطنية.

دار السلطان "المهدومة"، رمز الحوار والانفتاح

بُنيت دار السلطان المسماة ب "الدار المهدومة" أو الدار البيضاء، في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله بُعيد إنشاء مدينة الصويرة بوقت وجيز. توجد على بعد 3 كليومترات جنوبا، غير بعيدة عن الشاطئ ومصب وادي القصب، وتمثل مرحلة حاسمة في اكتمال المدينة. وحسب العديد من الوثائق، كان القصر سنة 1789 ما يزال على شكل ورش بناء. وعندما استكمل بناؤه أثث على الطراز الأوروبي إذ تخللته نوافذ زجاجية صنعها حرفيون هولنديون. وتجدر الإشارة أن رجالا مرموقين من كل الآفاق زاروا هذه البناية : سفراء وقناصل، مثل باريزيان، وهوست، وعلماء مثل علي باي العباسي، وتجار، وآخرون كثر. ويبقى الوصف الذي خلّده علي باي العباسي أثناء زيارته للمنطقة سنة 1804، مؤشرا جيدا يُظهر مدى جمالية المكان رغم هجرانه.

شذرات عن ملامح التعدد بالصويرة : الهندسة المعمارية

تزخر مدينة الصويرة، إلى جانب التحصينات والبنايات الدينية، بعدة بنايات قنصلية ذات غنى معماري وتزييني هام، مستلهم من طراز البناء الأوروبي والمغربي (القنصلية الدانماركية، الإسبانية، الفرنسية، والإيطالية...) وبنايات خاصة (رياضات) تشهد على الذوق الرفيع لبنائيها.

يحيل تصميم الدور السكنية بالصويرة على بنية المعمار التقليدي المغربي، وتنفرد واجهاتها بالعديد من الخصوصيات : تعدد الفجوات والنوافذ والغنى الملحوظ لزخرفة الأبواب ودعامات الزوايا. وقد تكيفت هذه البنايات مع النزوع التجاري للمدينة كما يشهد على ذلك توزيع الفضاءات : البناء السفلي مخصص للأنشطة التجارية (مستودعات) والطابق العلوي مُوّجه للسكن[20].

تحيل أنماط أخرى من البنايات على تعايش عدة معتقدات دينية بالصويرة، وهذا التعايش شكل سندا قويا للتطور الاقتصادي، الاجتماعي والثقافي للمدينة. وتتضح تجلياته في هندسة بعض البنايات التي تتميز بتلاقح خصوصية الحرف المحلية في البناء مع نظيراتها القادمة من أماكن أخرى، فأسفر ذلك عن ميلاد معالم فريدة، أغنت المعمار المغربي (سقالتي الميناء والقصبة، برج باب مراكش، باب البحر...). كما أن التعدد الثقافي قد سمح بانبثاق معالم دينية تنتمي للديانات الثلاث (مساجد، معابد، وكنائس). هذا الرصيد الكمي والنوعي من الكنائس المسيحية (فرانسيسكانية وأنجليكانية) والمعابد اليهودية (سيمون عطية، حاييم بينتو، صلاة الكحل) يُؤشر على مدى التعايش السلمي والتعدد الثقافي داخل أسوار مدينة صغيرة لا تتجاوز مساحتها ثلاثون هكتارا.

تجدر الإشارة إلى أن عدد أماكن العبادة اليهودية يبقى واضحا للعيان، وتعود ملكيتها لمجموعة من العائلات كما هو الشأن بالنسبة للكنيس اليهودي سيمون عطية الذي كان يضطلع بدور المحكمة. ويبقى الكنيس اليهودي المسمى ب «صلاة الكحل» - «معبد الطائفة» - من بين أكثر المنشآت الدينية اليهودية رمزية وحداثة بالصويرة، حيث شيد سنة 1850، وكان يحج إليه اليهود من كل الآفاق للاحتفال بالأعياد والمناسبات الدينية.

أما فيما يتعلق بالمعالم الدينية الإسلامية فبعضها مجاور لبنايات روحية واجتماعية (زوايا)، أو أضرحة لأولياء صالحين إلى درجة أنها أصبحت تشكل مؤسسات دينية قائمة الذات. وتتوزع هذه الزوايا والأضرحة على مجموع المدار الحضري باستثناء القصبة الجديدة التي لا يوجد فيها أي مبنى ديني.

يعود تاريخ تأسيس مختلف أحياء مدينة الصويرة إلى أواسط القرن الثامن عشر باستثناء القصبة الجديدة وحي الملاح الجديد اللذين تم بناؤهما في القرن التاسع عشر، وما زالت هذه الأحياء تحتفظ بأسماء المجموعات البشرية، القبلية والعسكرية التي استوطنتها لأول مرة (بني عنتر، شبانات، أهل أڭادير ، العلوج، رحالة، مسغينة، بواخر، جبالة...) وتتوزع هذه الأحياء في إطار مجالي محدد وتتوفر بها المنشآت والبنايات التي تضمن لها نوعا من الاستقلالية والاندماج في النسيج الحضري (مساجد، حمامات، نافورة عمومية، فرن، متاجر...).

20- S. Mouline, S. Santelli, « Etudes et propositions architecturales et urbaines pour la revitalisation des centres historiques ». *Médina d'Essaouira* 1997-1999, Paris, 1999, p. 45-48.
E. El Farz, « L'architecture domestique dans un quartier de la ville d'Essaouira : la qasba », Mémoire de fin d'études du IIe cycle de l'Institut National des Sciences de l'Archéologie et du Patrimoine, Rabat, 1994 (dactylographié).
واستنادا لدراسة حديثة نسبيا فالدور السكنية بالمدينة تتكون من أربع مجموعات : منازل التجار، المنازل ذات الأروقة، المنازل ذات الأقواس والمنازل الشعبية.

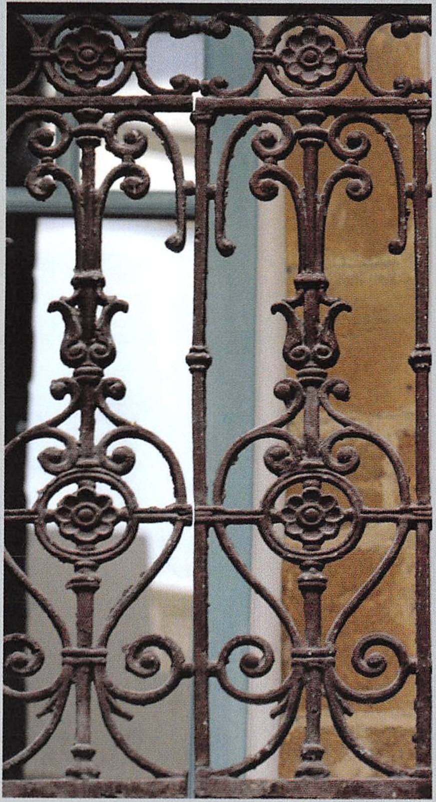

قنصلية فرنسا،
صحن المقر القديم حيث أقام
المستكشف والجغرافي شارل دوفوكو
سنة 1884.

السقالة،
قوارب وصيادون.

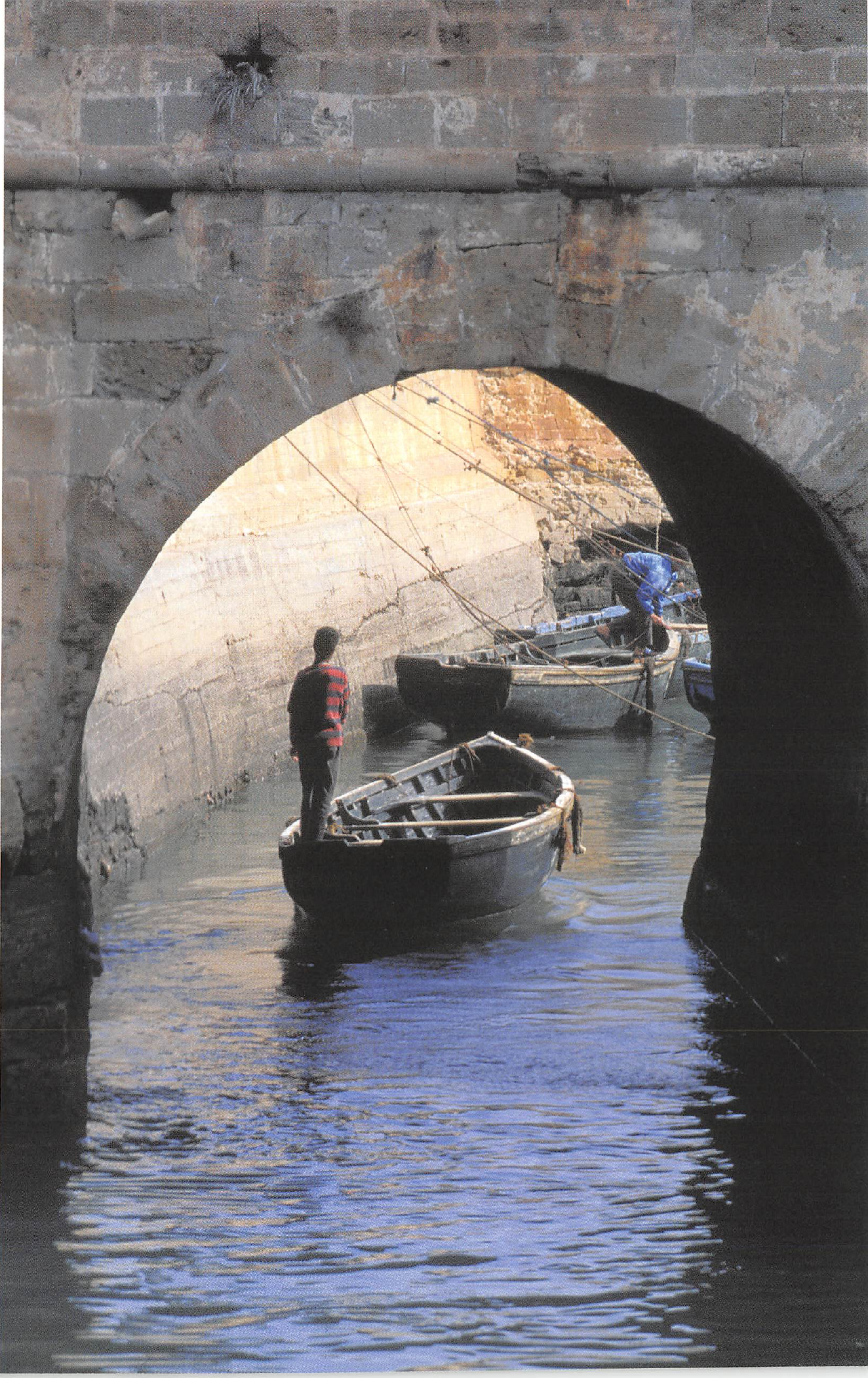

أما حي القصبة فقد أنشأ وفق تصميم غير منتظم، ويشكل عصب المدينة النابض ومركز حياتها السياسية (دار المخزن أو دار السلطان) والدينية. وسط هذا النسيج العمراني يوجد المسجد الكبير الذي يسمى ب «مسجد القصبة»، وفي الجنوب أنشأ القصر السلطاني الذي هُدم حوالي العشرينات من القرن الماضي لإحداث دور سكنية وساحة عمومية كبيرة[21].

تشكل مدينة الصويرة إذن نموذج مدينة متجانسة متعددة الروافد الثقافية والمميزات الطبيعية، شيدت لبناتها الأولى أواسط القرن الثامن عشر، واكتمل بناؤها في القرن التاسع عشر، ولعبت دورا أساسيا ومحوريا في التجارة الدولية، إذ ربطت المغرب بالعديد من العواصم الأوروبية إلى حدود القرن العشرين. إنها مدينة تعكس خصوصية وشمولية الثقافة المغربية بما تحمله من قيم الثراء الحضاري والتعايش الديني والروحي.

21 – لم يتبق من القصر السلطاني حاليا إلا جناح مستطيل يسمى بالمنزه والباب الشرقي المفضي إلى ساحة المشور.

السقالة،
منظر للمصطبة من داخل البرج.

الصويرة،
ساحل بين السماء و البحر.

بيبليوغرافيا

محمد بن سعيد الصديقي، «إيقاظ السريرة لتاريخ الصويرة»، الدار البيضاء.

مينة المغاري، «مدينة موگادور-السويرة: دراسة تاريخية وأثرية»، الرباط، 2006.

- H. Ben Driss Ottmani, *Une cité sous les alizés. Mogador des origines à 1939*, Rabat, 1997.
- H. de Castries, «Le Danemark et le Maroc (1750-1767)», dans *Hespéris*, T. 4, 1926, p. 327-349.
- P. de Cenival, «Mogador», dans *Sources inédites de l'Histoire du Maroc,* T.I, 1ère série, 1934, p.120-129.
- E. El Farz, «L'architecture domestique dans un quartier de la ville d'Essaouira : la qasba», Mémoire de fin d'études du IIème cycle de l'Institut National des Sciences de l'Archéologie et du Patrimoine, Rabat, 1994 (dactylographié).
- A.El Khayari, H. Hassini et M. Kbiri Alaoui, «Les amphores phéniciennes et puniques de Mogador», dans *Actes des* I^{res} *journées nationales d'archéologie et du patrimoine* (Rabat, 1-4 juillet 1998), Vol. 2, Rabat, p. 64-73.
- G. Høst, *Histoire de l'Empereur du Maroc Mohamed Ben Abdallah*, (traduction F. Damgaard et P. Gailhanou), Rabat, 1998.

*ترجم هذا النص إلى العربية عبد الفتاح إشخاخ
وعبد الكريم الجويطي وراجعه حسن البوهي.

A. Jodin, «Note préliminaire sur l'établissement préromain de Mogador (Campagnes 1956-1957)», dans *BAM*, II, 1957, p. 9-40.
- A. Jodin., *Mogador. Comptoir phénicien du Maroc atlantique*, Tanger, 1966.
- A. Jodin, *Les établissements du roi Juba II aux îles purpuraires (Mogador)*, Tanger, 1967.
- R. Le Tourneau, «Le Maroc sous le règne de Sidi Mohamed Ben Abdellah (1757-1790)», dans *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée*, Premier semestre, 1966, p. 113-133.
- L. Massignon, *Le Maroc dans les premières années du XVI^e siècle*, Alger, 1906.
- A. Meddeb, B. Stora, *Histoire des relations entre juifs et musulmans des origines à nos jours*, Paris, 2013.
- S. Mouline, S. Santelli, «Etudes et propositions architecturales et urbaines pour la revitalisation des centres historiques». Médina d'Essaouira 1997-1999, Paris, 1999.
- J.-L. Miège, *Le Maroc et l'Europe*, Paris, 1961.
- F. Villard, «Céramique grecque au Maroc», dans *BAM*, IV, 1960, p. 1-26.
- H. Zafrani, *Études et recherches sur la vie intellectuelle juive au Maroc*, Paris, 1980

تڭناوة،
تقليد موسيقي من الصويرة.
(الصفحة المزدوجة الموالية).

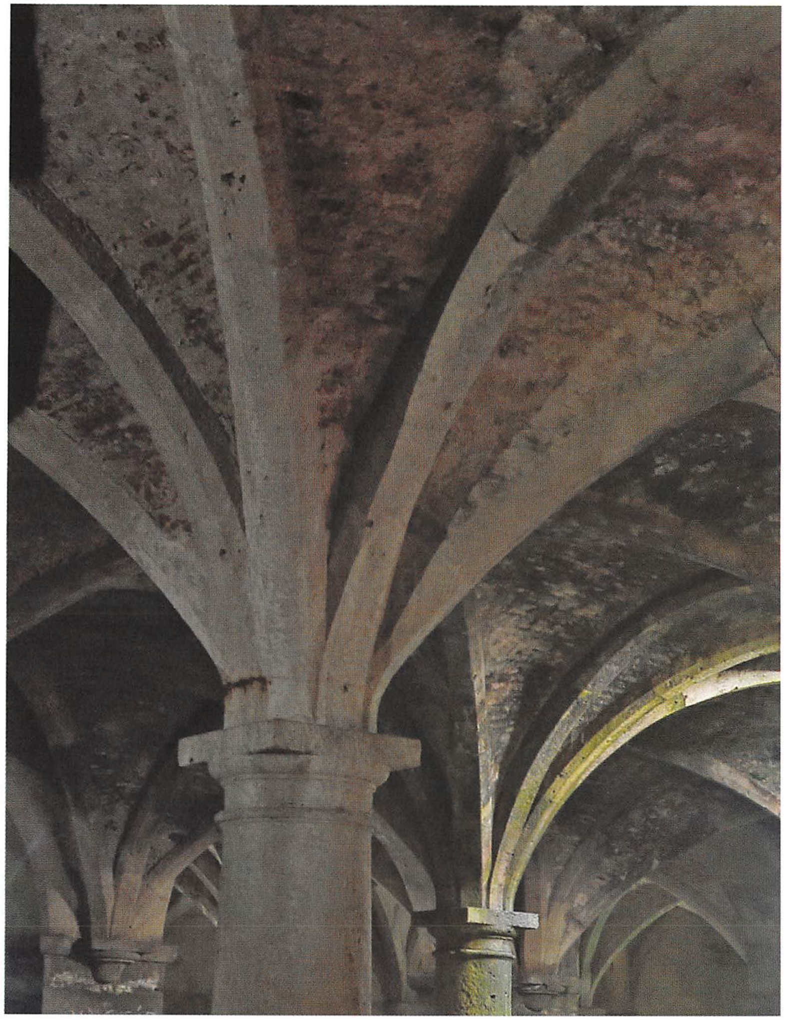

الجديدة

تراث ثقافي مغربي

مازاڭان ملتقى الثقافات، مازاڭان الكونية

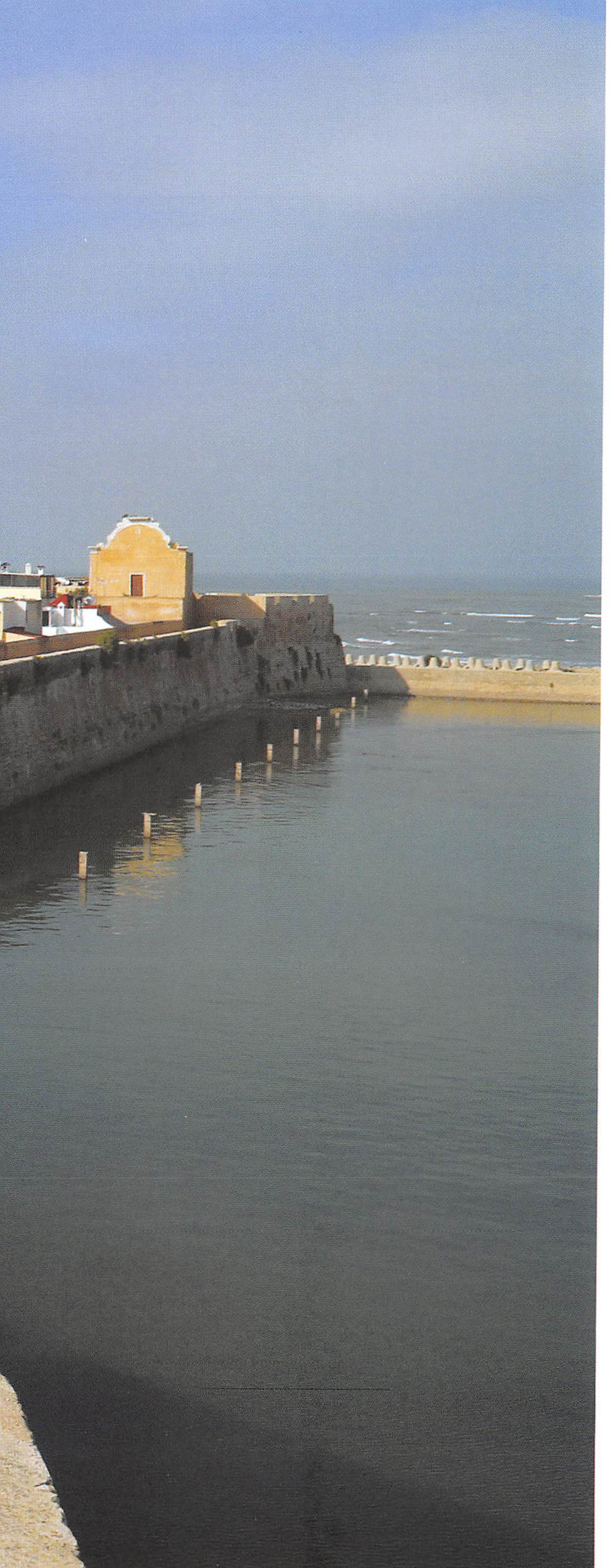

مازاڭان،
السور الشمالي.

مازاڭان / الجديدة تمازج ثقافي - كوني

المدينة-الباخرة التي عبرَت التاريخ والقارات «بقدر دخولها في البحر، بقدر مناعتها»

أبو القاسم الشـــبري
محافظ آثار / مختص في التراث المغربي-البرتغالي

المعيار (II) : «إن المدينة البرتغالية مازاڭان مثال فريد لتبادل التأثيرات بين الثقافات الأوروبية والثقافة المغربية، وهي أحد أول التجمعات السكنية للمستكشفين البرتغال في إفريقيا الغربية على طريق الهند. هذه التأثيرات تنعكس بجلاء في المعمار والتكنولوجيا وتعمير المدينة».

المعيار (IV) : «المدينة البرتغالية المحصنة مازڭان مثال فريد وأحد النماذج الأولى لتحقيق المثل العليا للنهضة الأوروبية، ممزوجة بتقنيات البناء البرتغالي. ومن بين المنشآت الأكثر تميزا في المرحلة البرتغالية توجد المسقاة البرتغالية وكنيسة الصعود والتي بنيت على الطراز المنويلي لبدايات القرن 16.

مازغان، مازيغن، بالأمازيغية، البريجة، الجديدة، بالعربية وMazagão أو Mazagam (لدى البرتغاليين) Rutubis Portus أو Rusibis (عند الإغريق والرومان) مدينة مصنفة من طرف اليونسكو ضمن قائمة التراث المادي للإنسانية منذ يونيو 2004. وهي الشاهد الوحيد على التحصينات بالبستيونات خارج أوروبا. إنها مدينة ذات خلفية أمازيغية، بنيت من طرف البرتغاليين ورمّمها المغاربة بعد ذلك. مدينة قناصل، مقر للمسيحيين واليهود والمسلمين خلال ما يربو على قرن.

مازاڭان،
ممر الحراسة فوق باب البحر.

كما في الأساطير، ولدت مازاڭان من دوار أمازيغي منسي، من قرية صغيرة لصيادين مساكين، كانت مجهولة على شاطئ المحيط الأطلسي. تتواجد القرية في المجال الترابي لقبائل دكالة المغربية، وستسم بعد ذلك كل التاريخ المغربي - البرتغالي والإيبيري - الجنوب - أمريكي، وهي مكان انطلاق الرحلات البحرية لتوسعات عصر النهضة ومصدر إلهام لمدارس المعمار العسكري في أوروبا. وحين «ماتت» مازاكاو البرتغالية في المغرب انبعثت في البرازيل. مازاڭان هي المدينة المغربية الوحيدة التي «توالدت» ونجدها اليوم في جهات العالم الأربع.

تدين مازاڭان المغربية - البرتغالية بأسطورتها التأسيسية لتاريخ خرافي، غريب، مضطرب لكنه مشترك، فاسمها يتردد كملحمة عالمية، يعبر المحيطات، ويقاوم الزمن. وهكذا هناك مدن معروفة أومجهولة ومتجاهلة توجد في البرازيل والهند، والبرتغال وإسبانيا وحتى المكسيك. تذكرنا مازاڭان بـ « السيبستيانية » التي وسمت البرتغاليين والبرازيليين من أواخر القرن 16 (1578) حتى القرن 20. ودخلت هذه المدينة الأسطورية عالم الأدب والأعمال الفنية ملهمةً الروائيين والفنانين.

وهكذا فقد عوضت مازاڭان في المخيال الجماعي مدينة روديس (Rhodes) الشهيرة والمنيعة، والقول المأثور : «أقوى من روديس» لم يعد دارجا بعد النصف الأول للقرن السادس عشر ؛ فمنذئذ عوض بالقول : « أقوى من مازاڭان » والتي تحيل على كل فرد له شخصية قوية. وصارت مازاڭان بالنسبة للأوروبيين مثالا يحتدى في المعمار العسكري. مازاڭان المدينة الوحيدة إذن، بالمغرب التي يشار إليها ب «المدينة-الحصن».

ولذلك ستعمل هذه الدراسة على تقديم وتحليل كل ما سبق وفق مقاربة تاريخية، معمارية، أركيولوجية، وإجتماعية.

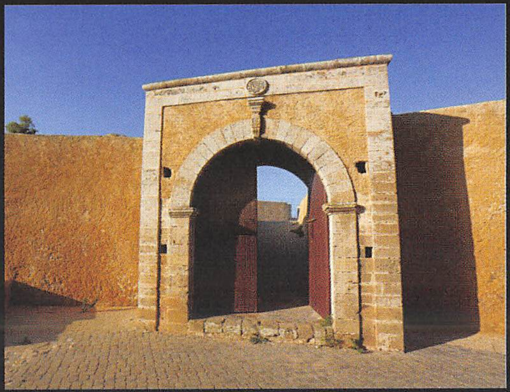

باب برج سان سيباستيان،
رمم في القرن التاسع عشر.

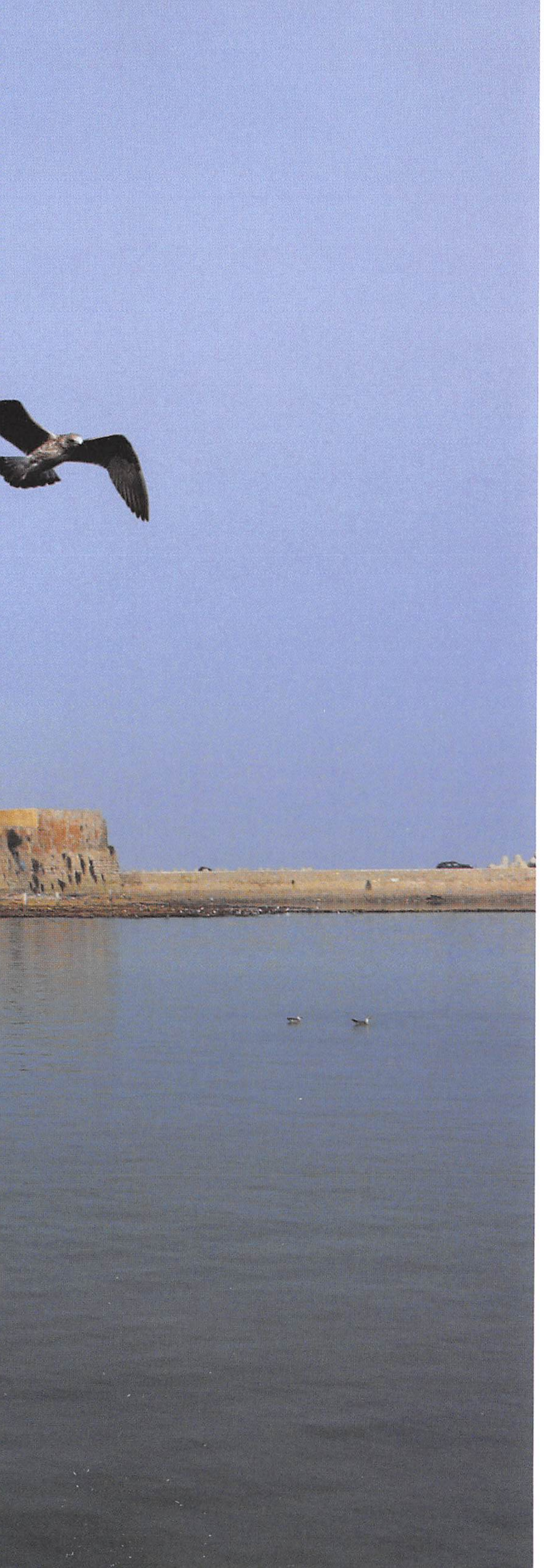

مازاڭان،
بستيون الملاك.

التوسع البرتغالي والمغامرة في بلاد الإمبراطورية المورية

دفعت الظروف الاجتماعية-الاقتصادية للقرن 15 الدول الأوروبية الصاعدة إلى السفر خارج ديارها للبحث عن الثروة تحت سماوات أخرى. يتعلق الأمر باستكشافات اقتصادية أكثر منها «اكتشافات جغرافية». وكانت جزر الكناري وجزر الآسور وماديرا مسرحا لأولى صراعات المصالح بين الإنجليز، الفرنسيين، الهولنديين، القشتاليين، الإيطاليين والبرتغاليين. في هذه المرحلة كان العالم الإسلامي بصدد السقوط والتهاوي، وصار بالإمكان الاستيلاء على المغرب، الذي أضعفته الصراعات الداخلية رغم المقاومة التي كان يبديها المغاربة إزاء الأطماع التوسعية. قام البرتغاليون بأول خرجة توسعية لهم في العالم من خلال احتلال المدينة المغربية سبتة في 21 غشت 1415 م، نظرا لأهميتها الاستراتيجية، ولإنهاء كل الأحلام الإسلامية في «انبعاث» أندلس جديدة.

لكي يصلوا إلى آسيا كان البرتغاليون مضطرين لإيجاد موطئ قدم لهم في الشواطئ الإفريقية. بعد سبتة، احتلوا القصر الصغير (1458 م)، أصيلا (Arzila) وطنجة في 1471م، وحاولوا الاستقرار في غراسيوزا شمال العرائش (1489) لكن المغاربة أحبطوا محاولاتهم. وقاموا بمحاولات في

نقيشة بخط عربي تؤرخ للترميم المغربي للبستيون البرتغالي.

المعمورة وآنفا، وفي سوس ودكالة. ودفعوا سكان آسفي، وأزمور، وماسة إلى توقيع معاهدات تبعية وولاء وذلك في 1480، 1486، 1497. ونزل أسطول إيمانويل جورج دي ميلو في مازاڭان عن قصد سنة 1502.

تحولت الوكالة التجارية لماسة في 1497 إلى سانتا كروز رأس ڭير (أڭادير) في سنة 1505، وهي قلعة جواو لوبيس دي سيكيرا اقتناها الملك مانويل الأول سنة 1513. وحوالي 1506 أنشأ دييڭو دي أزامبوجا حصن الصويرة (Castelo Real de Mogador). ثم في 1507 و 1508 تم الاستيلاء على أڭوز وآسفي. وفي سنة 1513 استولى دوم جايمي، دوق براغانس، على أزمور. وفي سنة 1514 صارت مازاڭان رسميا تحصينا برتغاليا. كل هذه المدن المحتلة ستحرر ما بين 1516 و1550. وتحولت سبتة إلى أيدي الإسبان، ولم تحرر مازاڭان إلا في سنة 1769 في نهاية تصلح لإنجاز عمل مسرحي.

خلاف حول اسم المدينة وحول احتلالها

«Mazighen» «مازيغن»، الأمازيغي الأصل، هو الإسم الذي منحته المصادر العربية والأجنبية منذ، على الأقل، القرن الحادي عشر لموضع لا نعرف عنه تقريبا أي شيء. هل يكون الموقع الذي ذكر عند البكري وورد في خريطة الشريف الإدريسي هو نفسه «Rutubis Portus» أو «Rusibis».

صومعة المسجد،
برج المراقبة البرتغالي القديم.

في مازيغن وجد البرتغاليون برجا مغربيا «البريجة» حيث احتموا لبعض الوقت. وهنا ستأخذ كلمة «مازيغن» رنينا، أو نُطقا برتغاليا «Mazagão» أو، «Mazagam» وانطلاقا من هذه التسمية أراد بعض الباحثين، خطأ، نسب اسم المدينة وبنائها إلى البرتغاليين، وهذا، ما يعد مجانبا للصواب لغة وتاريخا. فالإسم والموقع لهما أصل أمازيغي، مغربي قح.
وللتمويه والتغطية على الصراع بين البرتغال وقشتالة، حول غزو الأراضي الإفريقية تم افتعال تفسير مجيء البرتغاليين إلى مازاڭان بتلك الصدفة التي قادت فيها عاصفة أسطول جورج دي ميلو نحو خليج مازاڭان. غير أن الوثائق والظروف التاريخية تكذّب بشكل قاطع هذه الصدفة وواقعة حدوث هذه العاصفة، وتفيد بأنه كانت هناك علاقات تجارية مع ماسة، آسفي وأزمور ومازيغن منذ منتصف القرن الخامس عشر، بما في ذلك عقود الولاء الموقعة مع مع المدن الثلاث. وعليه، فقد كان البرتغاليون يعرفون جيدا موقع مازاڭان والذي احتلوه عن قصد سنة 1502. لقد كان الصراع بين البرتغال وقشتالة لا يسمح لملك البرتغال بإعلان تملكه لمدينة ما ولا مباشرة تشييد منشأة جديدة.
قرونا قبل احتلالها، كانت مازاڭان تذكر في تقارير وخرائط بحرية أوروبية ومنها البرتغالية نفسها. ومن بين هذه الوثائق نجد فاتورات التبادل التجاري البرتغالي في مازاڭان والتي تعود إلى 1500 م على الأقل. وهذا ما يفند، مرة

الخزان البرتغالي،
مضلعات وجزء من الركيزة.

أخرى، نظرية العاصفة. قضى البرتغاليون عدة سنوات في منشأة بدائية قبل أن يشيدوا بمواد صلبة وللأبد قلعة سنة 1514 والتي ستتم توسعتها وتحصينها في 1541، ومن ثمة فقد أسسوا أسطورة مازاڭان، من حيث لا يدرون.

من «الحصن الصغير» إلى «القلعة المنيعة»

القلعة الأولى في 1514

من البديهي أن البرتغاليين، ونظرا للظرفية، لم يكونوا في البداية مهتمين بإنشاء قلعة في موقع مازاڭان. هذه القلعة ذات النزوع العسكري، وقبل كل شيء النزوع التجاري في نظرنا، أنشئت كقاعدة خلفية بسيطة لأزمور. هي حصن بأهمية من الدرجة الثانية ومستودع للبضائع التي تتجمع في مدينة مولاي بوشعيب، من دكالة والشاوية ولشبونة وماديرا.

الخزان البرتغالي،
القلعة القديمة، 1514.
(الصفحة المزدوجة الموالية).

YASTIR

مازاگان،
استعادة متأخرة
للطراز الإيبيري.

وبالفعل، فالبرتغاليون الذين كانوا قد وصلوا رسميا إلى مازيغن سنة 1502، لم يبنوا فيها نقطة ثابتة إلا في سنة 1514. إن صدقنا أرشيفات تلك الحقبة، فقد استجاب الملك «النصيحة» ونداء دوق دوبراغانس غازي أزمور. فمباشرة بعد الاستيلاء على أزمور في 3 شتنبر 1513، عبّر الدوق للملك، أواخر ديسمبر، عن ضرورة بل واجب بناء قلعة في خليج مازاگان. تحت مسمى القصر المانويلي (حاليا الخزان البرتغالي)، يعتبر «حصن مازاگاو» (A Cidadela de Mazagão)، من مآثر الملك إيمانويل الأول الملقب بالمحظوظ أو الثري (1495 - 1521). بنيت القلعة، أو انتهي من بنائها، سنة 1514م. هذه التحفة المعمارية من إنجاز الأخوين فرانسيسكو وديوگو دي أرودا. وهما مهندسان تركا بصمتهما في تاريخ معمار إمبراطوريتهما.

تنعكس هذه الملابسات التاريخية بجلاء في معمار البناية، التي بنيت وفق الطراز القوطي - المانويلي. والهندسة المعمارية في حدّ ذاتها، وقبل كل شيء، إستجابة لحاجة ما، وهي إنعكاس لصورة أمّة وعصرها. إن الحصن المانويلي الضخم جدا، هو عبارة عن مخزن ومستودعات. وكل عنصر من عناصر بناء مازاگان بني ليخلد إلى الأبد.

انطلق الأخوان دي أرودا من البرج المغربي المسمى البريجة، في الجنوب لتشكيل مربّع بثلاثة أبراج أخرى: برج اللقالق (Torre da Segonha) في زاوية الشرق، برج الرباط (Torre do Rebate) في الشمال وبرج السجن (Torre da Cadea) في الزاوية الغربية. والقصر موجّه بإنحراف إزاء البحر

برج الرباط،
برج تم تحويله إلى صومعة
في القرن التاسع عشر.

وأبراجه توجّه أنظارها نحو الزوايا الأربع المحددة للاتجاهات الجغرافية. وقد بُني الداخل على شكل قباب، بينما السقف مسطح من الخارج.

في شرفة القصر، بين «برج البريجة»، بعرض 6.80 م إلى شرفة «برج اللقالق»، توجد المعتمدية (Vedoria Geral) أو القبطانية العليا. يشكّل «برج اللقالق»، بعرض4.05 م على السطح، أفضل راميات مدافع لهذا الحصن الأول وعددها أربع، وهي الأكثر أصالة. أما بالنسبة لبرج السجن (Cadeia)، فهو، وكما يدل اسمه على ذلك، استعمل كسجن (ربما لأسر النبلاء والفرسان). بجانب سطح هذا البرج من السجن توجد كنيسة الرحمة (Igreja da Misericórdia) أول كنيسة أنشئت في مازاڭان ولم يتبق منها اليوم إلا جزء مثلث، بعض بقايا ما كانت عليه ربما قبة الناقوس.

كان برج الرباط، وهو أعلى الأبراج، يستعمل للمراقبة، ومن هناك كان المراقبون يمسحون الأفق بحثا عن علامة حياة ليلا ونهارا. وربما كان يتوفر على منبه في الأعلى أو عمود للإشارات . وبين برج الرباط هذا وبرج اللقالق، من الجائز أن المستشفى الذي سُمي بالملكي كان يوجد هناك. تم تحويل برج الرباط نحو سنة 1879 م وبأمر من مولاي الحسن الأول (1873 - 1894) إلى مئذنة للجامع الكبير، الذي بني، وبدون شك، فوق أنقاض قصر الحاكم إبّان أشغال إعادة تأهيل المدينة بين 1823 و1825 م في عهد مولاي عبد الرحمان (1822 – 1859) من طرف الباشا محمد بن الطيب.

كان ما يسمى اليوم بالخزان البرتغالي، ذو الصيت العالمي، والجوهرة الفريدة للتراث المغربي معدّا في البداية كمستودع للسلاح والمؤن. قاعة للسلاح تشكل مربعا نصفه يوجد تحت الأرض (واقع تحت الأرض) بـ 33.60 × 34.70 م مع هامش خطأ يقدر ب10 سم تقريبا، وهو مشكل من 25 عمودا وركيزة متساوية تحمل سطحا مقببا، ترتكز عروق الحجر المنحوت التي تسنده على حدوة تحاكي نصف ناقوس وُضِع مقلوبا. الطراز نفسه والتقنية نفسها نجدها بالنسبة للمستودعات الجانبية، رغم أن هذه الأخيرة غنية بالرموز والشعارات التي تزخرف تلاقي كل الحدوات. يمنحنا ملمح حدوات قاعة السلاح، وخصوصا، حدوات المستودعات، الإحساس الجذلان والحميمي لدواخل الكنائس والكاتدرائيات. ويجب أن نعرف بأنه، ورغم بنائها لهدف عسكري، فإن العبقرية البرتغالية عرفت كيف تزاوج بين النافع والممتع ، حيث إن كل ملمح يلهمنا الذوق الرفيع والفرح والبهجة.

قلعة بنديتو دي رافينا (1541م)

كرنولوجيا قصة تصميم معماري

إن القلعة التي بنيت في البداية لمؤازرة أزمور ستصير أهم موقع برتغالي في كل إفريقيا، وكأجمل ميناء في العالم «*O melhor porto do mundo*» كما وصفه دوق براڭانس. ولكي يكون لمازاڭان هذه الأهمية الخارقة كان يتوجب على روافد التاريخ أن تصب في مجراها .

باب الخدعة،
منظر من خلال فتحة مدفع .

شكّل الملك، ببعد نظره أو إقرارا بخطئه في تجاهل تقرير ج. دي كاستيلو، لجنة مكوّنة من مهندسين مختصين في التحصينات العسكرية لإرشاده لحلول بغاية «إنقاذ المغرب» وعلى رأس هذه اللجنة عين أخاه الدون لويس، وهو خبير في التحصينات الإيطالية. كان نظر الملك موجها بالأساس نحو مازاڭان، ثم سبتة بشكل عرضي. من الناحية التقنية، فضّل جون الثالث التجربة الإيطالية. وهكذا فَرض نفسه اسم الإيطالي بينيديتو دي رافينا.

كان دييغو دي تورالفا قد وصل قبل ذلك لمازاڭان حين ذهب ميغيل دي أرودا إلى إسبانيا للبحث عن بينيديتو دي رافينا والتحق به بتاريخ ماي 1541 م في قاديس (Porto de Santa Maria). تواجد الخبيران في 25 ماي في سبتة لدراسة تحصيناتها، وفي شهر يونيو كانا في مازاڭان. التحق بهما جواو دي كاستيلو في يوليوز، كرجل ميدان، مرفوقا بأزيد من 1500 عامل بناء مؤهلين. في فاتح غشت 1541 م كانت الأشغال قد بدأت. في 1542 م كانت الأسوار والبستيونات قد أنجزت بفضل أزيد من 2000 عامل يحرسهم 800 جندي وكل ذلك تحت القيادة المحنكة للحاكم الكبير لويس دي لوريرو.

كان إذن بينيديتو دي رافينا قد اهتدى وزملاءه إلى تبني نظام التحصين للقلعة. ومنحت مازاڭان لخيال بينيديتو دي رافينا المجال ليخط تصميمه المبتكر والذي سيكون أول نموذج خارج أوروبا النهضوية، ووضع نصب عينيه التوجيهات الملكية : « بقدر ما ستكون هذه القلعة في البحر بقدر ما ستكون قوية ومؤهلة للدفاع عن نفسها».

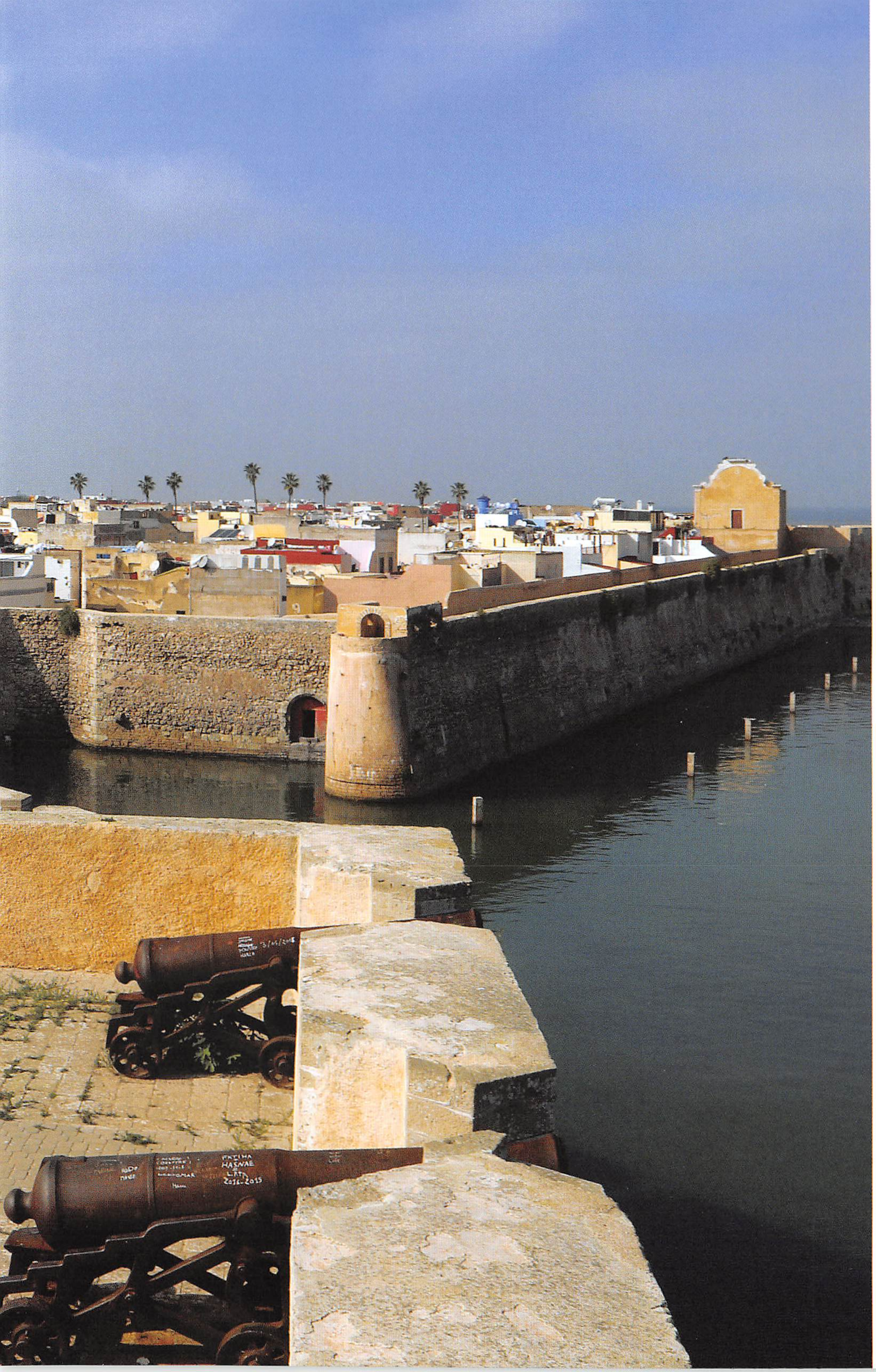

السور الشمالي،
منفذ باب البحر.

المدينة – السفينة

استلهم التصميم الذي اقترحه بينيديتو دي رافينا المعمار الإيطالي، إنه نمط البستيونات المحصنة تحصينا متعدد الزوايا غير الحادة الذي يعَد فيه بينيديتو معلما كبيرا، إن لم يكن رائده الأول . اقتضى التصميم قلعة محصنة بكيفية جيدة، مفتوحة على البحر، ومحاطة بخندق ماء وليس لها من جهة الأرض سوى باب دخول واحد. إنها نجمة لها أربعة فروع، وتشكل مستطيلا غير منتظم، أما الجدران فليست مستقيمة خطيا ولا عموديا. فالأسوار، المنحنية بعض الشيء من الأعلى، تلتوي وتتقعر قليلا نحو الداخل في وسط كل سور. ويشكل الالتواء المقعّر للجدران زاوية خارجية بحوالي 160° بالنسبة للواجهات الأرضية الثلاث : السور الشمالي - الغربي، والسور الجنوبي - الغربي والجنوبي - الشرقي، بينما الواجهة البحرية في الشمال الشرقي مستقيمة، من بستيون سان - سيباستيان في الشمال حتى باب البحر حيث يتوغل السور نحو الداخل ليخلق ميناء صغيرا دون اللجوء إلى بناء حاجز أو رصيف.

هذا التقعير في الأسوار يعطينا شكل نجمة توجد نقطها الأربعة في بستيونات واسعة ومتينة جدا. هذه البستيونات أريد لها أن تنظر للنقط الأربعة المتصالبة (الاتجاهات الجغرافية) وهي بستيون سان - سيباستيان في الشمال و بستيون سان - إيسبري الروح القدس (Saint Esprit) ، في الجنوب وبستيون الملاك في الشرق وبستيون سان - أنطوان في الغرب. ونجد

بستيون سان – سيباستيان وسان أنطوان والملاك مسنودان بعروة، أي برج صغير نحيف، مستدير يتكئ على كتف البستيون ويسنده، وهذا تجديد آخر في مازاڭان والذي يضيف فضاء بقدر ما هو مثالي للدفاع، فهو يمنح بعض الأناقة لبستيونات تبدو خشنة. وقد عزز هذا مبدأ بينيديتو القاضي بتجنب الزوايا الميتة أو العمياء. هذه العروة (البرج الصغير) تخفي وتحمي رامية مدفع موجّهة مباشرة نحو الخندق وهي منذورة لخوض آخر معركة، إن اجتاز المهاجم الخنادق ووصل إلى تحت أقدام الأسوار. ولنجمل القول، فكل واحد من هذه البستيونات، هو بمثابة مركب عسكري قائم الذات، واسع جدا، متين، مشكل من المعاصم، وممرات ودهاليز، والكل يشكل تصميما يشبه المتاهة. وقد استفاد السعديون من هذا التصميم الدفاعي وقلّدوه، خصوصا في فاس (برج الشمال وبرج الجنوب) وفي تازة (البستيون).

دفعت أسس وحاجيات الدفاع عن القلعة إلى تكييف طول الأسوار وفرضت عليها كتلة وسمكا معينين. لكل من الأسوار الثلاثة جهة البر سمك 10.50 م حتى 11 م. فالمتراس الخارجي لممر المراقبة وحده بسمك 03.40 م، وممر المراقبة بدوره يشغل 07.50 م. غير أن السور البحري الشمالي - الشرقي لا يتجاوز سمكه كله 5 م بما في ذلك 0.70 م بالمتراس الخارجي.

لم يكن للقلعة إلا بابين رسميا، باب البحر (A Porta do Mar) على المحيط، معقوف نحو الداخل في السور الشمالي - الشرقي مشكلا ميناء صغيرا، وبوابة رئيسية وحيدة تسمى Porta da Vila أو Do Socco وكان لهذا الباب الرئيسي فتحة واحدة وجسر متحرك يلقى في الخندق الذي يحيط بكل القلعة حيث يحجز ماء المد البحري بفضل صمام (نظام آلي، أو ميكانيكي). كان للخندق عرض بطول 20 م وأزيد من ثلاثة أقدام عمقا. يراقب بستيون الحاكم البوابة الرئيسية ويسمح بتدبير اشتغال الجسر. وحدها بضعة أحجار بقيت من هذا البستيون الذي فخخه البرتغاليون يوم رحيلهم حين فرارهم في 1769 م. وتوجد بوابة صغيرة أخرى وسط السور الشمالي - الغربي وكانت تسمى باب الثيران (Porta das Boas)، وهي مخصصة إذا للأبقار

بستيون سان سيباستيان،

باب رمم في القرن التاسع عشر.

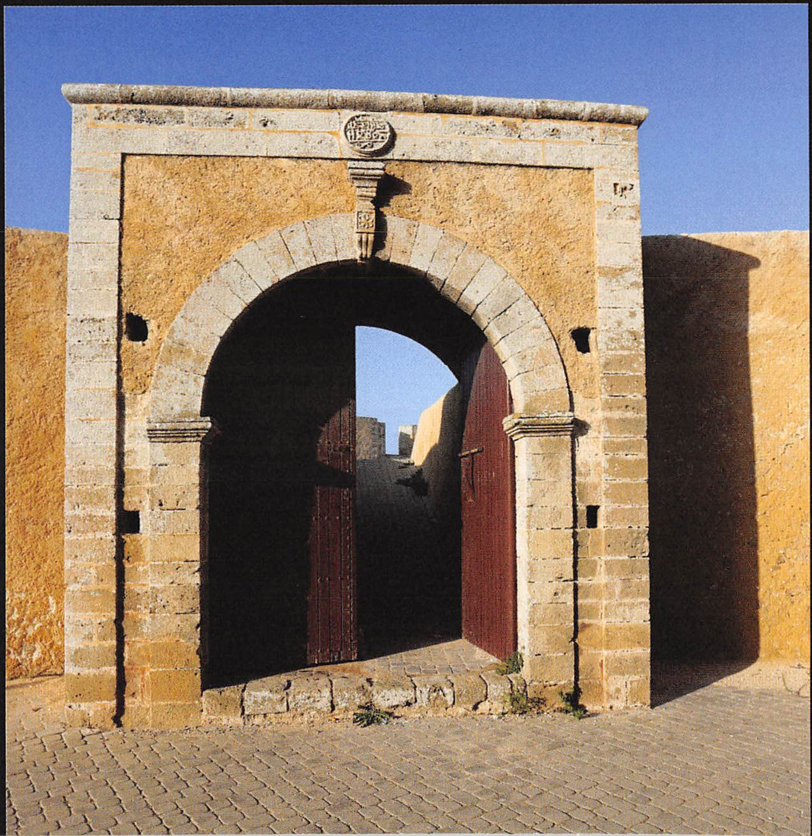

والخيليات كما يدل عليها اسمها. ويحكى بأنها أغلقت بعد الحصار الرهيب لـ 1562. وسيتم الكشف عنها في فبراير 1916 م لكن لا نتوفر على معلومات عن جسرها المتحرك. وكانت للمدينة بوابة أخرى، ربما هي أهم الأبواب، تسمى باب الخُدعة ولها أهمية بالغة في كل التحصينات التي عرفها التاريخ. كانت في عروة «بستيون الملاك»، من جهة الخندق وتسمح برؤية شاملة للسور الجنوبي - الشرقي وكانت بها رامية مدفع تؤمنها.

الإشكالية المتعلقة بمسألة الماء

يحكى بأنه، وتبعا لتوسيعات 1541 م، تم تحويل قاعة السلاح في القلعة إلى خزان مائي، وهو مشهور حاليا في العالم أجمع ويجذب كبار السينمائيين. لا شيء تغير في البناية لكن في تلك الفترة بكل تأكيد بني السلم الخارجي الذي نراه اليوم بكل أبراج الحصن، باستثناء برج الرباط

ممر الحراسة، الجهة البحرية.

(Torre da Rebate) أو الصومعة، غير أن الباحثين لم يتمكنوا بعد من الإجابة عن سؤال كيفية تزويد هذا الخزان بالماء. هناك احتمالات يتم تكرارها، تتفق وتختلف، لكن الكل يرجح وجود بئر خارج الأسوار، من الجانب الغربي للمدينة والذي كان المصدر الرئيسي للتزود بالماء، والإحالة هنا، بكل تأكيد، على «بئر الدوق» والذي أخذ اسمه من دوق براڭانس الذي غزا أزمور.

قلعة «مُؤمِنة» :

بتوسيعها إلى قلعة، عرفت مازاڭان انفجارا عمرانيا، ورأت النور دور ومنشآت مدنية وعسكرية ودينية في وقت قياسي، ما بين 1541 و1548 أساسا. وتمخض عن هذا التحصين العسكري منجزات دينية ذات أهمية بالغة. فبالإضافة إلى كنيسة الرحمة، في 1514، بنيت ثلاث كنائس أخرى على الأقل : الكنيسة الرئيسية المسماة كنيسة الصعود (Notre Dame de l'Assomption)، بين مدخل زنقة كاريرا والساحة المركزية. الكنيسة الثانية هي كنيسة النور الملتصقة ببستيون الروح القدس (سان - إيسبري)، وأخيرا كنيسة سان - سيباستيان المندمجة مع البستيون الحامل لنفس الإسم. وكانت هناك عدة كنائس خاصة تتمم الديكور، ما يجعل هذه المدينة الصغيرة العائمة تستحق أن تعتبر ديرا كبيرا بدل قلعة عسكرية.

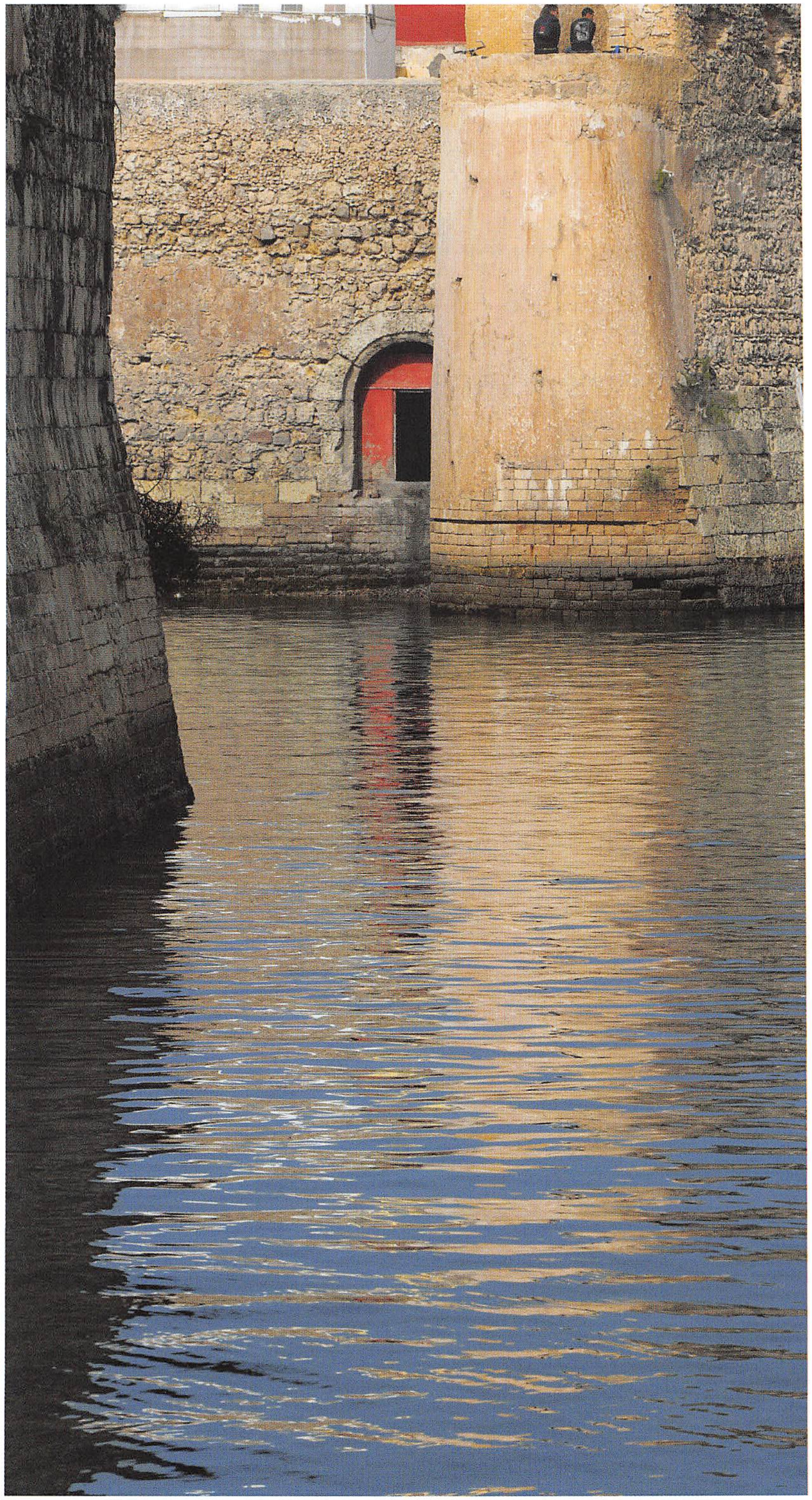

باب البحر،
فرن خبز تقليدي، في العمق.

حياة مدنية تحت دوي المدافع

إذا كان يقال بأن « الأطفال في مازغان يولدون ويكبرون تحت دوي المدافع »، فالقلعة المبنية لأهداف عسكرية صرفة ستصير مدينة-قلعة حيث تطورت الحياة المدنية إلى درجة أنها هيمنت على الخاصية العسكرية الأصلية. في بداية القرن السابع عشر أحصيت ما بين 400 و 500 دار وكلها بدون شرفة وبدون طابق، وفي القرن الثامن عشر عرفت بعض الدور بناء طوابق فوقية. عموما نظمت المدينة نفسها وفق المبادئ التعميرية البرتغالية المرتكزة على الزقاق المستقيم (Rua Direita) والساحة المركزية (Praça Terreiro).

في مازغان حافظت الساحة (Praça Terreiro) على تفوقها كمركز إشعاع وفضاء الإحتفالات، بل كانت هناك أيضا نافورة لتزيينها وبجنباتها كان القبطان يستعرض التشكيلات العسكرية. تحد هذه الساحة كنيسة «الصعود» وخزان الماء وقصر الحكام حيث يوجد اليوم الجامع الكبير الذي يعود إلى القرن التاسع عشر. غير أن «الزقاق المستقيم» (Rua Direita)، وهي أساسية في كل المدن البرتغالية، ستصير بالأحرى ثانوية وبالمقابل ف «Rua da Carreira» هي التي تأخذ دور تنظيم وتحريك المدينة وكذا التراتبية العمرانية ومجرى الحياة.

تخلد عمالة إقليم الجديدة الذكرى 40 للمسيرة الخضراء
تظاهرة من أجل
40
عاما للمسيرة الخضراء

كنيسة الصعود،
الزقاق الرئيسي (Rua da Carreira).
الصفحة المقابلة.

مازاڭان،
«صباح» نموذجي في زقاق بالمدينة العتيقة.

لبنة عقد في قوس.

هو تنظيم عقلاني ترك المكان للفضاءات الخضراء، بل يقال أيضا، بساتين البقوليات، حيث كانت الساكنة تروح عن نفسها في أزمنة الحصار والمناوشات التي لا تنتهي. لم تمنع هذه الحياة المدنية من إنشاء أوراش صناعة لمختلف أدوات الحرب وإصلاح قطع المدافع، بالإضافة إلى أفران الجير، ومحلات حدادة، ومستودعات ومتاجر...

التنظيم الإداري، الديني، العسكري والدفاعي لدى البرتغاليين:

حالة مازاڭان

تقدم لنا مازاڭان أفضل مثال على تنظيم عسكري إداري أرسي بمهارة وتم تعهده بدقة، وصورة لنظام دفاعي طور بشكل راق. فبما أنها مدينة يوجد جزء منها في البحر، فقد كانت الوحيدة في المغرب المحاطة بخندق يملأ بشكل دائم بالماء. وكان نظام تشغيل البوابة الرئيسية معقدا بعض الشيء وذلك بسبب جهاز جسره المتحرك ومجموعة من البرابخ، الحواجز الخارجية، أو سياجات متعددة الخطوط والتي تشكل حصنا نصف دائري في شكل هلال.

وبين هذه السياجات توجد بساتين البقوليات ومراعي (Coutada) وحتى حقول الحرث والتي ما انفك المغاربة يهاجمونها.

يتلخص النظام الدفاعي في مبدإ «حماية المجال» أو «الميدان» (Segurar o campo). فكل الفضاء بين مدينتين يتم تأمينه بترسانة معقدة من المراصد، والحراس الخيالة والطلائع الموزعين بكيفية جيدة. إن الطلائع أو الطلائعيون (الخيالة المترصدون) يترصدون ما يحيط بهم طيلة اليوم وبالتناوب. وكانت مازاڭان تتميز بفيلق خاص للمترصدين والمسمى فيلق (Almogavares)، أي المتخفين وهم فرسان برتغاليون يلبسون بنفس طريقة الفرسان المغاربة لخداع المقاومة. يتم التواصل بين هذا العالم من الأبراج والمترصدين بالنفير أو مدفعية خاصة أو أعمدة الدخان (Fumação) وتتردد الرسالة في المدينة بواسطة جرس من (برج الرباط) متبعة سننا متفقا عليها بحسب طبيعة الخبر والقرار الذي ينبغي اتباعه، الاستعداد للدفاع أو الخروج للنزهة.

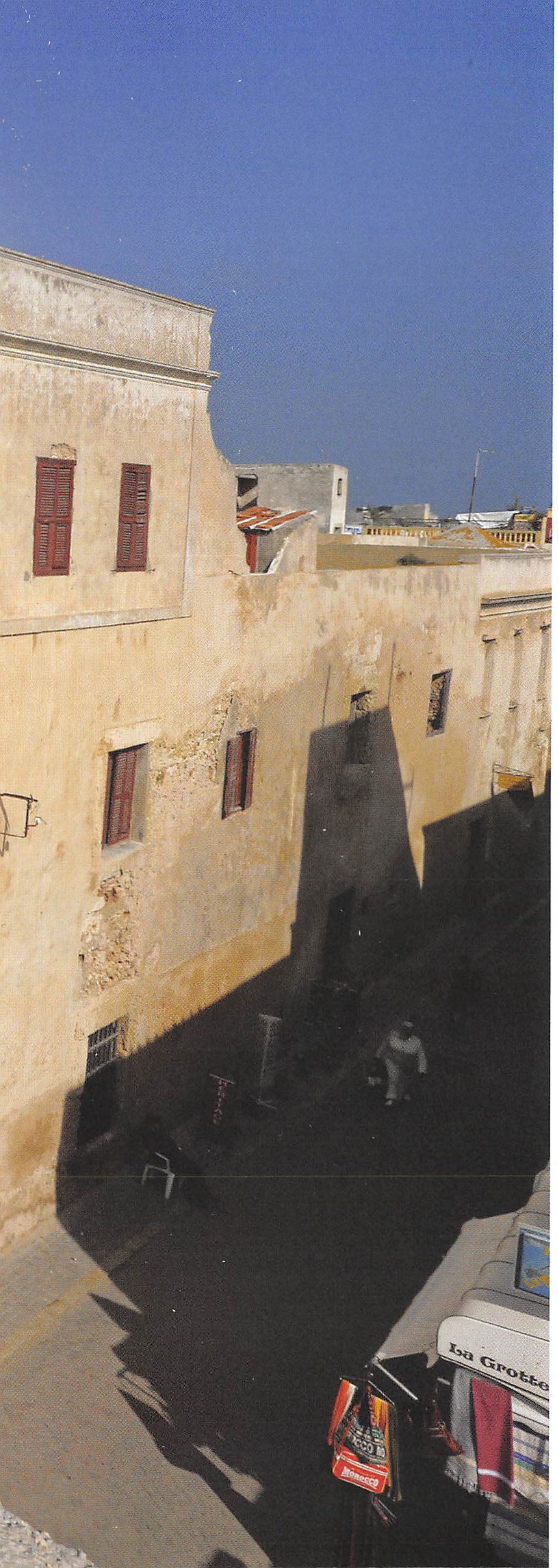

كنيسة الرحمة (القديمة)،
برج السجن (Cadeia)،
برج الرباط وأطلال الناقوس.

أما بالنسبة للمغاربة فقد كانت التكتيكات تتوافق مع المناوشات. وكان البرتغاليون يهابون كثيرا هجوم «Torna Fuye» وهي تقنية تشبه حرب العصابات. يقوم عدد قليل من المهاجمين بما يشبه هجوما جديا، ويتظاهرون بأنهم غير قادرين على مواصلة الهجوم فيهربون ثم يتبعهم البرتغاليون. لكن وعلى مبعدة من القلعة يطبق عليهم مغاربة يختبؤون بشكل مدروس. بالنسبة للتواصل بين المغاربة فقد كان من الدارج استعمال الطبول والنفار وأيضا النار والدخان. كان تسليح المغاربة ضعيفا جدا. لكن السعديين والعلويين تمكنوا ورغم ذلك من تطوير مدفعية جيدة.

كانت مازݣان معرضة دوما لهجمات معزولة ولحصارات محترفة. نعرف جيدا حصار 1562 الشهير والقاسي، الذي نظمه السلطان السعدي مولاي عبد الله الغالب، حيث كانت مازݣان على وشك تسليم نفسها لكن الحصار رفع فجأة في 07 ماي بعد شهرين وثلاثة أيام من المقاومة. وعرفت حصارات أخرى مثل ما حصل في سنوات 1520 و1525 و1547 وأخيرا حصار 1769 الذي وضع نهاية للحضور البرتغالي في المغرب.

من جهة أخرى، كانت مازݣان تدار من طرف تراتبية إدارية، عسكرية ودينية مضبوطة جدا حيث الحاكم هو السلطة العليا للمدينة وقائد الجيش. يساعده في ذلك مجلس الحكم، والمكلف بالشؤون المالية (Vedor Geral) ومساعديه العديدين. أما العدالة فكانت تُؤمّن من طرف قاض يسمى « Ouvidor ». بينما عمدة المدينة هو ال «Alcaide»، وهو مثل رئيس بلدية يساعده مستشارون يمثلون الساكنة، وموثق وAlmotaces (أصل التسمية عربي، المحتسب).

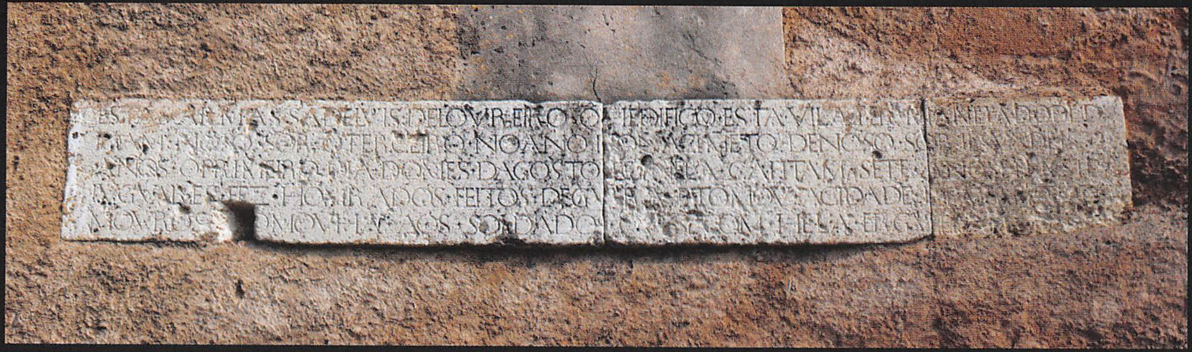

نقيشة لويس دو لوريرو تؤرخ التوسعة إلى قلعة (1541– 1548).

بالنسبة للجيش، فالحاكم مسنود ب « Adail »، (قائد الفرسان) وهو الأكثر أهمية بالنسبة للمدينة، وبـقائد المدفعية ليوتنان كولونيل (Sargento Mor)، وب «Sargento Mor» آخر على رأس المشاة. أما بالنسبة لعتاد الحرب، فيقومَ بالأساس على المدفعية، مشكلا من منجنيقات، مدافع هاوون، حنشية، صواعق وكرات بارود (ذات تركيب مولد للحرائق) ولكن أيضا بعض العتاد العتيق كالبنادق .

إن التنظيم الديني، الهام جدا في مستعمرة بعيدة ومعزولة، كان هو أيضا منظما جدا. فالسلطة الدينية العليا تتجسد في ال « Provedor »، وهو القس العام، الذي يترأس كل المجموعة الدينية. فهو يترأس المحكمة الكنسية ويساعده في ذلك « Escrivão » وهو ما يشبه موثقا دينيا، وكل كنيسة يسيرها خوري (Vigario)، يساعده بعض الكهنة.

لهذا كان لكل بناية، ولكل عنصر من عمران هذه المستعمرة البرتغالية، وظيفة معينة ومضبوطة، ويمكن تشغيله، ومبرر وجوده يكمن فيه.

« مازغان » المدينة المسترجعة والقنصلية

انتهت الملحمة البرتغالية يوم 11 مارس 1769 الذي تزامن مع ليلة القدر. انتصب السلطان سيدي محمد بن عبد الله (1755 - 1790) مع نخبة جيشه وجيوش القبائل أمام مازاݣان في بداية السنة وأقام معسكرين حربيين : رباط المجاهدين في شمال - شرق باتجاه أزمور ورباط فحص ولاد الذويب في طريق مراكش. خنقت مازاݣان من البر والبحر وأمر الملك البرتغالي بتسليم مفاتيح المدينة فطلب حاكم المدينة هدنة. منحه السلطان سلام الشجعان واشترط ترك كل شيء في المدينة باستثناء اللوازم الدينية التي سمح بنقلها من باب الاحترام للمعتقد الديني.

سارع المغاربة المنتصرون إلى الدخول للقلعة فافترستهم متفجرات مفخخة أسقطت سور المدخل وبستيون الحاكم، وكان هناك آلاف من الشهداء بحسب المصادر. بقيت المدينة مهجورة 50 سنة حتى تخربت من تلقاء نفسها.

DELOVR.EIRO
ES·DAGOS
OS·FEITOS·D

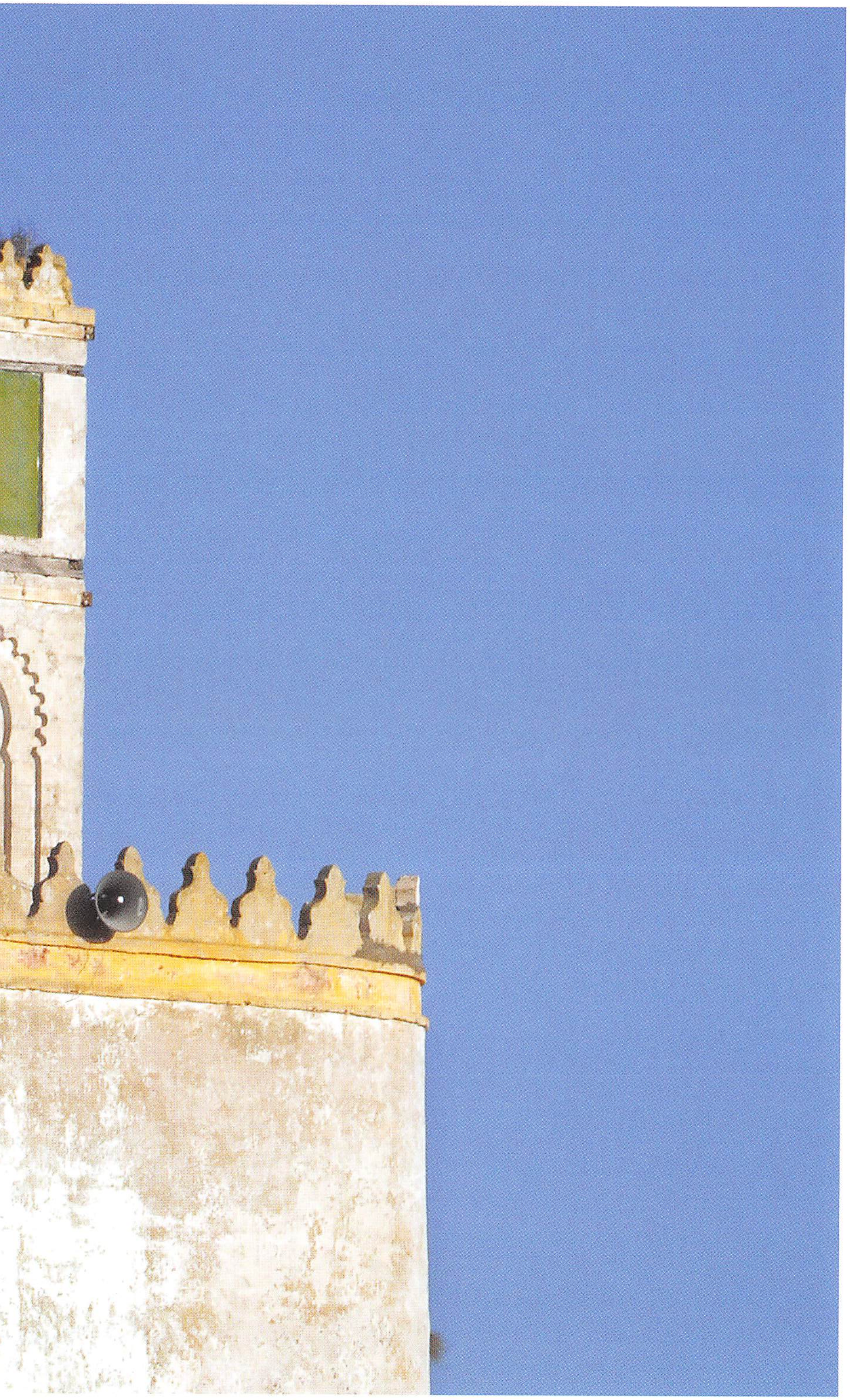

المسجد الجامع،
بعض تفاصيل الصومعة.

حوالي 1823 أمر مولاي عبد الرحمان بإعادة تأهيل شامل للقلعة، وسماها «الجديدة» ومكنها من جامع كبير الذي لم تكن مئذنته سوى برج الرباط بالحصن البرتغالي. يشكل الجامع مستطيلا منتظما نسبيا بطول حوالي 30 م. يتشكّل الداخل من أقواس بأربعة بلاطات وأربعة أروقة. الرواق المحوري أكثر اتساعا من الأجنحة الجانبية ويبدأ من البوابة الكبيرة في المدخل الشمالي حتى المحراب. ونرى كذلك الطابع المغربي، العَلَوي، أيضا مازاڭان في أبواب البستيونات ومنحدراتها، بل وبخطوط عربية أحيانا.

إلى الجامع انضافت البِيعة (الكنيس اليهودي). فقد أمر السلطان بأن تعمر القلعة القديمة من طرف المسلمين واليهود المغاربة الدكاليين، وخصوصا الأزموريين. وإلى الجامع والبيعة ستنضاف، حوالي سنة 1898، الكنيسة الإسبانية (St-Antoine de Padoue) بما أن مدينة مولاي عبد الرحمان بن هشام قد صارت وبسرعة مدينة قنصلية حيث مثلت كل الأمم الأوروبية والأمريكية. وللأسف فالبنايات القنصلية اختفت أو أنها وصلتنا في حالة لا يمكن تبينها. إن هذه الحياة القنصلية كانت ثمرة حياة مينائية من أهم ما عرفه المغرب من مرافئ بحرية، من أواخر القرن الثامن عشر وإلى أن استقطب ميناء ليوطي بالدار البيضاء أهم المبادلات.

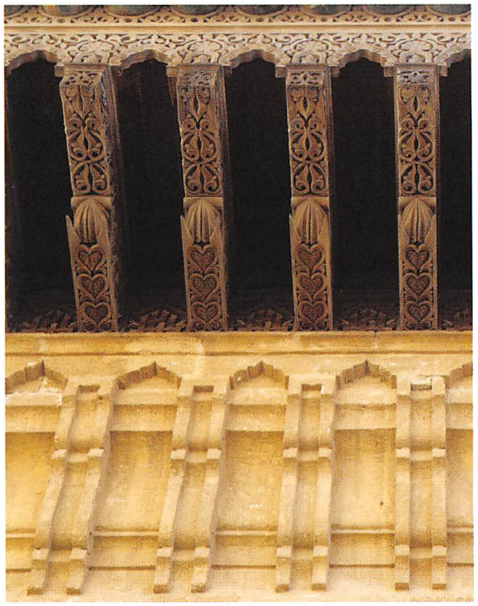

جزء من البوابة
الرئيسية للمسجد.

إن النشاط التجاري الذي بدأ منذ عهد مولاي سليمان (1792 - 1822) مكن البريجة من بنايات تجارية جميلة، لم يتبق منها إلا بعض المعالم الأثرية، وهي انعكاس لرقة معمارية ونشاط تجاري نشيط لمدينة «رأسمالية»، قبل الأوان.

منحت المرحلة الاستعمارية للجديدة إذن العديد من المعالم والتي رصّعت التاريخ العام للمعمار. هذه المعالم توجد في منطقة الارتفاق والحماية لموقع مازاڭان / الجديدة المسجلة كتراث عالمي.

بعد 267 سنة من الحرب والسلم، من العبودية والأخوة، من التوجس والتبادل الحضاري، انتهت الملحمة البرتغالية بتفاهم بين أمتين كبيرتين. فدم

المحكمة الكنسية
أو كنيسة سان سيباستيان،
الصفحة المقابلة.

زليج إيبيري.

البرتغاليين والمغاربة امتزج وانضاف له دم بعض البرازيليين، والإسبانيين، والمكسيكيين، والأنغوليين، وساكنة الرأس الأخضر من بين شعوب أخرى.

حين حررت مازاڭان سنة 1769 كان لها أخوات في الجهة الأخرى من المحيط. أمضى المازڭنيون حوالي ستة أشهر في لشبونة قبل ترحيلهم إلى البرازيل حيث بنيت مدينة خاصة بهم وسميت «المدينة الجديدة لمازاڭان» (Vila Nova de Mazagão) في الأمازون. إن ماركيز بومبال Pombal، الوزير الأول للملك جوزيف الأول، المصلح (1750 - 1777) هو مبدع نقل هذه المدينة التي صارت مدينة - عائمة من دكالة حتى لشبونة ومن هذه الأخيرة إلى الأمازون. إن تاريخ الأجداد، «البرتغاليين الدكاليين» يحكى لأطفال اليوم من خلال لقاء ثقافي سنوي مازال المازڭنيون البرازيليون يحرصون على إقامته والاحتفال به حتى اليوم.

المغاربة أيضا يعتزون بهذا التاريخ الطويل المشترك، ويتملكون كل هذا التراث حيث المعالم البرتغالية تخاصر الجامع والبيعة والكنيسة وعدة معالم «مسيحية» أخرى للقرن 19 و20. والسكان يحتفون بهذا الغنى الخارق، هذا الماضي القديم المشترك مع البرتغاليين، والماضي القريب حيث عاش مغاربة يهود ومسلمون في وئام مع الإنجليز والفرنسيين والهولنديين والإيطاليين والأمريكيين وآخرين قبل وبعد استعمار 1912.

إن المدينة البرتغالية هي قلب هذه المدينة والتي تشكل امتدادها العمراني وهي مرآة هذه الميزة الكونية التي اعترف بها «رسميا» في 2004 كتراث للإنسانية بقرار من اليونسكو.

غير أن هذا العالم المنظم بدقة شديدة، والذي حاولنا أن نحيط به في هذا المقال، مازال يخفي عنا سرا كبيرا : إشكالية موقع المقبرة. إنّ المقبرة مخزن معلومات ثمين، إن تمكنا في يوم ما من اكتشافها، وعن طريق حفريات أركيولوجية منظمة، وهي السند والمنقذ الوحيد للبحث. لقد اكتشفت بقايا بشرية داخل كنيسة (الصعود) أثناء أشغال الترميم التي أشرف عليها الأب أنطوان كومبيس بدءا من سنة 1919، وكذلك في 1995، إبان ورش

بوابة البحر،
منظر للمحيط من خلال مشبك حديدي.

الاستبارات الذي أشرف عليه أبو القاسم الشبري. لكن الكنائس كانت مقصورة على رجال الدين والنبلاء. فأين كان يتم إذن دفن باقي السكان ؟ إن توصلنا إلى فك لغز الإشكالية المتعلقة بالمقبرة يمكننا أن نحل أيضا أسطورة عَيشة «عيشة قنديشة»، الكونتيسة، والتي كانت تروع نفوس البرتغاليين في تلك الحقبة ومازالت تسكن خيال المغاربة اليوم.

الرباط

تراث ثقافي مغربي

تراث مُتقاسَم

الرباط

تراث مُتقاسَمُ

أحمد صالح الطاهري

المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث-الرباط

استقر الإنسان بموقع الرباط[1] منذ العصور ما قبل التاريخية إذ تعود الآثار البشرية المكتشفة حتى الآن قرب القبيبات إلى 160.000 سنة، وتشهد على أقدم حضارة عرفتها المنطقة والتي يسميها علماء الآثار «الحضارة الأشولية». وقد أبانت مواقع أخرى، بعضها مكشوف وبعضها الآخر يقع في مغارات على طول الساحل الأطلسي الذي يحاذي المدينة، عن ثقافات يبقى حجر الصوان المنحوت والعظم المعالج أكثر أدواتها التمثيلية. وهكذا فقد كشفت التحريات التي أجريت في مغارات تمارة عن بقايا تعود إلى الإنسان العتيري والإيبيروموريسي الذي استقر في المنطقة على التوالي بين 40.000 و10.000 سنة قبل عصرنا الحالي.

وفي مغارة دار السلطان، المتواجدة على بعد 6 كيلومترات من مركز المدينة، رصد علماء الآثار العديد من المستويات الأثرية التي يعود أهمها إلى العصر الحجري الأعلى والعصر الحجري الحديث. كما سمحت أبحاث في الضاحية الجنوبية للمدينة، وخصوصا في منطقة الصخيرات وتمارة، بأن تبرز بأن هؤلاء السكان قد طوّروا الفلاحة واكتشفوا الخزف، معلنين بذلك عن بداية عصر جديد، وهو العصر الحجري الحديث، الذي ارتكز على استغلال الأرض وتدجين الحيوانات: « تكفي هذه الاكتشافات الأثرية للإقرار، بشكل

المسجد الموحدي حسان،
بقايا الأعمدة التي يحتمل أن سقوف قاعة الصلاة كانت تعلوها وتظهر في العمق صومعة غير مكتملة وبقايا السور المحيط بالمسجد.
(الصفحة المزدوجة السابقة).

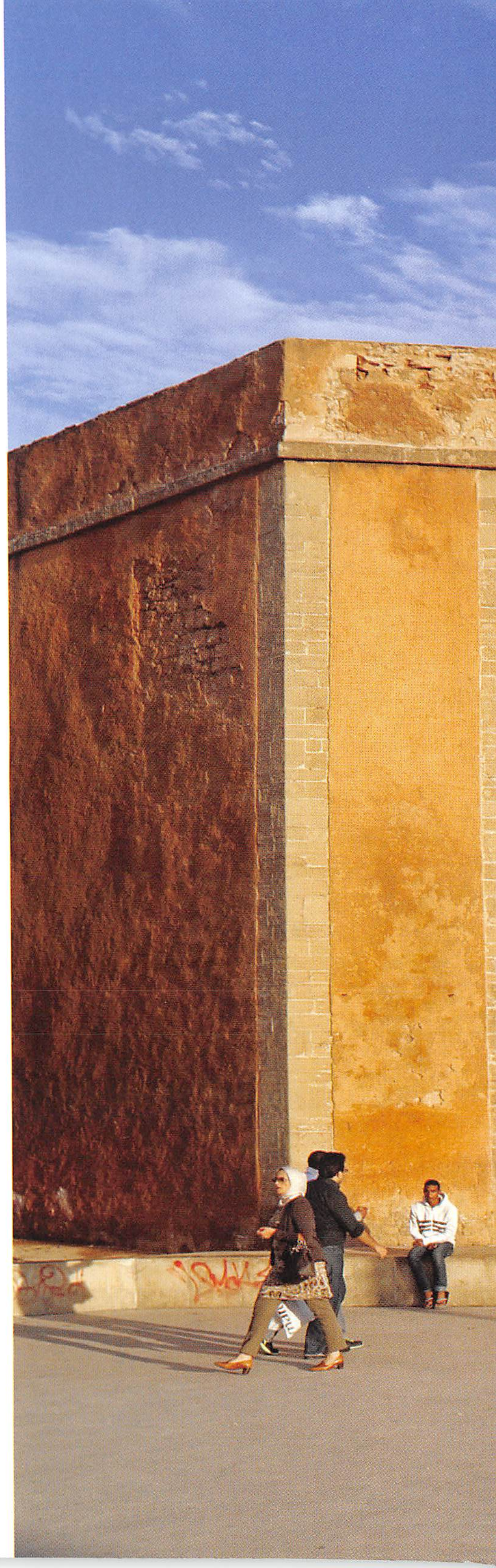

باب الأحد،
منظر لبرجي التدعيم في مقدمة الصورة وللسور الموحدي بمتراسه وأبراجه القريبة من المربع، في خلفية الصورة.

---

1 - أتقدم بالشكر الجزيل للسادة محمد بلعتيق ومحمد كبيري علوي وسمير قفص على كل ما قدموه من معلومات وتدقيقات وإضافات إلى هذه المساهمة حول مدينة الرباط.

سالا،
منظر جزئي لأطلال الموقع القديم،
شمال الكابيتول.

لا جدال فيه، بأن موقع الرباط ومحيطه قد استوطنا منذ الأزمنة البعيدة لما قبل التاريخ، وأنهما لايشكلان الموقعين الوحيدين الشاهدين على ذلك»[2].

شالة : آثار المرحلة الفينيقية في المدينة المورية

يبدو أن الموقع قد لعب في القرنين السابع والسادس ق.م، أي في المرحلة الفينيقية، دور محطة بحرية على الواجهة الأطلسية بين مدينتي ليكسوس شمالا وموݣادور في الجنوب، غير أن الآثار المادية لهذا التواجد قليلة وتقتصر على قطع خزفية شبيهة بتلك التي عثر عليها في موݣادور، والمؤرخة بالقرن السابع والنصف الأول من القرن السادس ق. م. تنضاف إلى هذه القطع أربعة خنافس، مصنوعة من طين لين ومرصعة في حلي خشنة بمنطقة الرباط، ولقى أخرى تعود للقرنين 5 و4 ق.م، من بينها قنديل يوناني.

المرحلة المورية : سالا، مدينة منفتحة على البحر الأبيض المتوسط

تميزت مدينة سالا[3]، بموقعها الجغرافي على الواجهة الأطلسية، في المحور التجاري بين ليكسوس - موݣادور، وعلى الضفة اليسرى لنهر سالات (أبو رقراق) كمحطة تجارية مزدهرة. فقد كانت المدينة مجهزة بميناء نهري،

2 - انظر:
J. Caillé, *La Ville de Rabat jusqu'au Protectorat français,* Publication de l'Institut des Hautes études marocaines, Tome XLIV, Editions d'arts et d›histoire, Paris, 1945 .

3 - وهي التسمية القديمة التي أطلقت على الموقع الذي يشتهر منذ العصر الوسيط تحت تسمية «شالة».

شالة،
الواجهة الغربية لصومعة المدرسة العنانية وبقايا المحكمة الرومانية (في مقدمة الصورة).

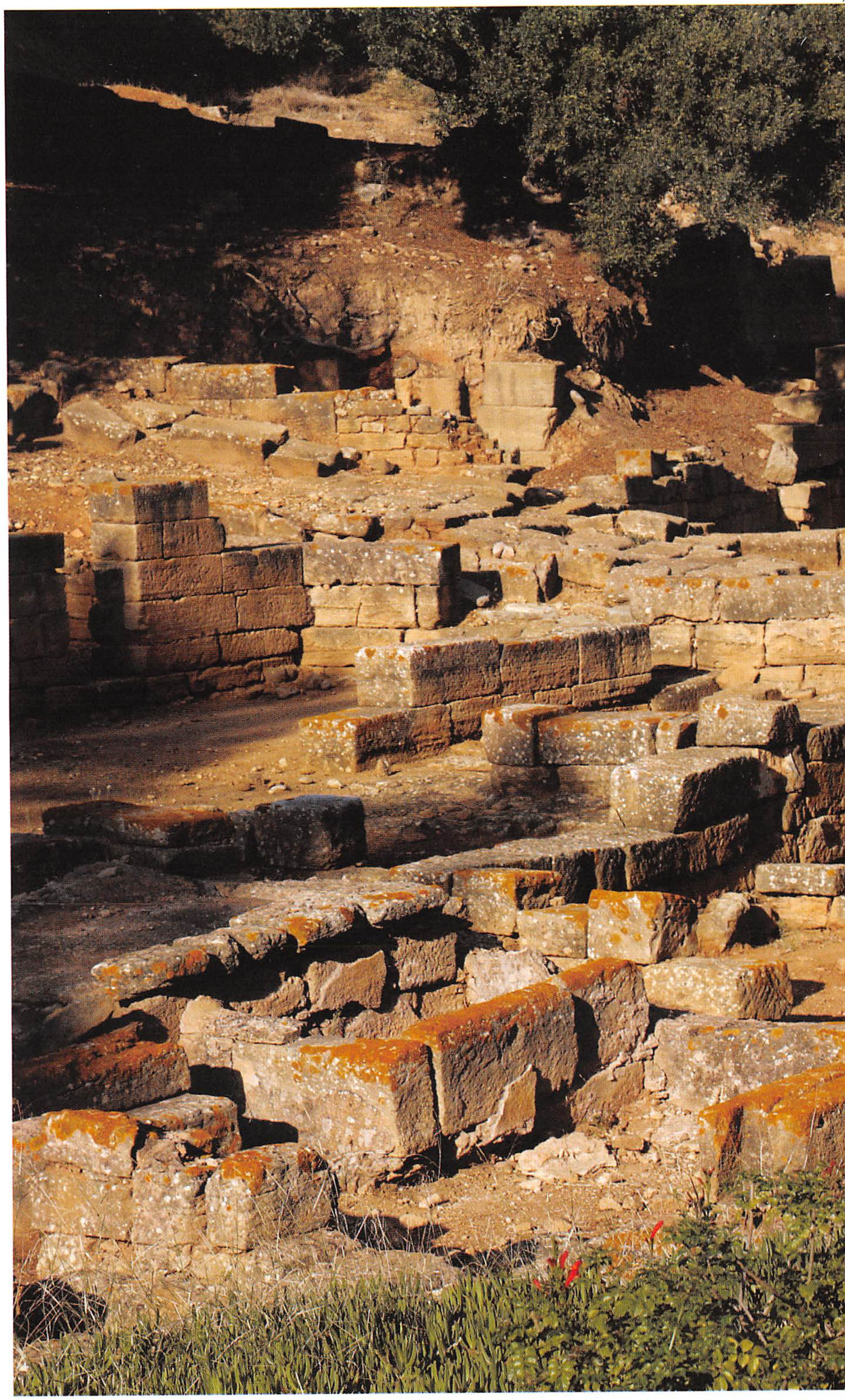

ولعبت دورا مهما في اقتصاد المغرب القديم. وخلال المرحلة المورية (القرن 3 ق.م إلى سنة 40 بعد الميلاد) ظهرت المدينة - بعد أربعة قرون لا نعرف عنها أي شيء - كحاضرة مزدهرة ومنفتحة على تجارة البحر الأبيض المتوسط. وفي عهد الملوك الموريين، باخوس، وجوبا الثاني وابنه بطليموس (القرن الأول ق.م القرن الأول الميلادي) زيّنت المدينة بعدة بنايات عمومية تحمل التأثيرين الهيليني والروماني. كما حازت سالا استقلالها الذاتي وأصدرت عملة تحمل اسمها وتستعمل عبارات بونيقية. استفادت المدينة، التي من المحتمل أنها كانت منظمة على شكل مدينة - دولة، من تبادل تجاري مزدهر، ونسجت علاقات تجارية مع كل بلدان البحر الأبيض المتوسط الغربية تقريبا، وخصوصا مع شبه الجزيرة الإيبيرية، وبلاد الغال، وإيطاليا، والبيتيك، وهو ما تشهد عليه لقى متنوعة ومميزة جدا: جرار ذوات عروتين من الطراز البونيقي الجديد والجمهوري، وقناديل يونانية وهيلينية، وخزف زخرفي، وعملات من سالا، وليكسوس والقيصرية وقادس. وقد أظهرت الحفريات الأثرية إنتاجا في سالا للأمفورات ذوات العروتين المخصصة لتمليح الأسماك وهو ما أكده اكتشاف نماذج لهذه الأمفورات تعرضت للتشوه أثناء عملية طهيها (الأمفورات ذوات العروتين من نوع دريسل 18 ودريسل 7 - 11) وأنفورات معدة للتخزين

شالة،
داخل قاعة الصلاة بمسجد
السلطان المريني أبي يوسف يعقوب،
الصفحة المقابلة.

بعض تفاصيل البوابة
الرئيسية 739 هـ /1339م.

ولنقل الزيت (نوع سالا 1). كما يتبين أن سالا كانت، منذ العهد الموري، مركزا مندمجا اندماجا كليا في المدار التجاري للبحر الأبيض المتوسط، كما تشير إلى ذلك الواردات الإيطالية والغالية والإيبيرية والإفريقية (أمفورات وخزفيات المائدة) التي تم التعرف عليها لحد الآن في الموقع.

إعادة تهيئة على الطريقة الرومانية

في سنة 40 م، اغتالت روما الملك الموري بطليموس، واحتلت موريطانيا الطنجية، وقامت السلطات الرومانية بإعادة تهيئة سالا وفق المدن الرومانية. وانطلاقا من القرن الأول الميلادي هيئت، على جانبي شارع رئيسي، ساحة عمومية وحمامات وكابيتول وقوس نصر يتكون من ثلاث فتحات، ومحكمة وحوض حوريات أو خزان ماء، ومتاجر وحي سكني غرب الكابيتول. كما رُقيت المدينة إلى مرتبة بلدية في عهد الإمبراطور كلود، لكونها، وبدون شك، لم تشارك في الاضطرابات التي رجّت موريطانيا بعد موت بطليموس. وفي سنة 144 م، سيج الوالي ماركوس سيلبيسيوس فيليكس المدينة بسور حضري. في أسفل مجلس المشيخة، المجاورة للمحكمة، اكتشفت النقيشة المسماة «نقيشة ماركوس سيلبيسيوس فيليكس»، وهي الوثيقة المعروضة الآن في المتحف الأثري بالرباط، والتي نستشف من خلالها بأن المدينة قد نالت وضع بلدية رومانية. وهكذا، ونحو الربع الثالث من القرن الأول للميلاد، وضع فيلق من الكتائب المساعدة[4]، يعرف بفيلق الفرسان، في معسكر أنشئ في ضفة هضبة شالة، اكتشفت بقاياه تحت المقبرة الحالية لسيدي بومنينة. ولتقوية دفاعاتها وتحصينها ضد هجمات الفيلة، وغارات قبيلة الأوتولول، بُني معسكر «خديس»، الذي تمّ التعرف عليه في ولجة سلا سنة 1996، وهُيئ «الليميس» الذي هو عبارة عن سور فاصل، مُقوّى بأبراج يمتد من الشاطئ الأطلسي حتى وادي عكراش، مشكلا بذلك الحدود الجنوبية للإمبراطورية الرومانية في موريطانيا الطنجية.

عرفت بدايات القرن الثاني للميلاد شكلا جديدا من العمران تضمن مجموعة من البنايات، من بينها تلك التي تشكل الحي الكبير للمدينة: حوض

4 - La cohorte I lemaurum.

شالة،
مدخل الخلوة.

الحوريات الذي شيد فوق جزء صهريج مائي قديم، والكابيتول الذي شيّد على نفقة س. هوسيديوس سيفيروس، أحد أعيان المدينة من كتيبة الفرسان، والمحكمة التي وضع فيها تمثال والي الجناح ماركوس سيلبيسيوس فيليكس، وقوس النصر وحمامات الساحة العمومية.
من جهة أخرى، كشف أزيد من 322 قبرا من أماكن مختلفة من مقابر سالا عن مستلزمات جنائزية مشكلة في جزء كبير من قطع سليمة. ينير لنا استكشاف هذه المقابر مختلف سمات الحياة اليومية للسكان وتراتبيتهم، والشعائر الجنائزية المعمول بها، واقتصاد المدينة، إلخ.

فترة انتقالية مظلمة

أخلى الرومان موريطانيا الطنجية سنة 285 م، غير أن سالا بقيت تحت السيطرة الرومانية حتى أواخر القرن 4 م وربما حتى بداية القرن 5 م. وإن أخذنا بالمصادر العربية، فيبدو أن المدينة قد هجرت منذ عهود غابرة بينما يعود الموقع الإسلامي، والبقايا التي كشف عنها في شالة حتى اليوم، إلى أواخر القرن 13 وإلى النصف الأول من القرن 14 للميلاد، ولم يتم حتى اليوم الكشف عن آثار للتواجد السكاني في العصر الوسيط الأعلى رغم أن رواة هذا العصر يتحدثون عن أن شالة لم تنفك تلعب في تلك الفترة المتقدمة دورا مهما في أسلمة البلد.
في القرن 10 م، بني رباط واسع في شالة لعب دور ثكنة للمؤمنين الراغبين في الجهاد ضد قبيلة برغواطة المهرطقة. يخبرنا الجغرافي ابن حوقل (367 هـ/ 977 - 978م) بأنه يوجد من وراء «وادي سبو وهو وادي فاس، إلى ناحية بلد برغواطة على نحو بريد، وادي سلا، وإليه تنتهي سكنى المسلمين وهي رباط يرابط فيه المسلمون وعليه المدينة الأزلية المعروفة بسلا

شالة،
جامور صومعة مدرسة أبي عنان.

القديمة، قد خربت والناس يسكنون ويرابطون برباط يحف بها وربما اجتمع في هذا المكان من المرابطين مائة ألف إنسان يزيدون في وقت وينقصون لوقت، ورباطهم على برغواطة، وهي قبيلة من قبائل البربر على البحر المحيط متصلين بهذه الجهة التي شفت عمارة بلد الإسلام إليها»[5].

وهكذا تواجد في شالة رباط أو رباطان، معدان لتجميع المحاربين ضد مهرطقي قبيلة برغواطة. كان هؤلاء يتواجدون بين نهري أبي رقراق وأم الربيع، ولم يتم إخضاعهم إلا ابتداءا من منتصف القرن 11 الميلادي. وقد كانت إمارتهم التي أسست حوالي سنة 744 م قوية في القرن 10 الميلادي إلى درجة أنها سكّت عملتها ونسجت علاقات مع الخليفة الأموي في الأندلس، وخاضت مع المرابطين حربا ضروسا. ورغم خسارتهم لقائدهم الروحي في سنة 450 هـ/ 58 - 1059 م في معركة جنوب - شرق الرباط، فإن المرابطين قد نجحوا في تقليص نفوذ هذه القبيلة ومجالها الترابي. تحولت المنطقة إلى مسرح لتنافس شرس بين المتطلعين إلى الحكم، وبدأت سلا المبنية في الضفة اليمنى للنهر، تختلط مع شالة، المعسكر الحربي على الضفة اليسرى للنهر.

ضعفت شالة وتوارت خصوصا بعد بناء قلعة بني تارگة التي عوضت بقلعة المهدية وهي ما يسمى حاليا بقصبة الوداية. يحكي الإدريسي (القرن 12 م) أن من «قرية إيكيسيس إلى مدينة سلا مرحلة. ومدينة سلا الحديثة على ضفة البحر. وكانت في القديم من الزمان مدينة شالة على ميلين من البحر وموضعها على ضفة نهر أسمير الذي يتصل الآن بمدينة سلا الحديثة وهناك مصبه في البحر. وأما شالة القديمة فهي الآن خراب. وبها بقايا بنيان قائم وهياكل سامية ويتصل بخرابها عمارات متصلة وزروع ومواش لأهل سلا الحديثة...»[6].

---

5 - ابن حوقل، «صورة الأرض»، بيروت، 1992، ص. 82.

6 - الإدريسي، «نزهة المشتاق»، نشر 1983، ص 81 - 82 (بتصرف ص 90).

شالة،
البوابة الرئيسية ومقربصات تُزين الأجزاء العليا لبرجي التدعيم.

البوابة الرئيسية للمقبرة السلطانية وبرجيها (1339/739).
الصفحة المقابلة.

تزاوج وتراكب قوس المدخل (البوابة الرئيسية).

قلعتان ومدينة ومقبرة سلالية في موقع واحد

لا نتوفر إلا على القليل من القرائن تثبت تواجدا بشريا محتملا وقديما في موقع الوداية. ففي بداية القرن الماضي، أنجزت ثلاثة استبارات أركيولوجية في الحديقة الأندلسية ولم تعط أية نتيجة دالة. غير أنه، وتبعا للباحث جون بوب، فإن تواجد مؤسسة فينيقية في هذا المكان الذي يراقب مصب أبي رقراق يبدو محتملا. وفي الأطراف المباشرة للموقع، عثر بين سنتي 1870 و1875 على تمثال نصفي من الرخام، اكتشف في أساسات دار فرنسا القديمة في حي القناصل. وإلى هذا الاكتشاف يمكننا أن نضيف تواجد عملات رومانية عثر عليها في الشاطئ المحاذي للموقع.

في سنة 1974، وإبان حفر بئر في الزاوية الجنوبية-الشرقية لسور مولاي الرشيد بالقصبة، اكتشفت سبعة رؤوس ذكورية صنعت بالجبس على عمق يتراوح بين متر وخمسة أمتار. بالنسبة لجون بوب الذي نشر هذه الاكتشافات فالأمر يتعلق، وبعد فحص دقيق ومقارنات مع تماثيل صغيرة أخرى معروفة، بقولبة قديمة لنماذج ورشات استعملت لإنجاز مزهريات بالنحاس، وتماثيل الطين المطبوخ أو الجبس.

القلعة المرابطية

طيلة العصر الوسيط الأعلى، تبقى القرائن نادرة وقليلة الدقة. حول المرابطون في أواسط القرن 11م، استعدادا لمواجهة الهجمات الوشيكة التي تتزايد حدّتها من طرف الجيش الموحدي، مركز الموقع الحيوي نحو الشاطئ الأطلسي، وقرروا بين سنتي 1136 - 1145 تشييد قلعة : قصر بني تارگة. ذكر الجغرافي الفزاري بأن « قصر بني تارگة، هناك حيث تنتصب اليوم

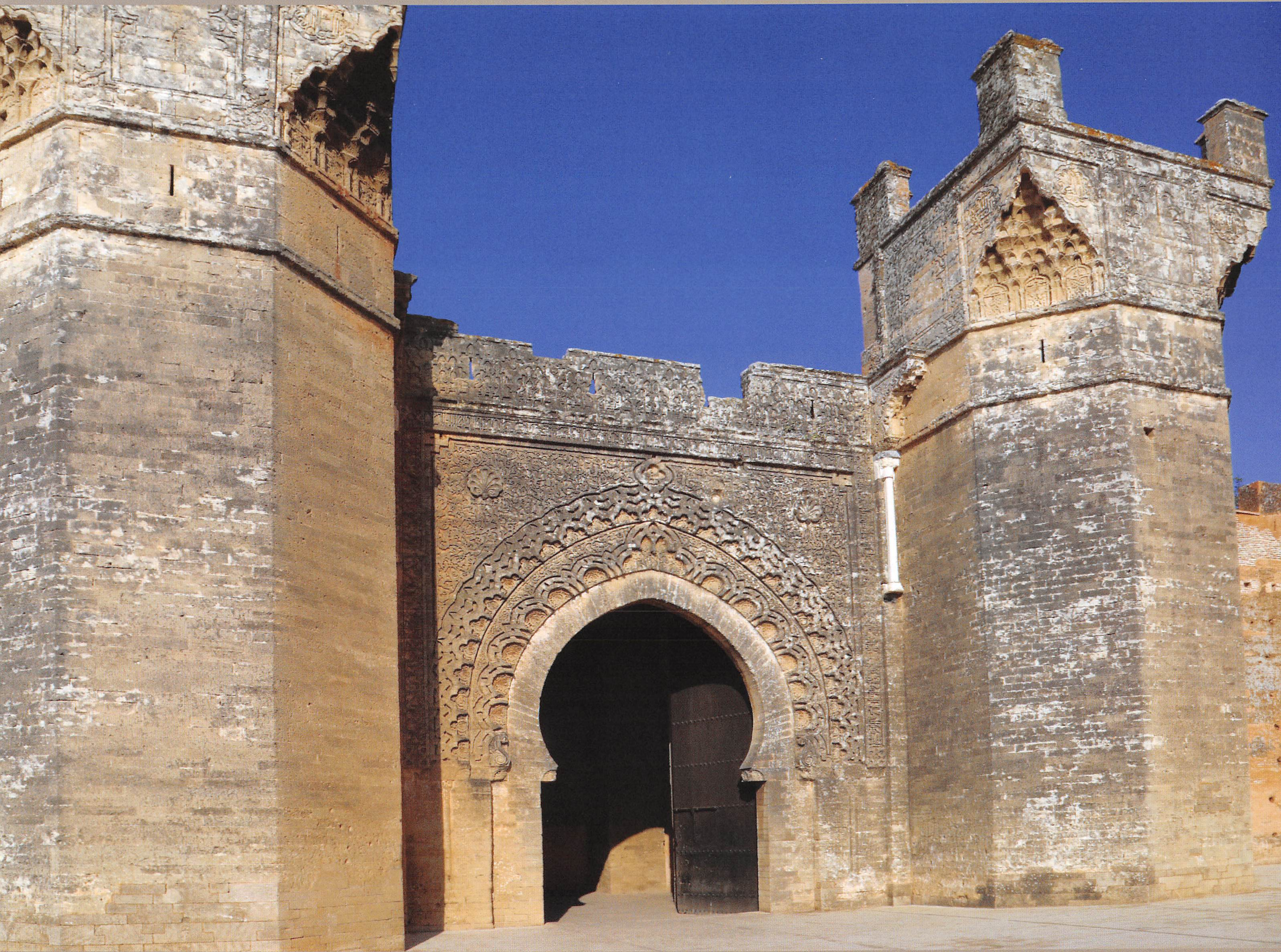

الرباط،
السور الموحدي،
الصفحة المقابلة.

باب الرواح،
منظر للواجهة الخارجية
وتفاصيل تزيين الركنيات.

مدينة المهدية (القصبة الحالية للوداية) التي بناها الخليفة عبد المومن « على أطراف وادي أسمير (أبو رقراق) »، مما يعني أن ذلك لم يتم في ربوتي شالة، وإنما في صخرة الوداية. وقد أشار جاك كايي إلى معطيات أركيولوجية إذ كشف، إبّان تحرياته بالموقع في سنوات 1940، على جزء سور مبني بالحجارة يتواجد خارج القصبة. ومن خلال مواد وتقنيات البناء المستعملة، فإن هذا الطرف من الجدار يعود، بحسب الكاتب، إلى العصر المرابطي[7]. وقد مكنت تنقيبات أثرية حديثة أنجزت بين سنتي 2001 و2002، في الجوانب المباشرة للباب الكبير للقصبة، من الكشف الجزئي عن أطلال بنايات تنتمي، بدون شك، إلى هذه القلعة الوسيطية.

القصبة الموحدية تعزز « برباط الفتح»

تاريخ الموقع في عهد الموحدين معروف بشكل أفضل بالرغم من تباين ملحوظ في المصادر التاريخية القديمة بخصوص تاريخ الاستيلاء على قلعة المرابطين. فالبعض يرى أن ذلك قد وقع في سنة 1132 م، وآخرون يرون أن ذلك قد حدث في سنة 1146م. الأكيد أن الخليفة عبد المومن قد اختار في سنة 1150 م نفس الموقع، موقع منحدر الوداية، لبناء مركّب بلاطي محاط بسور. وللوقوف بنفسه على ورش البناء، أقام الخليفة خمسة أشهر في سلا، وبنى القصبة الحالية التي أطلق عليها اسم «المهدية»، تخليدا لذكرى مؤسس الدولة المهدي بن تومرت.

كانت للقصبة من سنة 1150 م، تاريخ بنائها، وحتى موت عبد المومن سنة 1163 م، مكانة هامة. فقد كان السلطان يقيم بها بشكل متواتر لاستقبال البعثات الرسمية، ويتهيأ جيشه بنشاط لفتح الأندلس والبلاد المغربية. تتضمن قصبة المهدية هاته، المسماة اليوم قصبة الوداية، والمحاطة بسور ذي شكل مخمّس الزوايا غير منتظم ومقوى بأبراج تشبه المربع، قصرا ومسجدا جامعا يحمل حاليا اسم «المسجد العتيق»، بينما يؤمن مدخلها باب ضخم، يعرف ب «باب القصر» أو «الباب الكبير». كان هذا الباب يستعمل أيضا من طرف الخليفة كمجلس للتقاضي، ومازال قائما يعبر، من خلال شكله ومكوناته الهندسية والزخرفية، عن عظمة الموحدين وإخلاصهم للمبادئ الموحدة لمؤسس دولتهم. فالتزيين قوي والأشكال المنقوشة في الركنيات تعكس تجديدات واختلاجات فن وليد لن يتأخر في الانتشار في كل بلاد الغرب الإسلامي.

7 - انظر
J. Caillé, *La ville de Rabat*, 1945.

مدينة الرباط،
زنقة القناصل.

وبسبب تعاظم حركة الجهاد في الأندلس، لم تعد القصبة قادرة على استيعاب الجنود المتكاثرين، فأمر الخليفة يعقوب المنصور، سنة 1195 م، أي سنتين بعد انتصار عسكري باهر في معركة الأرك، ببناء رباط الفتح، الذي سيصير الرباط في المستقبل. سيج يعقوب المنصور مدينته هاته بسور يحيط بمساحة تفوق 418 هكتارا، مبني بالتراب المدكوك، وحصنه بأبراج قريبة من المربع ومتاريس شبيهة بمثيلتها في إشبيلية ومرطولة ومراكش وفاس والقيروان. كما هيئت خمسة أبواب بعناية بهدف ربط مختلف مناطق المدينة، عبر شوارع كبيرة، بمسجد حسان الذي لم يكتمل بناؤه، والذي يشرف على وادي أبي رقراق ومدينة سلا، ويذكر، من خلال مساحته الشاسعة ومنارته العالية، بعظمة الدولة الموحدية. وتبعا لمؤلف كتاب «الاستبصار» والمراكشي، وابن خلكان وليون الإفريقي (الحسن الوزان)[8]، فقد شكّل رباط الفتح مدينة كبيرة بـ« أزقتها الواسعة» و«بناياتها الصلبة» و«أحيائها الحسنة التوزيع » و«مساجدها الجميلة» و «قصورها الضخمة» و «بناياتها الواسعة» و«مدارسها» و«العديد من المعالم الأخرى المشيدة لتزيين المدينة واستقبال أعيان الدولة». كما كانت تتوفر على «ديار كثيرة» وعلى «قيصارية عظيمة»... تسمح لنا تفاصيل صاحب « كتاب الاستبصار» بالافتراض أنّ بنايات المدينة الموحدية الجديدة كانت تنتصب بالقرب من قلعة الوداية إذ يقول إن «هذه المدينة قد شرفها هذا الأمير العزيز وكرّمها بما أحدثه فيها من المباني الرفيعة والمنارة البديعة، وماهي وقت مرور المحلات عليها إلاّ من عجائب منتزهات الدنيا، لاسيما في الأعوام الخصبة والفصول المعتدلة. وناهيك من ساحل طوله نحو الميلين وعرضه نحو الميل مملوء بالبشر، والزوارق في الوادي بركابها، والمنارة

8 - الحسن الوزان، «وصف إفريقيا»، الجزء 1، الرباط، 1980، ص.159 - 161.

قصبة الوداية،
جزء من التحصينات النهرية والمنارة العلوية للجامع العتيق، في خلفية الصورة.

المطلة، وعلاقات الثمار، وعقد الزيتون، وجدر الكرمات، وقبب الجلوس للسادات أيدهم الله ظاهرة، وقبلة الجامع وأكثر منارة ذلك الحصن المشرف ظاهرة من المدينة، وما هي في أوقاتها إلا أملح من ديار مصر، وما يحكى عن دجلة والفرات»[9].

المدينة غير المكتملة والمقبرة السلالية

كان البرنامج الموحدي طموحا ومكلّفا جدا، إلى درجة أنه استنفد بسرعة مالية الخلفاء الموحدين، الذين قرروا، بعد وفاة مؤسس المدينة، التخلي عن المشروع. كان لهذا القرار أثر سلبي على رباط الفتح التي انهارت، وتقلّصت لتصبح تكتلا بشريا بسيطا يتجمع حول قصبة الوداية، لم يلبث أن دخل، ابتداءا من سنة 1249 م، تحت السيطرة المرينية (ق. 13 إلى ق. 15 م). استعاد موقع شالة مرة أخرى أهميته ودوره السابق، إذ انبعثت مدينة سلا \ شالة في عهد المرينيين كرباط مقدس يأوي المقبرة السلطانية، وبنى فيها السلطان أبو يوسف يعقوب، سنة 685 هـ \ 1284 - 1285 م، مسجدا وقببا جنائزية، دفنت في إحداها - في نفس السنة - زوجته، أم العز. كما دفن فيها سلاطين آخرون كان آخرهم السلطان أبو الحسن. هذا الأخير بنى فندقا في مدخل المقبرة وسورا مخمسا يجاري طوبوغرافية الموقع. يحيط هذا السور بمساحة تقارب 23 هكتارا، ويشمل النواة الأولى للمقبرة المنشأة المشار إليه أعلاه، في حين شيّد ابنه، أبو عنان، مدرسة بجانب القباب الجنائزية، وزين قبور سابقيه.

---

9 - مؤلف مجهول، «كتاب الاستبصار»، الدار البيضاء، 1985، ص. 140 ـ 141.

المدينة العتيقة،
ساحة سيدي فاتح ومسجد المولى سليمان.

واصل السكّان في جبل الزعفران[10] وصخرة الودايةِ حياة بسيطة، على هامش الواقع السياسي الكبير للبلد. «فقد انحطت عاصمة يعقوب المنصور الغنية، وفقدت روعتها السالفة. وداخل السور الكبير المبني من طرف هذا الأخير والذي لم يعد يحتمي به أحد، وباستثناء مسجد حسان الذي لم يكتمل بناؤه، لم نعد نرى إلاّ كروما وبساتين، وبالكاد بقيت مائة دار مسكونة أو ستمائة كانون (منزل) مجتمعة في حيين أو ثلاثة أحياء في أطراف القلعة»[11]. كان رباط الفتح وقلعته يحتضران لفائدة مدينة سلا، على الضفة اليمنى للمصب، وخصوصا لفائدة موقع شالة الذي بقي المكان المقدس والمفضل بالنسبة للمرينيين. فقد جذبت شهرة المقبرة زوارا متزايدين من بينهم علماء ورجال دولة مثل وزير الدولة النصرية لسان الدين بن الخطيب، والمؤرخ ابن مرزوق، وابن الحاج النُميري، «كاتب» السلطان أبي عنان. استفادت رباط الفتح من هذا الوضع، وتمددت المدينة نحو الجنوب والجنوب - الغربي من القصبة وذلك بتدشين حيين جديدين: شيد الأوّل في الجنوب ورأى النور حول مركب معماري واسع في ملتقى زنقة السويقة الحالية وباب شالة. يتشكل المركّب الذي بناه السلطان المريني، أبو عنان، من مسجد جامع (الجامع الكبير)، وقاعة كبيرة للوضوء، وسقاية وبيمارستان (مركز استشفائي). أما الحي الثاني فتشكل جنوب - غرب المدينة، غير بعيد من الحمام الجديد المشيد من قبل نفس السلطان (أبو عنان) مكونا بذلك نواة حي لعلو الحالي.

وانطلاقا من النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي، ضعفت السلطة المرينية، وفتح المرينيون من جديد مقبرة القلّة التي تشتهر تحت تسمية «قبيبات

10 – تسمية للتل الذي بني جزء كبير من رباط الفتح فوقه.
11- الحسن الوزان، ص. 159-160.

شواية

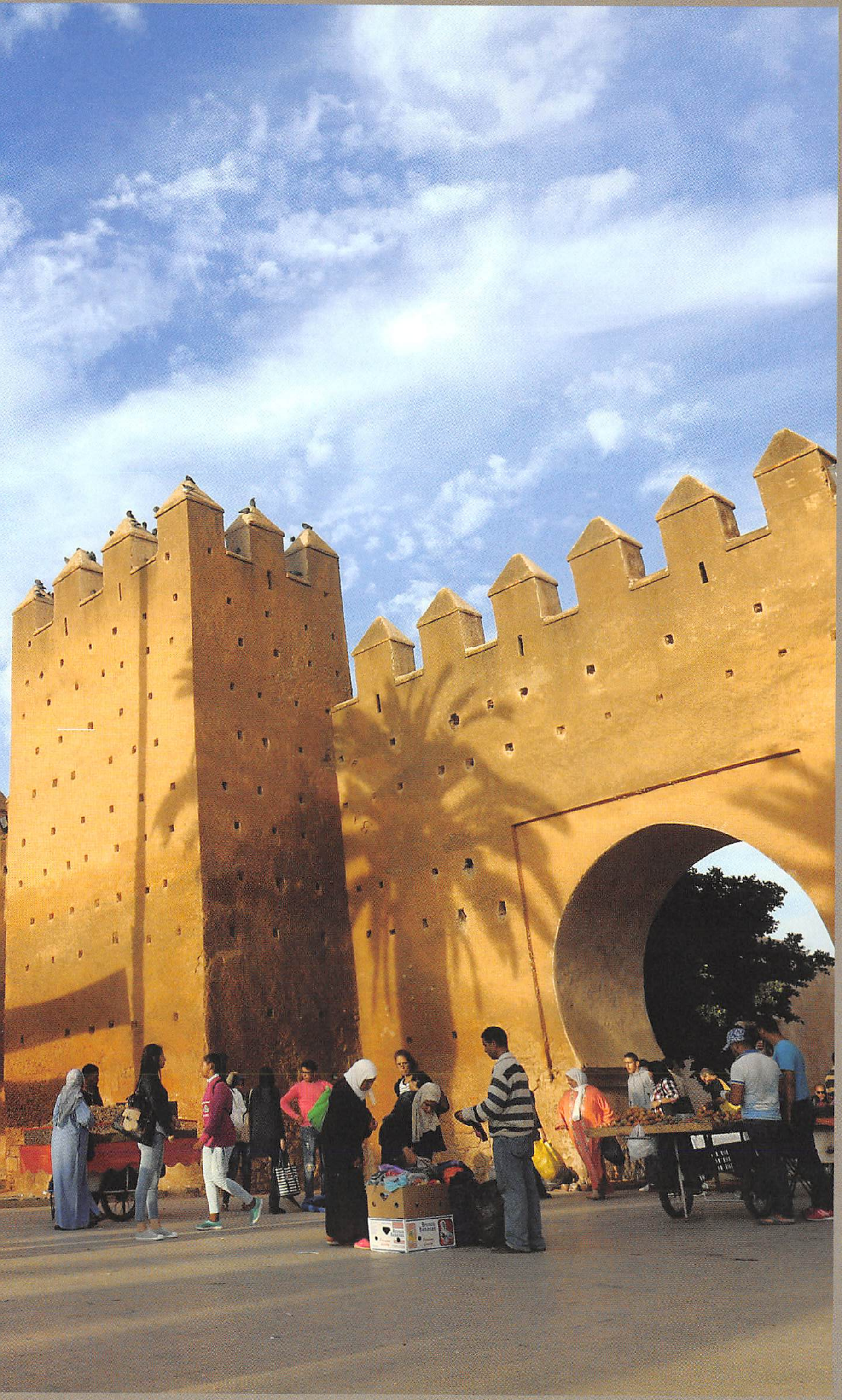

رباط الفتح،
منظر عام للأسوار الموحدية
ومتراسها الحامي لممر الجند.

بني مرين» بفاس. هُجرت شالة، وبدأت تنطمس ولم تعد إلاّ ذكرى غائمة لتلك الصورة المقدسة التي كانت لها خلال القرون الماضية. تمرّد أحمد اللحياني، أحد أقرباء السلاطين المرينيين والمتطلعين إلى الحكم، في مكناس وقاد، طيلة عقدين (1417- 1437) حروبا دموية ضدّ الجيش المريني إذ ذكر المفتي الونشريسي بأنه وسع حكمه حتى منطقة الرباط، بل حاز حتى المقبرة المقدسة. «فنهبها، وأخذ الأشياء النفيسة وحاز نسخ القرآن التي كانت مخصّصة لها». ونتيجة لذلك كله، تحولت الخلوة إلى «منتدى الجن»، وصار الموقع الذي كان روضة للمجاهدين، مقبرة للأولياء والورعين ولأعيان مدينة الرباط.

الرباط وقصبتها : قاعدة أطلسية للقرصنة

بسبب فترة اضطراب كبيرة أعقبت أفول الدولة المرينية، تمترس السكان، أو من بقي منهم، وراء سور رباط الفتح للدفاع عن أنفسهم ضد الهجمات المتوالية لطالبي الحكم. وانطلاقا من سنة 1492 م، تاريخ سقوط غرناطة، تزايد عدد سكان المدينة بسبب نزوح العائلات الأندلسية. وعندما قام فيليب الثاني سنة 1609 م بطرد الموركسيين من إسبانيا، قدم مايقارب 2000 هورناسيروس، من مدينة صغيرة في إستريمادورا تدعى هارناسوس وتتواجد على بعد 50 كلم جنوب - شرق ميريدا، واستقر هؤلاء اللاجئون في القصبة، وجذبوا آلافا من المسلمين واليهود الأندلسيين إليها. كما استقرت مجموعات أخرى قادمة من سان لوكاس وقاديس وليبيرينا داخل المدينة. لم يتأخر العدد المتزايد للمنفيين في إعادة تشكيل المدينة. فلكي يدافعوا عن أنفسهم ضد كل هجوم خارجي قرر القادمون الجدد تقليص مساحة المدينة، وبنوا ما صار يسمى بعد ذلك ب «السور الأندلسي». ينطلق هذا السور من باب الأحد في الغرب حتى برج سيدي مخلوف في الشرق.

باب الأحد،
نقيشة تخلد ترميم الباب
في عهد المولى سليمان.

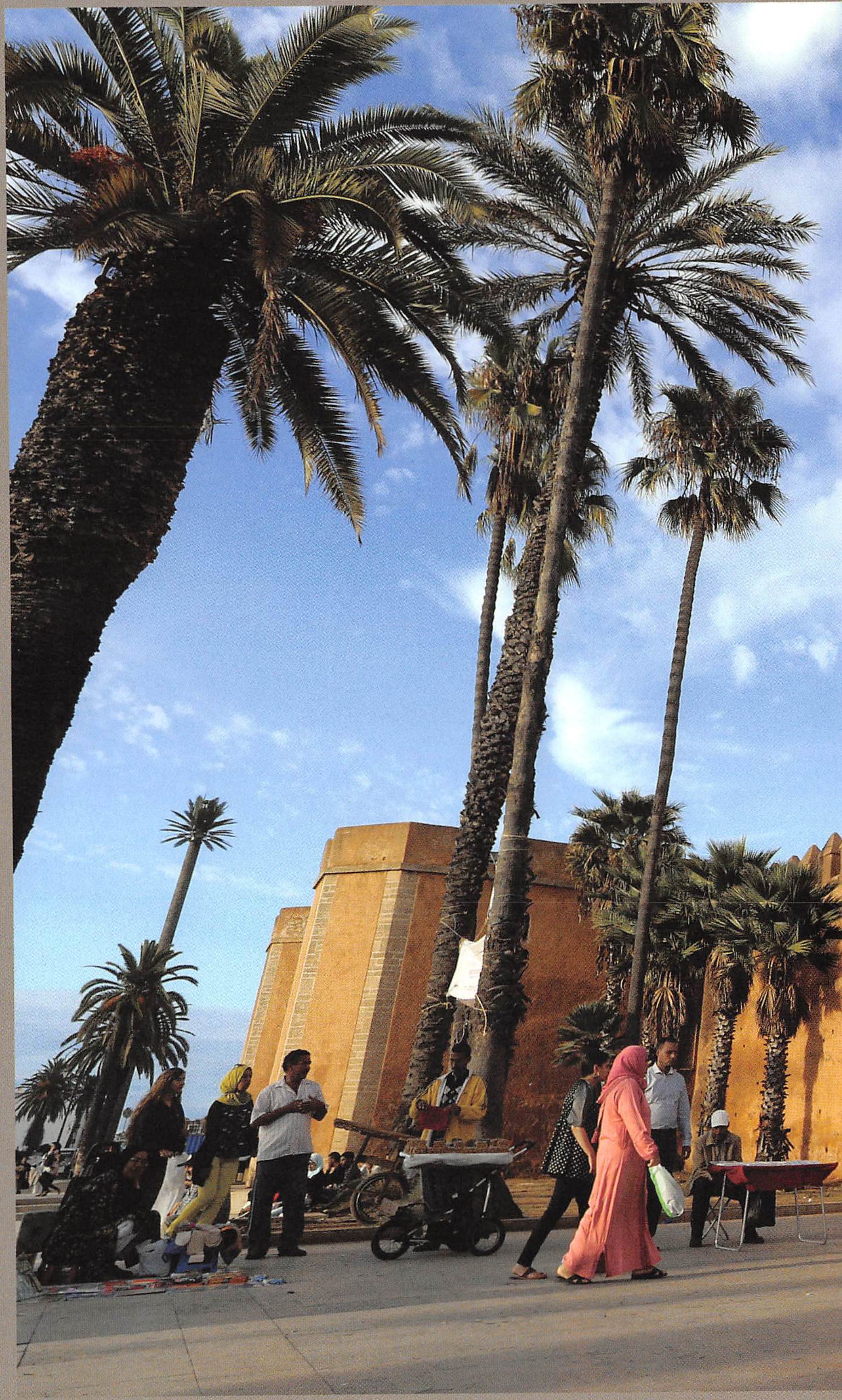

وبعد ذلك، اهتمّوا بقصبة الوداية، وحصّنوها بأبراج ومنشآت تحت أرضية كان هدفها الأساسي هو تنظيم الجهاد البحري وحماية القلعة من الهجمات، وبالأخص تلك التي تقوم بها البحرية الإسبانية والإنجليزية.

وحتى يتسنى له مواجهة أي تمرّد لهؤلاء القادمين الجدد، ولأنه يحذر خطرهم، فقد جنّدهم السلطان السعدي في جيشه، وانتدبهم لحماية مركزي الرباط - سلا. ولهذه الغاية نظّمهم عسكريا، ووضعهم في قصبة عبد المومن القديمة وفي موضع المدينة الحالية تحت سلطة قائد. ومقابل خدماتهم هاته، منحهم المولى زيدان قباضة حقوق مرور المواد التجارية بالميناء. سنوات بعد ذلك، تمرّد الموريسكيون، وحصلوا على استقلالهم. في هذه الظرفية، توحّدت مدينتا ضفتي نهر أبي رقراق، سلا القديمة وسلا الجديدة، فيما اصطلحت عليه عدة كتابات بـ «جمهورية أبي رقراق» والتي اتخذت من قصبة الوداية مقرا للحكم يقوده حاكم يساعده «ديوان، وهو ضرب من مجلس بلدي يتكون من ستة عشر عضوا». ولأنها قد تحررت من وصاية السعديين

(القرنان 16 و17 م) فقد قادت هذه الجمهورية نشاطا بحريا كبيرا للجهاد البحري ضايق الأوروبيين حتى سنة 1829 م، وفرضت الرباط نفسها، طيلة قرنين من الزمن، كإحدى أكبر قواعد القرصنة في البحر الأبيض المتوسط الغربي، وصار ميناؤها أكبر ميناء تجاري في المغرب. نتيجة لذلك كله، استقر قناصلة أوروبيون، فرنسيون وإنجليز وهولنديون خصوصا، في الرباط حتى يتسنى لهم التفاوض مع الحكومة المغربية حول مصالح سفنهم ورعاياهم.

الرباط، إقامة ثانوية للعلويين أو انبعاث مشروع قديم

وضع مجيء العلويين حدّا للتاريخ المضطرب الذي عاشه مصب أبي رقراق منذ عام 1609م. ففي سنة 1666م، استولى المولى الرشيد على القصبة التي صارت، منذئذ، قلعة مخزنية. كان المولى الرشيد يؤمّن لها إصلاحا دائما، ووضع الهورناشيروس تحت سلطته وتحت وصاية عامل يساعده قائد الميناء. وبالرغم من أن القرصنة قد تواصلت تواصلا نشيطا في ضفتي أبي رقراق إلا أن العاهل العلوي الشاب قد نجح في إرساء الهدوء، والقيام خلال هذه الفترة بأشغال توسّعية كبرى داخل القصبة. فقد مدّد المولى الرشيد الأسوار نحو الجنوب - الشرقي وقوّاها ببرجين سميكين، وشرع، تحت مراقبة عامله أحمد الريفي، في بناء الإقامة الأميرية (البناية التي تضم حاليا المتحف الوطني للحلي)، التي استمرت الأشغال فيها خلال عهد أخيه السلطان المولى إسماعيل.

وفي عهد المولى اليزيد (1790 - 1792)، أنجزت أشغال أخرى في موقع القصبة، وخصوصا المستودعات التي تشرف على منبسط الملوحة. وأخيرا، أسكن فيها المولى عبد الرحمان (1822 - 1859) قسما من قبيلة الوداية،

المنحدرة من الأقاليم الصحراوية والتي جندت في الجيش العلوي للدفاع عن مدينة الرباط وحمايتها من القبائل المتمرّدة بالمنطقة بالقصبة، والتي كلّف بعض أفرادها، وهم موظفون كبار في الدولة، من طرف السلطان بشؤون الشرطة والضرائب وتدبير الأمور العامة. ومنذئذ، حملت القصبة وحتى أيامها هذه اسم قبيلة المالكين الجدد لها: «الوداية».

لم يتخل الملوك العلويون عن باقي مواطن وأحياء المدينة. فمن جهة المحيط بنى المولى الرشيد قصرا محصنا، عُرف بقصبة المولى الرشيد وبعد ذلك بحبس لعلو بعد تحويله إلى مؤسسة سجنية، وهي صرح ضخم تصل مساحته إلى 25000 متر مربع. كما وسم سيدي محمد بن عبد الله (1757 - 1790) تاريخ المدينة ببصمته إذ شهد عهده المحاولات الأولى لمواصلة عمل الموحدين خلال حكم يعقوب المنصور وذلك بخلق نواة حضرية خارج الأسوار الأندلسية. ولأنه كان مولعا بالجهاد وكان يقدم على أفعال الخير، فقد قوّى السلطان دفاعات الموانئ، وحاول أن يحصل على أسطول حقيقي. فشيّد برج السراط، وهو مصطبة واسعة ذات شكل شبه منحرف على الشاطئ الأطلسي، وأمر ببناء السقّالة على المنحدر الذي يشرف على مصبّ الوادي، وبين الإثنين، بنى برج الدّار ليقوي السور البحري الذي تتخلله كوات للمدافع. ومن جهة البحر، أنشأ سورا آخر متواصلا يبلغ طوله 4300 متر ينطلق من المحيط ويشمل جزءا من أكدال ويصل إلى أقصى الجنوب - الغربي للسور الموحدي. تتخلل هذا السور أربعة أبواب هي باب القبيبات وباب تمارة وباب مراكش وباب المصلّى. كان هذا السور يحمي قصر المولى سليمان (دار القبيبات التي بني فيها مستشفى ماري - فوييي) والذي يشمل 421 هكتارا. وبهذا الإنجاز، صارت مدينة الرباط «تتمدد فوق مساحة تزيد عن 840 هكتارا.»

قصبة الوداية،
تحصينات من جهة مصب أبي رقراق
وبنايات حديثة داخل القلعة.
(الصفحة المزدوجة السابقة).

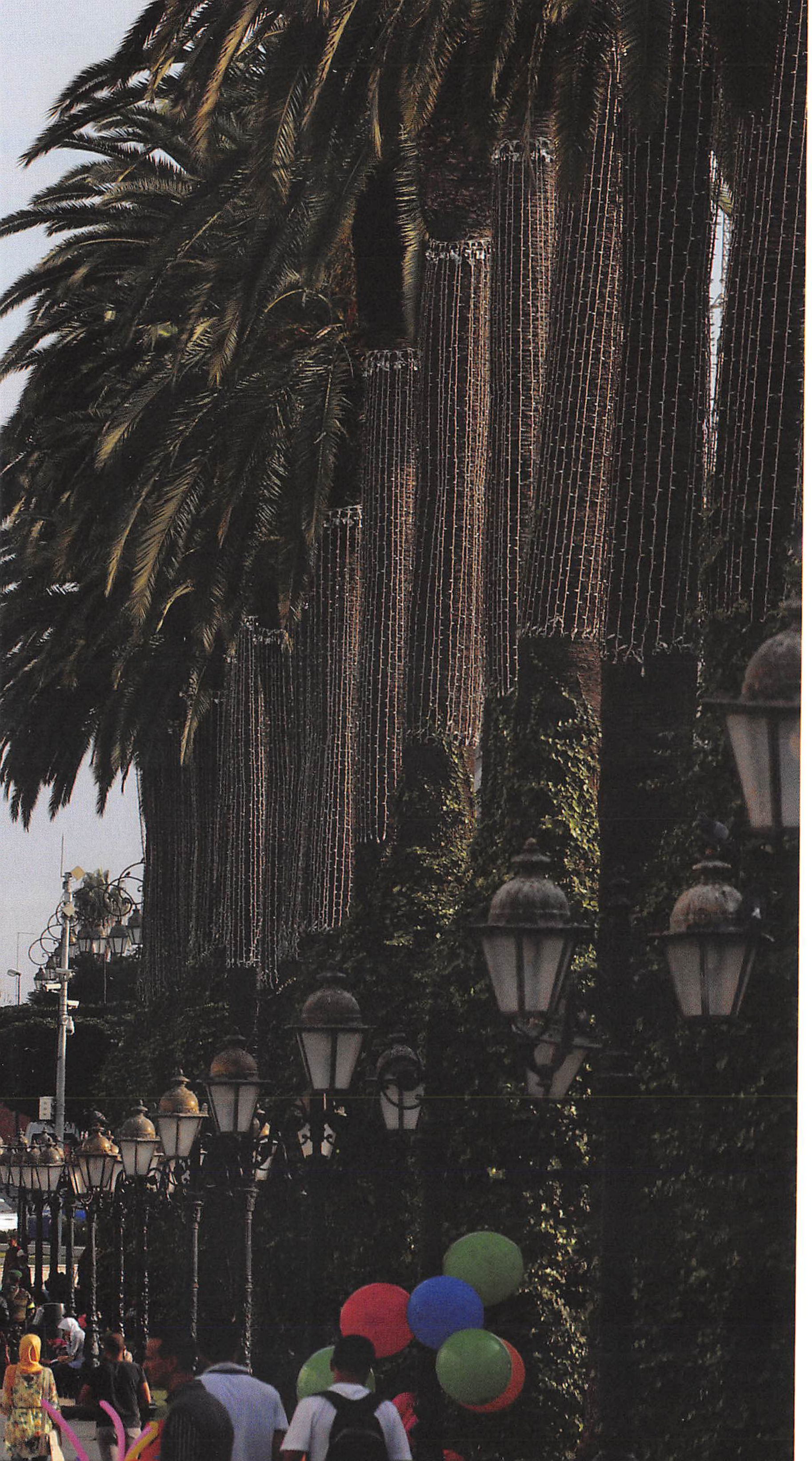

شارع محمد الخامس،
منظر جزئي وصومعة مسجد
السنة، في خلفية الصورة.

وجلب عائلات جديدة وإنشاء أحياء حديثة في المساحات الأرضية المتواجدة بين السور الأندلسي والمقبرة المرينية بشالة، شيّد سيدي محمد بن عبد الله، حوالي سنة 1785، مسجد السنّة الكبير. يثير المسجد «الانتباه وبسرعة، بشساعته وانتظامه الجيد، وبساطته الكبيرة». فهو مسجد - جامع تصل مساحته إلى 5565 متر مربع، ويبقى رابع مسجد في المملكة بعد مسجد حسان في الرباط، ومسجد الحسن الثاني بالدار البيضاء ومسجد القرويين بفاس. وتحت حكم المولى سليمان، شهدت الرباط، سنة 1807م، بناء حي جديد لليهود (الملاح) في بقعة أرضية تتواجد في الطرف الشرقي من المدينة، وجامعي الجزارين والقبة. كما بنيت دور وبيع وطواحين ومتاجر وأفران فيما تبقى من البساتين المتواجدة داخل السور الأندلسي. وعمد سيدي محمد بن عبد الرحمان، حوالي 1885 م، إلى توسيع مسجد السنّة، وبناء مسجد أهل فاس ومسجد مولينا، وأنشأ نواة القصر الملكي الحالي. ومع إنشاء هذا الأخير، والإبقاء على قصر سيدي محمد بن عبد الله، التحقت الرباط بمجموعة المدن السلطانية، وبدأت منذ ذلك الوقت تستعدّ لمنافسة مدينتي فاس ومراكش.

ولحماية نواتي القصرين السلطانيين، بنى السلاطين العلويون في سنتي 1866 - 1867 سورا ثالثا وهو سور المشور الذي يحيط بمساحة تناهز 49 هكتارا، تنتصب فوقها عدّة بنايات من أبرزها : الروضة الشريفة حيث دفن سيدي محمد بن عبد الله، ومولاي الحسن، ومسجد أهل فاس، ومساكن التوارگة، وهم «عبيد البخاري». من ناحية أخرى، شيدت قناة مائية لتزويد المدينة بالماء الشروب، من عين عتيق التي تتواجد على بعد 17 كلم جنوب غرب المدينة، والتي تنقل الماء، عبر قناة معلقة يصل علوها أحيانا إلى 50 ،2 متر،

مسجد حسان الموحدي، وضريح
ومسجد محمد الخامس، في العمق.
(الصفحة المزدوجة السابقة).

شارع محمد الخامس،
عمارات تعود إلى الأربعينيات من القرن العشرين.

ليصل لباب القبيبات، ثم لباب لعلو، ليوزّع على عدة قنوات، بعضها تنقل الماء للسقّايات والحمامات والمساجد، بينما تزوّد ثلاث قنوات خاصة دار عامل المدينة ودار شرفاء وزّان، ودار المولى الرشيد. أنجز تزود ثان من عين غبولة، المتواجدة على بعد 19 كلم في الجنوب - الغربي للرباط، وأعاد استعمال قنوات الموحدين في القرن 12 الميلادي والتي هي في هيأة قناة عرضها ما بين 0,42 و 0,48 متر، مقوّاة في بعض الأماكن بدعامات، والتي كانت تزوّد دار المخزن.

الرباط: عاصمة المملكة

بعد أزيد من ثمانية قرون من الانتظار، تمت ترقية مدينة الرباط سنة 1912 م من طرف السلاطين العلويين إلى مرتبة عاصمة البلد ومقر الدولة الحديثة للمملكة. انطلق تحويل العاصمة إلى الرباط يوم 28 يوليوز 1912 بوصول السلطان المولى عبد الحفيظ إليها، ونقل مقر الإقامة العامة، والاستقرار النهائي للمقيم العام المارشال ليوطي بها. في البداية، توجّب الاختيار بين عدة موانئ أطلسية، وخصوصا بين الرباط والدار البيضاء، وروعي آنذاك بأن تكون العاصمة بعيدة عن التأثيرات الاقتصادية، وخصوصا عن أيّ انقطاع للتواصل. وبالاستقرار في الرباط، حاول الفرنسيون عزل مقرّ الحكومة وتجنب انخراطه في الحياة النشطة للميناء الكبير للدار البيضاء، وبالتالي تجنب الخلط بين العاصمة الإدارية والعاصمة الاقتصادية للمغرب. وهكذا منحت العاصمة الجديدة ميزة كونها بعيدة، ليست فقط عن صخب الدار البيضاء، وإنما أيضا عن انتفاضات فاس وصراعاتها. وبهذا الشكل، وجد ليوطي نفسه في موضع وسط إزاء مجموع البلد.

زاوية شارع محمد الخامس
وزنقة أبي عنان، عمارة تعود إلى
الأربعينيات من القرن الماضي.

طيلة النصف الأول من القرن العشرين، شكلت الهندسة المعمارية والتعمير أداة لا غنى عنها في سياسة الحماية الفرنسية التي تم إرساؤها بالمغرب وهي الحقبة التي شكّل المغرب خلالها حقلا لتجريب السياسات الحضرية الجديدة. ولتحقيق تصوره التعميري للمستعمرة الجديدة، دعا المقيم المارشال ليوطي مجموعة من المهندسين الحضريين الشباب، كان بروست أشهرهم. وصل هذا الأخير إلى المغرب بعد فترة قضاها في إسطنبول حيث اقترح مخططا عمرانيا، وبعد إجابته اللاّمعة على مخطط تهيئة مدينة أنفيرس. انتبه له ليوطي خصوصا بنظرته للدور الاجتماعي للهندسة المعمارية، والتي كان يقتسمها معه، وعيّنه مهندسا معماريا رسميا للمملكة الشريفة وكلّفه ببناء المدن الجديدة. وبتجربته في مجال التخطيط الحضري، تمكّن بروست من دمج المقاربات السياسية والثقافية والجمالية ليولّد أسلوبا معماريا مجددا شكّل مدرسة في ذلك الوقت. ففي مساحات أرضية خالية، أبرز هؤلاء المهندسون المعماريون الحضريون ورسامو الطبيعة مواهبهم بشكل لافت، ومكّنتهم مهاراتهم التقنية والعلمية من إنجاز تحف لا مثيل لها: شوارع لها ملمح متاحف في الهواء الطلق حيث تتمظهر كل الأساليب المعمارية. لقد تبنّوا، وبصرامة، مواقف الحركة الثقافية المرتكزة على منجزات كيفية. وبهذا صار المغرب

شارع محمد الخامس،
نافورة أمام محطة السكك
الحديدية الرباط–المدينة.
الصفحة المقابلة.

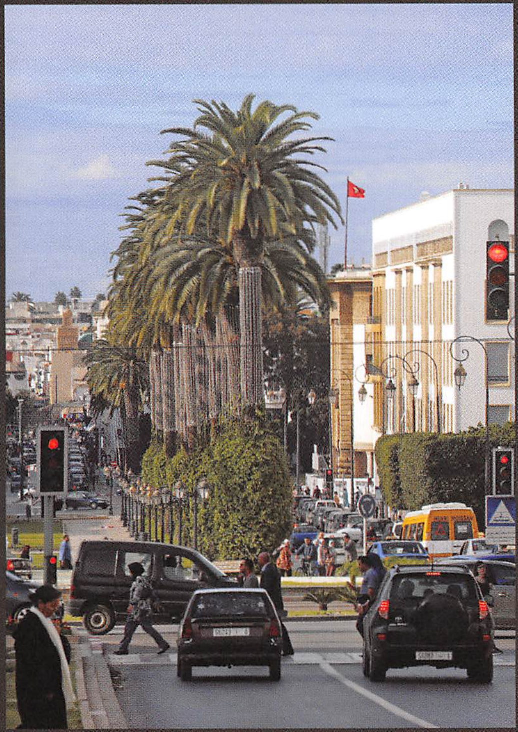

شرفة بناية من المرحلة
الاستعمارية.

بعاصمته الجديدة ساحة مميّزة لتجريب تقنيات عمرانية ومعمارية جديدة. وبالرغم مِن أن الرباط قد شرعت في تطوير نفسها مدة طويلة قبل الإنزال الفرنسي سنة 1907 م، فهي تبقى، وفي جزء كبيرمنها، إنجازا حضريا كبيرا للقرن العشرين، الذي شهدت فيه توسّعا مشهودا، وغير مسبوق، بفضل ليوطي الذي أرسى استراتيجية حضرية جديدة ومجددة في البلد.

الرباط، تراث ذو قيمة كونية

عرفت المعالم الكبيرة للنسيج التاريخي للرباط، بفضل رعاية الأمراء والأعيان تقوية وترميما دائمين. فالمصادر التاريخية تروي بأن المساجد والصهاريج والقنوات كانت موضوع إصلاح منتظم منذ إنشائها بفضل مداخيل الوقف، وهو ما جعل أسوار الموحدين (القرن 12م) والمرينيين (القرن 14م) والأندلسيين (القرنان 16-17) والعلويين (القرون 17 إلى 19) والتي تمتد على طول 7 كيلومترات والنسيج التاريخي القديم والوسيطي، وكذا الحديث والمعاصر، تصلنا في وضعية جيدة من حيث المحافظة عليها. وهكذا تمنح هذه المجموعة التراثية مدينة تؤرخ لألفي سنة تتجلى فيها موروثات متقاسمة بين عدة ثقافات، وشكلا مازال يفصح عن التمازج والتبادلات التي حدثت لأزيد من 2000 سنة بين ضفتي المضيق. إنها مدينة خضراء تنسقها مختلف حدائقها التاريخية، وتبقى نموذجا حيث تتعايش، في تكامل تام، الأصالة والمعاصرة، في انتقالية رائعة من النسيج التقليدي للمدينة إلى النسيج الحديث لأحياء القرن العشرين.

أعطت الأساليب الموظفة، بما فيها القديم والإسلامي والأوروبي (الكلاسيكي الجديد، وفن ما يسمى بال «آر ديكو»، والفن الجديد، والفن المعاصر، والفن

ضريح محمد الخامس،
بعض تفاصيل تيجان الأعمدة.

الموريسكي الجديد) تراثا يزخر بقيمة عالمية استثنائية، ومنحتها التركيبات المنجزة في الهندسة المعمارية لعدّة بنايات والزخرفة المزينة لواجهاتها خاصية مميّزة، وبالتالي منحتها العديد من المعايير التي جعلت منها تراثا للإنسانية. لقد عرف موقع الرباط تاريخا طويلا حيث تم نقل مركز مختلف السلط الحاكمة التي استقرت فيه من مرحلة إلى أخرى : محطة تجارية في عهد الفينيقيين، ومدينة مورية في عهد الملوك الموريين، وحاضرة رومانية إبان المرحلة القديمة، ورباط للجهاد تسنده قلعة، ثم معسكر للجند بتأسيس رباط الفتح، وعاصمة للمملكة، وبالتالي، فإن الرباط تعتز بغنى تاريخي نادر، نتج عنه تواصل عمراني على مرّ الأزمنة، وتراث متنوع يبدأ من المرحلة القديمة حتى منتصف القرن العشرين، كما يشهد على ذلك الموقع الأثري لشالة وقصبة الوداية، والأسوار والأبواب الموحدية، ومسجد حسان، والمدينة القديمة، والسور المسمى بالسور الأندلسي، والمدينة الجديدة، وضريح محمد الخامس.

غير أن العصر الموحدي يشكل الفترة التي عرفت خلالها مدينة الرباط أجمل جواهرها والتي تبقى تحفا حقيقية للفن والهندسة المعمارية الأندلسية ـ المغربية، التي تشكلت من تأثيرات شرقية (بيزنطة وسورية الأموية) وغربية (الفن الأندلسي، والفن الإفريقي وفن المغربين الأوسط والأقصى)، وطورت تقاليد محلية اغتنى مجموعها بتقنيات جديدة وتركيبات نجدها في عدة منجزات للسلالات الحاكمة سواء تلك التي تعود إلى المرينيين أو تلك التي شيدت خلال حكم كل من السعديين والعلويين. إن ضريح محمد الخامس الذي أنشئ لتخليد ذكرى المغفور له جلالة الملك محمد الخامس قد صمم بطريقة تجعل منه معلمة تجسد تركيبا حقيقيا لكل الفنون الزخرفية للمغرب الإسلامي منذ البدايات حتى اليوم. فهو يجمع نطاقا واسعا من الزخرفة المنجزة على كل المواد المستعملة (الحجر والخشب والزليج والجص).

المدينة العتيقة،
واجهات دور الملاح.

الرباط، مدينة التعايش والوحدة والعيش المشترك

رغم أن الإسلام قد أثر تأثيرا عميقا في الرباط، إلا أنها تبقى، على غرار عدة مدن في المملكة، أرضا للتسامح حيث تعايشت بها وتساكنت على أرضها الديانات الموحدة الثلاث. فقد اتخذت منها عائلات يهودية من أصل مغربي وأخرى قدمت من الأندلس انطلاقا من سنة 1492م مقرا للإقامة بها. قدر عدد اليهود خلال سنة 1858 ب 7000 شخص بينما عد إحصاء مارس 1913 بالمدينة « 21.036 مسلم و2.397 إسرائيلي »[12].

لم تتأخر العائلات اليهودية التي استقرت في البداية في مختلف أحياء المدينة القديمة، وخصوصا في حي البحيرة المتواجد شمال - شرق باب لعلو، في أن تتجمع في حي الملاح حيث كان بإمكانها أن تتمتع، مثل باقي أفراد ساكنة المدينة، بالمؤسسات الضرورية للحياة الخاصة بهذه الطائفة. وفي بداية القرن العشرين، كانت عشر بيع مازالت مفتوحة للطقوس اليهودية وهي صْلاة دافيد كوهن (درب دافيد كوهن)، وصْلاة إلياهو كوهن (درب الجديد)، وصْلاة بردوڭو (درب مازوتي)، وصْلاة أزويلوس (درب مازوتي)، وصْلاة رب الحبيب مزراحي (درب كومير)، وصْلاة أتياس (درب السقاية)، وصْلاة أبي حصيرة (درب بن عطار)، وصْلاة حاييم دافيلا (درب السقاية)، وصْلاة الحزان دافيد (درب الحزان دافيد) وصْلاة الربي شالوم الزاوي.

وحسب الرواية الشفوية التي مازال يتناقلها اليهود الرباطيون فإن عدد البيع قد وصل إلى 19 بيعة من بينها 15 أنشئت في الملاح (الربي شالوم بن الزاوي، وصْلاة بردوڭو، وربي رفاييل أتياس، والربي أليعازر دافيل، والربي إيسخار الرويمي، والربي كوتييل بردوڭو، وصْلاة الفاسيين، والربي حاييم دافيلا، وصْلاة إفراح، وصْلاة موشي شوفير، وصْلاة إلياهو كوهن، وصْلاة شديدا (الربي أبرهام أوحيون) وصلاة دافيد زراد، وصلاة موشي بردوكو وصلاة ربي راحميم مزراحي)، وأربع في المدينة الجديدة (تالمود تورا، وبردوكو، وبوينو والعلوف). وفي عهد الحماية الفرنسية هجر معظم أفراد الطائفة اليهودية المدينة القديمة ليستقروا في المدينة الجديدة أو في الدار البيضاء، العاصمة الاقتصادية للمملكة، وفوتت هذه البيع التي كانت في الغالب ملكيات خاصة أو حولت إلى محلات تجارية، ولم تبق في يومنا هذا إلا البيعة المسماة صلاة الربي شالوم الزاوي[13].

انضافت إلى الساكنة المسلمة واليهودية، وبشكل تدريجي، مجموعة ثالثة تشكلت من مسيحيين جاؤوا من مختلف الدول الأوروبية. وتبعا للباحث جاك كايي « فقد تضمنت الجالية الأوروبية 60 شخصا فقط سنة 1903 و107 أواخر 1906، قبل أن يتزايد هذا العدد شيئا فشيئا ليصل إلى 1283 في غشت سنة 1912 »[14]. وبعد توقيع معاهدة الحماية انجذب المسيحيون (فرنسيون، وإسبان، وبرتغاليون) للإمكانيات التي يزخر بها البلد، واستقروا في الرباط في البنايات الحديثة للمدينة الجديدة. ولممارسة طقوسهم الدينية، بنوا عدة كنائس ومصليات تبقى أهمها وأعظمها كاتدرائية القديس بيير.

12 - انظر:
J. Caillé, *La Ville de Rabat*, p 562.

13 - انظر:
H. Rguig, « Les mallahs en milieu urbain : Histoire, architecture et urbanisme », Thèse pour l'obtention du diplôme des études supérieures en archéologie islamique, INSAP, Rabat, 2004.

14 - انظر:
J. Caillé, *La Ville de Rabat*, p 562.

بعض المراجع المنتقاة

Basset H. & Lévi-Provençal E., *Chella : une nécropole mérinide*, E. Larose éditeur, Paris, 1929.

Basset H. & Terrasse H., «Sanctuaires et forteresses almohades», coll. *Hespéris,* I.H.E.M., Larose éditeur, Paris, 1932.

Basset H., «Un aqueduc almohade à Rabat», dans *Revue africaine*, 1923, p. 523-528.

Belfquih et Fadlollah, «Réorganisation et redressement fonctionnel des médinas de Rabat Salé», dans *Présent et avenir des médinas de Marrakech à Alep*, Fasc. 10-11, CNRS, Tours, 1982, pp. 147-198.

Belfquih M. et Fadloullah A., «Mécanismes et formes de la croissance urbaine au Maroc» – *Cas de Rabat-Salé* – 3 tomes, Rabat, 1986.

Brulot J., *Découverte de Rabat,* Rabat, éditions la Porte, 1972.

Caillé J., «La ville de Rabat jusqu'au Protectorat français», *Publications de l'Institut des hautes études marocaines*, Tome XLIV, Editions d'art et d'histoire, Paris, 1945.

Chastel R, *Rabat-Salé, vingt siècles de l'oued Bouregreg*, éditions la Porte, Rabat 1994.

Monthahuc Y., *Les Oudaias : bastion des corsaires de Salé*, Imprimerie d'Ain Sebaa, Casablanca, 1980.

Mouline S., « Demeures de Rabat au XIX^e siècle », dans *L'habitat traditionnel dans les pays musulmans autour de la Méditerranée*, Tome 1 : «L'héritage architectural : formes et fonctions», IFAO et CNRS, Paris, 1989.

Rguig H., *Les mallahs en milieu urbain : histoire, architecture et urbanisme*, DES en Archéologie islamique, INSAP, Rabat, 2004.

حسن أميلي، «الجهاد البحري بمصب أبي رقراق خلال القرن السابع عشر». المحمدية، منشورات كلية الآداب الرباط، منشورات وزارة الثقافة، 2006.

عثمان عثمان إسماعيل، «تاريخ شالة الإسلامية»، بيروت، دار الثقافة، 1975.

عبد الله السويسي، «تاريخ رباط الفتح»، الرباط، مكتبة الطالب، 1979.

الفاسي، «مدينة الرباط وأعيانها في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين (1830-1912)»، مطبعة الأطلس، الرباط، 1996.

عبد العالي فاتح ومحمد عبد الجليل الهجراوي وأحمد صالح الطاهري وعبد العاطي لحلو، «الرباط - سلا - زمور - زعير»، سلسلة تاريخ وتراث جهات المغرب، 2009.